معارك الملك عبد العزيز المشهورة لتوحيد البلاد

د. عبد الله الصالح العثيمين

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية
العثيمين، عبد الله الصالح
معارك الملك عبد العزيز المشهورة لتوحيد البلاد.
. . . ص؛ . . . سم
ردمك ٢ـ ٦٨٧ ـ ٢٧ ـ ٩٩٦٠
١ ـ السعودية ـ تاريخ ـ عصر الملك عبد العزيز
٢ ـ السعودية ـ تاريخ ـ توحيد الدولة.
٣ ـ عبد العزيز آل سعود، ملك السعودية.
٤ ـ السعودية ـ حروب. أ ـ العنوان
ديوي ٩٥٣,١٠٥ ١٥/١٦٥١

ردمك ٢ ـ ٦٨٧ ـ ٢٧ ـ ٩٩٦٠ رقم الإيداع: ١٥/١٦٥١

الطبعة الأولى

١٤١٥هـ/١٩٩٥م

الطبعة الثانية

منقحة ومزوَّدة بالفهارس

١٤١٦هـ/١٩٩٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد للَّه ربِّ العالمين. والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، وقدوة المجاهدين المصلحين، نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإن لتاريخ المملكة العربية السعودية، التي نعيش في ظلِّ راية وحدتها الوارف، جذوره القوية الممتدة إلى أكثر من قرنين ونصف القرن من الزمن. فبدايته تعود إلى المبايعة التي انعقدت، سنة ١١٥٧ هـ/ ١٧٤٤ م، بين الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأمير الدرعية حينذاك، محمد بن سعود، على نشر دعوة التوحيد الإصلاحية التي نادى بها ذلك الشيخ وتعهَّد بنصرتها هذا الأمير[١]. وبتلك المبايعة المباركة بدأت الدولة السعودية الأولى، فحقَّقت مع مرور الأيام الكثير من النجاح؛ إصلاحاً، واتِّساعاً، وأمنا. ثم شاء الله أن تنهي وجودها السياسي قوة الامبراطورية العثمانية عن طريق واليها في مصر. لكن الأساس العقدي المتين الذي قامت عليه، وحبَّ الوحدة الواضح الذي غرسته، وطعم الأمن المثالي الذي حقَّقته، كانت أقوى من أن تزول من نفوس كثير ممن استظلُّوا

---

(١) لمزيد من التفصيل انظر الفصل الأول من هذا الكتاب.

بظلِّها . ولهذا لم تمض سبع سنوات على نهايتها السياسية إلا وقد ارتفعت أعلام الإمام تركي بن عبد اللَّه آل سعود مؤذنة بقيام الدولة السعودية الثانية . ومرَّت هذه الدولة بما مرَّت به من نجاح وقوة، وتقلُّب وضعف، حتى انتهت بعد سبعين عاماً من قيامها . وبعد عشر سنوات فقط من تلك النهاية خطا الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل آل سعود أولى خطواته في مسيرته الطويلة حتى اكتمل على يديه توحيد جميع مناطق البلاد، وأصبحت تُسمَّى المملكة العربية السعودية .

ولقد نال التاريخ السياسي للدولة السعودية، بمرحلتيها الأولى والثانية، نصيبه من دراسات المؤرخين المحدثين . ونال هذا التاريخ في مرحلتها الثالثة ـ قبل اتخاذها اسم المملكة العربية السعودية وبعده ـ حظَّه الأوفر من بحوث أولئك المؤرخين ومن المتخصِّصين بالعلوم السياسية . وكان من مقتضيات تلك البحوث أن تتناول جوانب من التاريخ العسكري لتوحيد البلاد، الذي لم يتمَّ إلا بتوفيق من اللَّه، ثم بكفاح ذي صبغة عسكرية قارب ثلاثين عاماً؛ لمَّا لشمل أجزائها، وتثبيتًا لأسس وحدتها . وبالإضافة إلى ذلك فقد أفرد عدد من الكتَّاب بعض هذه الجوانب العسكرية بكتابة خاصة . ومن هؤلاء العميد محمد إبراهيم رحمو[1]، والأستاذ عمر ابن غرامة العمروي[2]، وأعضاء اللجنة العسكرية التي قامت

---

(١) كتابه : **أضواء حول الاستراتيجية العسكرية للملك عبد العزيز وحروبه**، دارة الملك عبد العزيز بالرياض، ١٣٩٨ هـ.

(٢) وكتابه : **المعالم الجغرافية والتاريخية لمواقع الملك عبد العزيز الحربية**، الرياض، ١٤٠٦ هـ.

كتاب عن التـاريخ العسكري للملك عبـد العزيـز[1]. وفي كتابـات هؤلاء جميعاً ما فيها من جهد وفائدة.

وهأنذا أدلي بدلوي، وأكتب عن معارك الملك عبد العزيز المشهورة لتـوحيد البـلاد سـواء تلك التي قـادها وأدارهـا بنفسـه أو التي تمَّت بتـوجيه وتخطيط منـه. وإني لأدرك غايـة الإدراك قصر باعي في هـذا الموضوع. لكـن مما شجَّعني على اقتحـام دروبه الشـاقة هـو شعوري بأهميتـه، وعدم وجـود كتابـات علمية منشـورة فيه بين أيـدي القراء الكرام.

ولقـد استفدت من كتـابات من سبقـوني؛ لا سيما أعضاء اللجنـة العسكرية المشار إليها سابقاً، في بعض الوجوه العامة لطريقة العرض والإخراج. وذلك بـالحديث عن المعركـة من حيث الموقف السياسي العام في المنطقـة قبيل حدوثها، والموقف السيـاسي العسكري الخاص بطـرفي النزاع فيهـا، وسير حوادثهـا، واستنبـاط الدروس المستفـادة منهـا. أمـا المادة ذاتها، أو المعلومـات التي أوردتها، فقـد اعتمـدت فيها، بدرجة كبيرة، على ما تمكَّنت مـن الاطلاع عليه من مخطوطات ومطبوعات كتبها مؤلفوها خلال فترة حدوث تلك المعارك أو بعدها بقليل؛ خاصـة أن هؤلاء المؤلفين كانـوا من ذوي المكانـة الاجتماعية التي تمكِّنهم من الاتصال بالقادة الذين تحدَّثوا عنهم وعماً قاموا به من أعمال. وأضفت إلى ذلك مـا تـوفَّـر لـديَّ من معلـومـات وآراء في دراسات متعدِّدة، ومـا اختزنته الذاكرة من روايـات محلِّية. وقارنت

---

(١) وكتابهم: المعـارك الحاسمة في تـاريخ الملك عبـد العـزيز العسكـري، مسوَّدة بـالآلة الكاتبة.

بين جميع ما اطلعت عليه أو سمعته من معلومات، فاعتمدت على ما ترجَّح عندي أنه أقرب إلى الصحة. ثم بذلت جهدي ـ وهو جهدُ مقلّ ـ في تحليل تلك المعلومات، وعرضها، وصياغتها؛ أملاً في تحقيقِ الغرض من الكتابة في هذا الموضوع المهمّ. وبما أن مؤسس وحدة هذه البلاد قد أصبح يُسمَّى ملكاً بعد إكمال تلك الوحدة فإني رأيت من الأفضل أن أتحدَّث عنه، في ثنايا هذا الكتاب كلِّه، بذلك اللقب، الذي صار اللقب الرسمي له.

وكم يسعدني أن أسجِّل، في هذه المقدّمة القصيرة، شكري الجزيل لكل من لقيت منه عوناً في إنجاز عملي. وأخصُّ بالذكر سعادة وكيل وزارة البترول والمعادن لشؤون المساحة، الأستاذ سليمان الربيش، الذي أمدَّني بخرائط مفيدة، وزميلي الدكتور طه الفرَّاء الذي أرشدني إلى كيفية الاستفادة من تلك الخرائط، والأستاذ محمد فوزي سليمان الذي ساعدني في رسم بعضها مبدئياً، واللواء الركن عبد الرحمن المرشد قائد كلية الملك عبد العزيز الحربية الذي وجَّه قسم الخرائط فيها لمساعدتي، والأخ فوَّاز سوادي العنزي من هذا القسم الذي قام برسم خرائط المعارك بصورتها التي هي عليه الآن. وممن أدوِّن لهم امتناني العميق، هنا، زميلي في العمل الأستاذ السرّ مساعد الخليفة لما تحمَّله من صبر عليَّ في إعادة طباعته لأجزاء من الكتاب نتيجة لما استحسنته من تغيير في تلك الأجزاء.

وإني لأرجو الله العلي العظيم أن يوفِّق الجميع لما فيه الخير والسداد.

عبد الله الصالح العثيمين

٢٣/٣/١٤١٥هـ

الفصل الأول

أوضاع البلاد حتى بداية حكم الملك عبد العزيز

عندما بدأ الملك عبد العزيز انطلاقة مسيرته لتوحيد مناطق البلاد كان يعتمد على ثقة كبيرة بالله، ثم على صفاته القيادية العظيمة وما لأسرته من رصيد تاريخي له مكانته في قلوب كثير من السكان. والحديث عن أوضاع البلاد قبل ذلك الملك يتطلَّب عرضاً موجزاً لأوضاع كل منطقة من مناطقها قبل الحكم السعودي، كما يتطلَّب لمحة تاريخية عن جذور هذا الحكم، والأسس التي قام عليها، والمراحل التي مرَّ بها.

وبما أن هذا الكتاب خاص بالناحية العسكرية من تاريخ الملك عبد العزيز فإن من المستحسن إعطاء فكرة عن بعض الجوانب العسكرية في حياة من سبقوه من أسرته.

١ ـ أوضاع البلاد قبل الحكم السعودي:

كانت منطقة الحجاز تحت حكم الأشراف منذ مطلع القرن الرابع الهجري. وكان ولاء أولئك الأشراف يتذبذب بين دولة إسلامية وأخرى حسب قوة الدول المحيطة بهم وضعفها. لكنهم كانوا في أغلب فترات تاريخهم تابعين رسمياً للدول التي اتخذت من مصر مركزًا لها؛ مثل الدولة الفاطمية، والدولة الأيوبية، والدولة المملوكية. ولما انتزع العثمانيون مصر من المماليك، عام ٩٢٣ هـ/ ١٥١٦ م، أعلن أشراف الحجاز ولاءهم للسلطان العثماني. وبذلك دخلت الحجاز تحت حكم العثمانيين. وظلَّت تابعة لهم حتى انتزعها منهم آل سعود عدة سنوات خلال الدولة السعودية الأولى.

على أن تاريخ الأشراف الطـويل لم يخل من الصراع على الحكم إلا في فترات قليلة. وكانت تُرتكب خـلال بعض حوادث ذلك الصراع أنواع من العنف والقسوة لم تقتصر على أطراف النزاع، بل امتدَّت إلى الأبرياء من السكان والحجاج على حدٍ سواء.

وكـان لـوجـود الحرمين الشريفين في الحجـاز أثـره الكبير في الحيـاة العلمية. ذلك أن بعض العلماء من الأقطـار الإسلامية المختلفة كـانوا يجاورون في مكة والمدينـة. وكثيرًا ما قـاموا بالتـدريس والتأليف. لكن وجـود أولئك العلماء في المدينتين المقدستين لم يحل دون انتشـار كثير من البدع والخرافـات، التي كانت منتشرة في كثير من البلدان الإسـلامية. ونتيجـة لجهل كثير من فئـات القبـائل الحجازيـة بأمـور دينهـا كـانت جماعات منها غير محافظة على شعائر الإسلام ولا ملتزمة بواجباته.

وكان نفـوذ أشراف الحجاز قد امتـدَّ إلى القُنْفذة جنـوباً. لكن ذلك النفوذ كان واضحاً في تهامـة أكثر من الجهـات الجبلية في عسير. بل إن من المرجح أن نفـوذهم في هـذه الجهــات لم يكن سـوى تحالف بعض القبائل معهم. ولم تكن الحياة العلمية جيدة في عسير خلال الفترة التي يتناولها هذا العرض. ولذلك لم يكن غريبًا أن يـوجد فيها ما كان يوجد في كثير من المجتمعـات الإسـلامية حينـذاك من جهل بأمـور الـدين، وإهمال لواجباته، وانتشار للبدع والخرافات.

أمـا المخـلاف السليمانـي ــ أو إقليم جــازان ــ فقد كـان إمــارات متعددة منذ نهاية القرن الـرابع الهجري حتى منتصف القرن الثاني عشر عنـدمــا نجح الشريف محمـد بن أحمد آل خيرات في تــوحيـده تحت

قيادته. وكانت الحياة العلميـة فيه لا بأس بها. على أنه قد انتشرت فيه خـرافـات وبــدع مشـابهة لما كـان منتشرًا في بـلاد إسلاميـــة أخـرى.

وأمـا نجران فكـان أكثر سكـانه مـن قبائل يـام، التي كانت نشطـة عسكريًـا. وكثيرًا ما قامت فئـات من هذه القبائل بأعمال عسكـرية إلى جانب المتحـاربين في جازان أو اليمن. وكـان وضعها مشـابهاً لأوضاع القبائل الرحَّل الأخرى في كثير من أقاليم الجزيرة العربية من حيث غلبة الجهل بأمور الدين وإهمال واجباته.

وكان شرقي البلاد المشتمل على إقليمـي الأحساء والقطيف قد دخل تحت حكم العثمانيين حـوالى عام ٩٦٠ هـــ. وظلَّ تحت حكمهم حتى انتزعه منهم آل حُـمَيْد زعماء بني خالـد عام ١٠٨٠ هـ. وكانت توجد فيها حركـة علمية جيدة. لكن كان يـوجد فيها ما كان يـوجد في غيرها من بدع وخـرافات ومن جهل بأمور الـدين وإهمال لواجباته؛ خـاصة بين فئات القبائل الرحَّل.

أما نجد فقد كانت مفككة؛ كـل بلدة لها إمارتها المستقلة المعادية في كثير من الأحيـان لجارتها. وكـان هــذا التفكك من أسبـاب ضعفهـا وامتداد نفوذ القـوى المحيطة بها شرقاً أو غرباً عليهـا. ولما ضعف مركز العثمانيين في جزيرة العرب، بصفة عامـة، وانتزع بنو خالد منهم حكم المنطقة الشرقيـة أصبح الـزعماء الخالديـون ينافسـون أشراف الحجاز في منطقة نجد. على أن نفوذ كلٍ منهما فيها لم يكن من القوة بحيث يفرض الأمن أو يمنع تحارب البلدان والقبائل النجدية.

وكان المذهب الحنبلي هـو المذهب السائد بين علماء نجد منـذ القرن التـاسع الهجـري. وكـان عـدد العلماء يـزداد من قـرن إلى آخـر. لكن الغـالبيـة من السكـان؛ خـاصة القبـائل الـرحَّل، كـانـوا محرومين من التعليم. وكـان كثير من فئات القبـائل جـاهلين بأمور الـدين مهملين لواجباته. وقد انتشر في نجد حينذاك ما انتشر في غيرها من بلدان العالم الإسـلامي من خرافـات وبدع، وإن كـانت الخرافات الصـوفية وبنـاء القباب على القبور فيها أقلَّ ممَّا في غيرها[1].

وهكذا يتبيَّن أن أوضاع المنـاطق المختلفة من البلاد كانـت في حاجة إلى إصلاح ديني وسياسي. وكانت نجد بالـذات منطقة مناسبة لتكون المركز الذي ينطلق منه ذلك الإصلاح. فلم تكن للصوفية المنحرفة فيها جذور مثل الجذور الموجودة في مناطق أخرى. وكانت بعيدة نسبيًا عن متناول السلطات العثمانية، مما يتيح لأي نشاط إصلاحي فيها أن يثبِّت أقـدامه وينمـو قبل التـدخل الخارجي. ولقد تحقَّق مـا كـان متوقعـا. فقامت دعوة الشيخ محمد بن عبد الـوهاب الإصلاحية التي ناصرها آل سعود، فكانت خيرًا وبركة لسكان البلاد خاصة وللمسلمين عامة.

٢ ـ الأسس التي قام عليها الحكم السعودي:

كان جد آل سعود، مـانع المُرَيدي، يعيش في شرق الجزيرة العربية. وفي عـام ٨٥٠ هـ/ ١٤٤٦ م انتقـل بأسرتـه من هنـاك إلى العـارض

(١) يمكن الرجوع إلى كتـاب عبد الله الصالح العثيمين، **تاريخ المملكة العربية السعودية**، ط ٤، الرياض، ١٤١٢ هـ، ج ١، ص ص ١٩ ــ ٥٨، وذلك لمعرفة المزيد عن تلك الأوضاع وتوثيق المعلومات الواردة فيها.

بدعوة من قريبه ابن درع، فمنحه هذا القريب المكان الذي قامت عليه بلدة الدِّرْعية فيما بعد(١). وكانت تلك الأسرة ضعيفة في بداية أمرها، ثم قويت ووسَّعت نفوذها. على أنه حدث بين أفرادها، خلال تاريخها، ما كان يحدث من صراعات على السلطة في كل زمان ومكان. وكان من نتائج ذلك الصراع أن انتُزِعت منهم إمارة البلاد فترة قصيرة. ومع أن الإمارة عادت إليهم بعد ثلاثة عشر عاماً من فقدهم إيَّاها فإن النزاع بينهم لم ينعدم. وكان ممن تولَّاها بحزم سعود بن محمد بن مُقْرن، الذي توفي عام ١١٣٧ هـ. وبعد وفاته ولي الإمارة زيد بن مَرْخان (٢)، لكن محمد بن سعود كان له تأثير قوي على سير الأحداث فيها. ولم يستقم زيد في الإمارة أكثر من سنتين؛ إذ قتله غدرًا أمير العُيَيْنة محمد ابن حمد بن مُعمَّر(٣). وبعد مقتله أصبح محمد بن سعود أميراً للدِّرعية، وظلَّ أميراً لها غير منافس حتى قام بمناصرة دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الإصلاحية وانتقلت الإمارة إلى مرحلة تاريخية جديدة غيَّرت مجرى الأحداث في المنطقة كلِّها.

ولد الشيخ محمد بن عبد الوهاب في العُيَينة سنة ١١١٥ هـ/ ١٧٠٣ م، التي كانت أقوى إمارة نجدية حينذاك. وكانت أسرة الشيخ

---

(١) عثمان بن عبد الله بن بشر، **عنوان المجد في تاريخ نجد**، طبعة وزارة المعارف، ١٣٩١ هـ، ج ٢، ص ص ١٨٩ ـ ١٩٠.

(٢) ينتمي زيد بن مرخان إلى الجد الذي ينتمي إليه محمد بن سعود؛ وهو مانع المريدي.

(٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ص ٢٢٢، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٦-٢٣٧.

أسرة علمية، فاجتهد في طلب العلم منذ صغره. ثم سافر إلى الحجاز والأحساء والعراق للتزوُّد بعلوم الشريعة واللغة العربية. ولما أصبح عالمًا جليلاً، وعاد إلى نجد من أسفاره خارجها، بدأ دعوته الإصلاحية فيها. بدأ الدعوة في حُرَيملاء التي كان أبوه قد انتقل إليها مع أسرته خلال سفر الشيخ لطلب العلم. وبعد وفاة أبيه انتقل إلى العُيَينة حيث استقبله أميرها، عثمان بن معمَّر، بالترحيب، وقام معه خير قيام. ودخلت الدعوة في العُيَينة مرحلة عملية من مظاهرها اجتثاث الأشجار التي كان يتوسل بها الجهلة، وهدم القبة التي بنيت على قبر يعتقد أنه قبر زيد بن الخطاب رضي اللَّه عنه، وتطبيق الشرع في حق من خالف الأوامر الشرعية. وقد ساء نجاح الدعوة ذوي النفوس الكارهة للداعية، فأغروا به الأمراء والعلماء، لكن محاولاتهم لم توقف انطلاقة الدعوة. فلجأوا أخيرًا إلى زعيم بني خالد حاكم الأحساء، وحرَّضوه. فأجبر ذلك الحاكم ابن معمَّر على التخلِّي عن مناصرة الشيخ، واضطر الشيخ إلى مغادرة العُيَينة. وقد رأى أن الدِّرعية هي المكان المناسب له ولدعوته، وذلك لأن كثيرًا من وجهائها كانوا متحمِّسين للدعوة. وكان في طليعة هؤلاء إخوة الأمير محمد ـ ثُنيَّان ومشاري وفرحان ـ وابنه عبد العزيز[1]. وبالإضافة إلى ذلك فقد كانت إمارة الدِّرعية مستقرة ذات قوة جيدة في عهد أميرها محمد بن سعود بدليل مساعدتها لأمير الرياض، دهام بن دوَّاس، للتغلُّب على مناوئيه عام ١١٥١ هـ.

---

(١) حسين بن غنام، روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام، القاهرة، ١٣٦٨ هـ، ج ١، ص ص ٣١ و٢٢٢ وج٢، ص ٣.

ولـذلك انتقل الشيخ إلى الدِّرعيـــة عـام ١١٥٧هـ/ ١٧٤٤ م حيث استُقبِـل بالترحيب. ثـــم اجتمـع بالأمير محمد وتبـايعا على نشر دعوة التوحيـد. وهكذا بدأ الحكم السعـودي، أو الدولة السعـودية الأولى. وكُلِّلت مساعي ذلك الحكم بالنجـاح في توحيد البلاد وبسط الأمن في ربوعها.

وإذا كـان الحكم السعـودي قـد بـدأ حقيقـة بمناصرة دعـوة الشيخ محمد بن عبـد الوهـاب الإصلاحيـة فما هي أهداف تلك الـدعوة التي قامت عليها أسس ذلك الحكم؟

لعلَّ أهمَّ مـا تهدف إليه دعـوة الشيخ إفـراد اللّه بـالعبادة، ومحاربـة الشرك بجميع أنواعـه، وسدُّ الذرائع المؤدِّيـة إليه. ومن أبرز أهـدافها، أيضاً، محاربة البدع في الدين، وتطبيـق الشريعة الإسلامية في كل أمور الحياة، وذلك في ظلِّ دولة قادرة على تحقيق تلك الأهداف.

وهكذا يتَّضح أن الحكم السعودي قام على أسس دينية، ولم يقم على عصبية قبليـة، أو حميَّة مـرتبطة ببلـدة معيَّنة أو إقليـم خاص. وبما أن الـدين أساس يلتقي فيـه كل مسلم فإن الحكم القـائم عليه أقـرب إلى اجتذاب أغلب الناس من أي حكم قائم على أسس أخرى.

٣ ـ المراحل التي مرَّ بها الحكم السعودي :

ولما تبايع الشيخ محمد بن عبد الوهاب والأمير محمد بن سعود مضيا يدعوان إمارات نجد وقبائلها لتنضم إلى دولة الدعوة التي أصبحت الدِّرعية مركزًا لها . فاستجاب البعض للدعوة وانضموا إلى الدولة مختارين ، ورفض آخرون الانضمام إليها . وكان العامل الديني أقوى العوامل في تحديد مواقف المؤيِّدين والمعارضين على حدٍّ سواء . فمن اعتقد صحة ما دعا إليه الشيخ محمد تحمَّس للانضمام إلى الدولة التي قامت على أساس دعوته . ومن لم يعتقد صحة تلك الدعوة أحجم عن الانضمام إلى دولتها . على أن انضمام إماراتٍ إلى تلك الدولة ـ مهما كان عددها قليلاً في البداية ـ قد أخلَّ بميزان القوة المحلِّية في نجد لصالحها . ولذلك كانت قوتها العسكرية راجحة أمام خصومها المحلِّيين الذين كانوا ، بصفة عامة ، مفككين . ومضت تلك الدولة تحرز انتصارًا بعد انتصار متخطِّية ما قام أمامها من مشكلات داخلية وعقبات محلِّية ، ثم متصدِّية لما وجَّهه إليها خصومها من خارج نجد .

وبما أن البلدان النجدية لم تعرف وحدة إقليمية عدَّة قرون فقد هيمنت على أمرائها النزعة السلبية تجاه الوحدة العامة . ولذلك استغرق توحيدها أكثر من أربعين سنة . وبعد أن اكتمل توحيد هذه البلدان انطلقت الدولة لتوحِّد الكيانات السياسية المجاورة لها ، والتي كانت قد ناصبتها العداء وبدأتها بالحرب . ولم ينته العقد الأول من القرن الثالث

عشر الهجري إلا وقد توطَّد حكمها في المنطقة الشرقية من البلاد. ثم دخلت تحت طاعتها منطقة عسير. وفي مستهل عام ١٢١٨ هـ دخل أتباعها، بقيادة سعود بن عبد العزيز، مكة المكرمة دون إراقة دماء. ولم ينته الربع الأول من ذلك القرن إلا وقد بلغت تلك الدولة أوج اتساعها وقمَّة عظمتها. فقد وحَّدت مع نجد كل شرقي الجزيرة العربية: الأحساء والقطيف وقطر، وحكمت البحرين عدة سنوات. كما حكمت الجهات التي تكوَّنت منها في العصر الحديث دولة الإمارات العربية المتحدة، وأجزاء من أراضي سلطنة عمان. أما غربًا فقد دخلت كل الأقاليم الحجازية تحت حكمها، كما دخلت منطقة عسير؛ سراة وتهامة، وإقليم جازان. بل إنها أدخلت تحت نفوذها أجزاء كبيرة من أراضي اليمن؛ خاصة الساحلية [١]. ووصلت غاراتها جنوباً إلى مشارف حضرموت. وأما شمالاً فقد أدخلت تحت طاعتها جميع أجزاء الجزيرة العربية الشمالية، ومدَّت لها نوعاً من النفوذ في أماكن من العراق والشام تمثَّل في دفع بعض القبائل هناك الزكاة إليها [٢]. وهكذا توحَّدت معظم مناطق الجزيرة العربية في دولة لم يُرَ لها مثيل من قبل باستثناء القرنين الهجريين الأول والثاني.

---

(١) محمد العقيلي، **تاريخ المخلاف السليماني**، ص ٢ دار اليمامة، ١٤٠٢ هـ، ج ١، ص ص ٤٥٤ ـ ٤٥٦. وكانت قبائل يام في نجران تدفع الزكاة لتلك الدولة. ابن بشر، مصدر سبق ذكره، ج١، ص٢٣٢.

(٢) لمزيد من التفصيل عن اتساع الحكم السعودي يمكن الرجوع إلى ما كتبه العثيمين، **تاريخ المملكة**. . . .، ج١، ص ص ١١٧ ـ ١٥٠.

ولم يكن تطوُّر الدولة السعودية الأولى بمنأى عن علم ولاة الدولة العثمانية وقادتها. لكنهم اعتقدوا في بداية الأمر ـ كما يبدو ـ أن القوى المحلِّية المعارضة لها قادرة على إيقاف مدِّها. ولما رأوا هيمنة قادتها على شرقي البلاد ونجاحهم في صدِّ حملات شريف مكة، بل وإحراز النصر عليه، تحرَّكوا ضدها. فأرسلوا حملتين من العراق للقضاء عليها، لكن الحملتين فشلتا فشلاً ذريعاً. واستطاع قادة آل سعود أن يشنُّوا غزوات خاطفة داخل أراضي والي بغداد [1]. ولما دخل الحرمان الشريفان تحت الحكم السعودي جُنَّ جنون العثمانيين، وازداد تصميمهم على إنهاء هذا الحكم فعهدوا إلى والي مصر، محمد علي، بانتزاع الحجاز من السعوديين والقضاء على دولتهم.

وبعد أن استعدَّ محمد علي للحرب جعل قيادة الحملة المتَّجهة إلى الحجاز لابنه طوسون. ولقيت قوات طوسون هزائم في أول الأمر، لكن انحياز شريف مكة إليه كان من بين العوامل التي سهَّلت له فيما بعد دخول المدن الحجازية الكبيرة. ثم لقيت قوات والي مصر مقاومة باسلة في منطقة عسير، حتى اضطر محمد علي نفسه إلى القدوم بقوات جديدة لنجدتها. وتزامن ذلك مع وفاة الإمام سعود بن عبد العزيز القائد الذي اشتهر بانتصاراته، فكسب محمد علي الجولة. ثم توالت انتصارات قواته حتى تمكَّن ابنه إبراهيم من محاصرة الدِّرعية نفسها. ورغم الصمود العظيم الذي أبداه الإمام عبد الله بن سعود ومن معه

---

(١) المصدر نفسه، ج ١، ص ص ١٥٣ ـ ١٦٣.

فـإن تدفـق الإمـدادات على جيـش إبـراهيـم اضطـر الإمـام إلى الاستسلام لـه عـام ١٢٣٣ هـ/ ١٨١٨ م. وبذلـك انتهت الـدولـة السعوديـة الأولى.

وبعد انسحاب إبـراهيم باشا بقواته من نجد قـامت محاولات لإقامة دولة تلـمُّ شتاتها [١]. وتكلَّلت تلك المحـاولات بالنجـاح بعدمـا تولَّى القيادة تركي بن عبـدالله بن محمد بن سعود، الذي كان شجـاعاً ثاقب الـرأي. فـاستطـاع أن يستقطب الكثيرين. وتمكَّـن، بتـوفيق اللَّـه ثم ببسـالتـه وحسن تـدبيره، مـن إرغـام القـوات التـي بعثهـا والي مصر لمحـاربتـه على مغـادرة نجـد عام ١٢٤٠ هـ/ ١٨٢٤م. واتخـذ من الرياض قاعدة لحكمه. وهكذا عاد الحكم السعودي للبلاد، وبدأت الدولة السعودية الثانية. ولما كان يتمتع به تركي بن عبد الله من صفات قيـاديـة، وما كـان لأسرتـه من مـودَّة في نفوس الكثيرين، ثم لتقـديـر السكان لثمار الـوحدة التي جنوهـا في عهد الدولة السعـودية الأولى، لم يمرَّ عامان على مغادرة قوات محمـد علي منطقة نجد إلا وقد دخل أمراء المنطقة تحت الحكم السعودي الجديد طائعين مختارين بصفة عامة.

وقد استطاع الإمام تركي أن يـوحِّد الأحساء والقطيف مع نجد، وأن يمدَّ حكمـه إلى جهـات عمان التي سبـق أن دخلت تحت حكم

---

(١) بدأ تلك المحاولات محمد بن مشاري بن معمَّر، ثم مشاري بن سعود بن عبد العزيز.

أسلافه. وظلَّ يحكم البلاد بحزم وعدل حتى قُتِل غدرًا في آخر يوم من سنة ١٢٤٩ هـ/ ١٨٣٤ م[١].

واستطاع فيصل بن تركي القضاء على مشاري بن عبد الرحمن آل سعود، المدبِّر لقتل أبيه، وأخذ يواصل سياسة والده الحازمة العادلة. لكن حاكم مصر بعث بقوات كبيرة لمحاربته. وكانت تلك القوات بقيادة خالد بن سعود، الذي كان قد أُخِذ مع من أُخذ من آل سعود وآل الشيخ إلى مصر. وتمكَّنت قوات ذلك الحاكم في نهاية الأمر من إجبار الإمام فيصل على الاستسلام عام ١٢٥٤ هـ، وأُخذ هذا الإمام إلى مصر[٢]. ثم عاد منها بعد خمس سنوات، واستطاع انتزاع الحكم من عبد اللَّه بن ثُنيَّان، الذي كان قد أخذه من خالد بن سعود[٣]. وبقي الإمام فيصل حاكماً للبلاد حتى وفاته سنة ١٢٨٢ هـ/ ١٨٦٥ م[٤].

وبعد وفاة الإمام فيصل بن تركي بويع ابنه عبد اللَّه بالحكم، لكن الأمور لم تستقم له طويلاً؛ إذ حدث نزاع بينه وبين أخيه سعود أدَّى إلى

---

(١) ابن بشر، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٦٣.

(٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ص ٦٧، ٨٨ و١٠٧.

(٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ص ١٢٩ و١٣٣ ـ ١٣٤.

(٤) إبراهيم بن صالح بن عيسى، **عقد الدرر فيما وقع في نجد من الحوادث في آخر القرن الثالث عشر وأول الرابع عشر**، طبع ذيلاً لكتاب ابن بشر السابق ذكره، ص ٤٩.

خروج المنطقة الشرقية من البلاد عن الحكم السعودي ودخولها تحت الحكم العثماني عام ١٢٨٨هـ، كما أدَّى إلى ضعف الحكم السعودي في نجد ذاتها. وكان من نتائج ذلك، أيضاً، أن قام منافس نجدي لآل سعود هو أمير جبل شمَّر محمد بن عبد اللَّه بن رشيد.

كان عبد اللَّه بن رشيد صديقًا حميماً للإمام فيصل بن تركي. وكانت له جهود في القضاء على مشاري بن عبد الرحمن. ولما استقر الحكم لذلك الإمام عيَّنه أميرًا لجبل شمَّر. ثم وقف عبد الله مع فيصل بعد عودته من مصر إلى نجد. وبعد وفاة عبد اللَّه ولي إمارة الجبل ابنه طلال، ثم ابنه متعب. وفي عام ١٢٨٥ هـ قام أبناء طلال، بندر وبدر، بقتل عمِّهما متعب، وأصبح بندر أميرًا للجبل. ولكن محمد بن عبد اللَّه قام بقتل أبناء أخيه طلال عام ١٢٨٩ هـ وتولَّى الإمارة. وكان مجيء هذا الأمير الطموح إلى الإمارة متزامنًا مع أحداث النزاع الشديد بين أبناء الإمام فيصل بن تركي. وتطوَّرت الأحداث لصالح ابن رشيد، فتمكَّن من توسيع نفوذه في نجد، ثم تمكَّن أخيرًا من القضاء على الحكم السعودي في هذه المنطقة عام ١٣٠٩ هـ/ ١٨٩١ م. وبذلك انتهت الدولة السعودية الثانية[١].

---

(١) لمزيد من التفصيلات عمَّا سبق يمكن الرجوع إلى كتابي العثيمين، **تاريخ المملكة....**، السابق ذكره، ج ١، ص ص ٢٨٧ ـ ٣١٢ و**نشأة إمارة آل رشيد**، ط ٢، الرياض، ١٤١١ هـ، ص ص ٢١٩ ـ ٢٣٠.

ذلك ما كان من أوضاع المناطق التي كانت تحت حكم قادة الدولة السعودية الثانية. أما المناطق التي لم تكن تحت حكم أولئك القادة؛ مثل الحجاز وعسير وجازان، فكانت الأوضاع فيها مختلفة.

لقد استعاد العثمانيون الحجاز من قادة الدولة السعودية الأولى عن طريق حاكمهم على مصر، محمد علي باشا. وأصبح لهذا الحاكم نفوذ كبير فيها حتى عام ١٢٥٦ هـ حين اضطر إلى سحب قواته من جزيرة العرب بناء على قرارات مؤتمر لندن المشهور. ثم عاد إليها نفوذ العثمانيين مع بقاء حكمها المحلِّي للأشراف حتى ثورة الحسين بن علي ضد الأتراك عام ١٣٣٤ هـ/ ١٩١٦ م[١].

أما عسير فقد أحرز قادتها المحلِّيون ــ ومن بينهم عائض بن مرعي ـ انتصارات كبيرة ضد قوات محمد علي باشا، ثم القوات العثمانية، وبسطوا نفوذهم فترة على منطقة جازان. بل إنهم استولوا زمناً قصيرًا على مخا وزبيد والحُدَيدة. لكن العثمانيين انتصروا على آل عائض في نهاية الأمر، ثم اصطلح الطرفان على أن يكون أحد أفراد تلك الأسرة معاوناً للمتصرف العثماني في تلك المنطقة إلى أن استقلَّ بها

---

(١) من الكتابات الجادة عن الحجاز في تلك الفترة رسالة دكتوراه لصالح العمرو ترجمة عنوانها: **الحجاز تحت الحكم العثماني ١٨٦٩ ـ ١٩١٤ م**، جامعة الملك سعود، ١٣٩٨ هـ، وكتاب طالب محمد وهيم، **مملكة الحجاز ١٩١٦ ـ ١٩٢٥: دراسة في الأوضاع السياسية**، مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة، ١٩٨٢ م.

حسن بن عائض بعد جلاء العثمانيين عنها سنة ١٣٣٦هـ[١] .

وأما جازان فدخلت تحت نفوذ محمد علي باشا فترة، ثم تحت نفوذ قادة عسير فترة أخرى مع بقاء أمورها الداخلية في أيدي زعمائها من الأشراف المحلِّيين. ولما انتصر العثمانيون على آل عائض أصبحت جازان تحت الحكم العثماني حتى استقلَّ بها السيد محمد بن علي الإدريسي قبيل الحرب العالمية الأولى[٢] .

ومن الجدير بالذكر أن علاقة زعماء نجران بالإمام فيصل بن تركي كانت جيدة. بل حدث نوع من ارتباطهم به[٣]. وبعد نهاية الدولة السعودية الثانية بقيت مقاليد أمور نجران في أيدي أولئك الزعماء[٤] .

---

(١) من الدراسات التي تناولت مقاومة أهل عسير لقوات محمد علي رسالة دكتوراه لعبد الحميد البطريق ترجمة عنوانها: **الحكم التركي المصري لجزيرة العرب ١٨١٠ - ١٨٤٠م**، جامعة لندن، ١٩٤٧ م، ورسالة ماجستير لمحمد آل زلفة ترجمة عنوانها: **دعوة ابن عبد الوهاب وأثرها على مقاومة عسير للحكم التركي المصري ١٨١١ - ١٨٤٠م**، وكتاب الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، **محمد علي وشبه الجزيرة العربية**، ١٢٣٤ - ١٢٥٦ هـ. . ، القاهرة، ١٩٨١ م، ص ص ١٣٣ - ١٦٧ .

(٢) من أوسع الكتابات عن تلك المنطقة كتاب محمد بن أحمد العقيلي، السالف الذكر.

(٣) وزارة الخارجية السعودية، **بيان عن العلاقات بين المملكة العربية السعودية والإمام يحيى حميد الدين**، مكة، ١٣٥٣هـ، ص ١٧٦ .

(٤) العقيلي، مصدر سبق ذكره، ج٢، ص ١٠٩٩ .

٤ ـ بعض الجوانب العسكرية لأسلاف الملك عبد العزيز[١] :

لقد كانت الأعمال العسكرية من أبرز ملامح الدولة السعودية الأولى . فلم تمضِ سنة واحدة من تاريخ تلك الدولة إلا وفيها غزوة أو عدة غزوات دفاعاً عن أراضي الدولة أو هجوماً على خصومها لتوسيع رقعتها ونشر الدعوة التي آمنت بها . ولم يكن هناك جيش دائم لها ، وإنما كانت قواتها تتكوّن بطريقة إلزامية أو تطوُّعية حسب متطلّبات الحال . فقد كان الحاكم أو نائبه في الغزو يطلب من أمراء المناطق ورؤساء القبائل ، أو من بعض هؤلاء وأولئك ، عددًا معيَّناً من المقاتلين لينضمُّوا إلى الغزو الذي يراد القيام به . وكان على كل من يطلب منه ذلك أن يقوم بتنفيذه[٢] .

وربما انضم إلى العدد المطلوب متطوعون أقدموا على المشاركة في الغزو تديُّنًا أو رغبة في الحصول على نصيب من الغنائم ؛ خاصة بعد أن أصبحت أكثر الغزوات السعودية ناجحة . لكن كان هناك عدد من الجنود الدائمين ؛ مثل الحرس الخاص للحاكم في الدِّرعية ولأمراء المناطق . وكان هناك ، أيضاً ، عدد من الجنود الذين يقضون فترات تطول وتقصر ـ حسب الظروف ـ مرابطين في حصون مبنية قرب مدن لم يكن من السهل الاستيلاء عليها ، أو مناطق لم تكن الدولة مطمئنة إلى استتباب الأمن فيها [٣] .

---

(١) من أفضل الدراسات عن الجوانب العسكرية للدولة السعودية الأولى رسالة الدكتوراه التي كتبها الدكتور محمد بن سعيد الشعفي ؛ وترجمة عنوانها : **الدولة السعودية الأولى من النواحي الإدارية والعسكرية والاقتصادية** ، جامعة ليدز، ١٩٦٧م .

(٢) ابن بشر، مصدر سبق ذكره، ج ١ ، ص ١٣٤ .

(٣) المصدر نفسه، ج ١ ، ص ص ٤٩ ، ٩٠ ، ١٠٩ ، ١٥٨ .

وكان على كـل منطقة أو قبيلة أن تجهِّـز أفراد غـزوها بما يلـزمهم من عتاد ورواحل وأطعمة. لكن الدولة كانت تساعد هؤلاء إذا طالت مدة الغزو. ومن الأساليب الناجحة التي اتَّبعها القادة السعوديون في أعمالهم العسكرية سرعة الحركة وسرِّيتها، وتضليل الخصوم، وبناء قلاع قرب البلدان التي تطـول مقاومة أهلها ووضع مـرابطين فيها لرصد حـركات الخصوم ومضايقتهم. وكان مما أولوه عناية كبيرة التعبئة المعنوية القائمة على أساس العقيدة الإسلامية الصحيحة. فقد كانوا يصطحبون معهم علماء وأئمة في مغازيهم ليقوم هؤلاء وأولئك بإرشاد أفراد الجيش في أمور دينهم، ويشرحـوا لهم فضائل الجهـاد، ويعمِّقـوا في نفوسهم الحماسـة والشجاعة[١]. ولقـد أعطى كلٌّ من ابن بشر وبـوركهارت تفصيـلات عن أعمال القادة السعـوديين العسكرية يحسن إيراد بعضهـا. يقول ابن بشر، وهو يتحـدَّث عن الإمام سعود بن عبـد العزيز، الذي بـدأ قيادة الجيوش عـام ١١٨٢هـ، وظـلَّ يقودها حتى وفـاته عـام ١٢٢٩ هـ/ ١٨١٤م[٢]:

«كان إذا أراد أن يغـزو إلى جهـة الشمـال أظهـر أنـه يريـد الجنـوب أو الغرب. وإذا كان يريد جهة من تلك الجهات ورَّى بغيرها، وأرسل إلى جميع البوادي . . . للغزو معه . . . ويواعدهـم يوماً معلوماً على ماء معلوم، فـلا يتخلَّف أحد منهم عن ذلك اليـوم ولا عن ذلك الموضع، وواعـد، أيضـاً، جميع المسلمين من أهل البلـدان مـوضعـاً معلـومـاً،

(١) المصدر نفسه، ص ١٠٥.

(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ص ٦٥ و٢٢٥.

فيسارع الجميع إليه قبلـه . ثم يركب من الدِّرعية إمـا يوم الخميس وإما يوم الاثنين . فيخرج النـاس قبله . بيومين أو ثلاثـة . . . فإذا سار وجد الجميع على مـوعدهم ، فيسير بهم ، الحاضر والبـادي ، ينزل في المنـزل قبل غروب الشمس ، ويرحل قبل شروقها ويقيل الهاجرة . . . فإذا قرب من العدو بنحو ثـلاثة أيام بعث عيونه أمامـه ، ثم عدا فلا يلبث حتى يبغتهم وينزل قريباً منهم . فلا يُوقَد عند جموع المسلمين تلك الليلة نار، ولا كأنهم نـزلـوا بتلك الـديـار . . . ثم يجمعهم بعـد صـلاة المغـرب ، ويذكِّـرهم ما أنعم اللّـه به عليهم من الاجتماع على كلمـة الإسلام . . . ومـا وعـدهم من النصر . . . ومـا تـوعَّــد بـه الفـارين المدبـرين . . . ويزجـرهم عن الغلول . . . والعجب بالكثرة . . . فإذا فـرغ انصرفوا إلى مـواضعهم حتى يتبيَّن أول الصبح . وكـان قد أمـر بعض الأعـراب أن يبكـروا بـالصـلاة ويشنُّـوا الغـارة . فإذا صلَّى الصبح ركب بـالمسلمين وضجُّوا بالتكبير، وأغـاروا . . . فلا يرفع السيف إلا عمَّن لم يبلغ الحلم أو امرأة أو شيخ كبير. ويأخذ جميع الأموال ، ثـم يرحل عن معارة القوم بجميع تلك المغانم مع البادي والحاضر. وينـزل قريباً منهم على بعض الميـاه ، فتُعــزَل الأخماس ، وتبـاع الغنـائم بــدراهم ، وتقسم على جميع المسلمين للراجل سهـم وللفارس سهمان . ثم يرحـل إلى وطنه ، ويأذن لأهل النواحي يرجعون إلى أوطانهم . . . »[1] .

---

(١) المصدر نفسه، ج ١ ، ج ١ ، ص ص ٢٢٦ ـ ٢٢٨ .

ويقول بوركهارت:

«باستثناء مئات قليلة من الرجال المختارين لم يكن لسعود ولا لأبيه جيش نظامي أو جماعة من الجند. وإذا نوى الزعيم هجوماً أمر مشائخ القبائل وأمراء المناطق أن يكونوا في يوم محدَّد في موضع معيَّن، وغالباً ما يكون مورد ماء في الصحراء. وأحيانًا يطلب من الشيخ أو الأمير عددًا معيَّنا من المحاربين، فيقوم الشيخ أو الأمير بإعدادهم بنوع من التجنيد الإجباري من كل فريق أو قرية تحت نفوذه... ويجب أن يحارب كل من عمره بين الثامنة عشرة والستين سواء كان متزوجاً أو غير متزوج أو كان أباً لأسرة. ويجب أن يلتحق بهؤلاء من لديه فرس ما لم يذكر بأن الغزو لا يحتاج إلى خيَّالة. وإذا اختفى إنسانٌ ما أخذ سعود فرسه أو ذلوله أو بعض غنمه غرامة... وكانت الدعوة العامة للتجنيد تتم، أحيانًا، دون ذكر للعدد المطلوب. وفي هذه الحالة يجب على كل من لديه ذلول أن يحضر. وأحياناً يقول الزعيم: لن نعدَّ من التحق بالجيش، بل من تخلَّف. وعندئذ يشعر كل قادر على حمل السلاح أن عليه أن يذهب للغزو. ومن كان فقيراً أمدَّه الغني براحلة وسلاح أو جُهِّز من بيت المال. وحين تكون الغزوة إلى جهة بعيدة؛ مثل تلك التي وجهت إلى دمشق سنة ١٢٢٥ هـ، يأمر سعود القادة أن يوافوه بالسلَّة وحدها، وهم النخبة الممتازة من الخيَّالة وراكبي الإبل...»(١).

(١) جوهان بوركهارت، **مواد لتاريخ الوهابيين**، ترجمة عبد الله الصالح العثيمين، الرياض، ١٤٠٥ هـ، ص ص ٦٥-٦٦.

ثم يقول بوركهارت:

«حين يخطِّط سعود لغزوٍ مـا فإنه لا يطلع على هدفه أحـداً، ويواعد أمراءه عنـد مورد ماء معيَّن يختاره دائماً بطـريقة تخدع العدو الذي يـريد مهاجمته. فإذا نوى أن يكون الغـزو باتجاه شمال الدِّرعية جمع جيشه عند مـورد يبعـد مسـافـة عدة أيـام جنـوبها. وحينئـذ ينطلق فعـلاً في اتجاه جنوبي، لكنـه يعود مسرعـاً وينقضُّ على العدو الـذي يُفَاجـأ، عادة، بالهجـوم. وهذه الحيلـة ضرورية جـداً لكون الأخبـار تنتشر كالبرق في جزيرة العرب. ولو بدت من مكان انطلاقه للهجوم أية إشارة إلى هدفه لكان في إمكـان العدو أن يُعدَّ نفسـه للمقاومـة أو الهروب... ولذلك فإن غزواته نادرًا ما فشلت...

وقد كـوَّن سعود من أعظم شجعان قـومه وأشهـر مغاويرهم حـرساً خاصـاً يُسمَّى المنقيَّة يبقون في الدِّرعيـة باستمرار، وهم وحـدهم الجند الدائم من جيشه. وكلما سمع بفارس مشهور دعاه إلى الدِّرعية، وضمَّه إلى خدمتـه على أن يمدَّه هو وأسرته بمـؤونة سنويـة من التمر والسمن والقمح، كما يمـدَّه بفـرس أو ذلـول طيبـة. ويصحب أولئك الحرس سعودًا في غـزواته. وكان ذكـرهم مخيفاً لأعـدائهم؛ لأنهم لم يخسروا أبداً سمعتهم في الشجـاعـة. وكـان سعـود يحتفظ بهم قـوة احتيـاطيـة في المعركة، ويبعث أعدادًا صغيرة منهم لمساعدة جنوده الآخرين. ويصل عددهم إلى ثلاث مئـة مُجهَّزين ساعة الحرب بكل الأسلحـة تقريبا. بل إن خيولهم مكسوَّة بلباس لا تخترقه السيوف والرماح...

وكان لكل أمير أو رئيس عَلَمه الخاص في الغزو. ولسعود عدة أعلام ذات ألوان مختلفة . . . وإذا سار الجيش ليلاً أوقدت المشاعل وحملت أمام الزعيم وكبار القادة. ولا يُسار ليلاً إلا إذا كانت نقطة الهجوم قد حُدِّدت. وعندئذ تقطع المسافة التي تستغرق، عادة، أربعة أيام أو خمسة في يومين فقط. ويتقدَّم الجيش دائماً طليعة من ثلاثين أو أربعين فارساً يُسمَّون السبور. ويسيرون قبل مسير الجيش بيوم أو يومين. . . وعند الاقتراب من العدو ينقسم الجيش إلى ثلاث فرق أو أربع؛ كل واحدة خلف الأخرى. فالتي تهاجم أولاً مكوَّنة من الخيَّالة الذين هم عماد قوة الجيش، تساعدهم الفرقة الثانية المكوَّنة من راكبي الإبل الذين يتقدمون إذا هُزِم الخيَّالة. . . وكان من خُدَع سعود الحربية المفضَّلة أن ينسحب أمام العدو، ثم يكرُّ فجأة لينقضَّ مع فرسانه المختارين على المطاردين لهم المجهدين. . . على أنه كان يعطي الأمان بسهولة لأعدائه إذا استسلموا طواعية. وكثيرًا ما فعلوا ذلك؛ لأنه لم يُعهَد أنه نقض عهده في أية مناسبة. . . »(١).

وإذا كانت تلك بعض الجوانب العسكرية في الدولة السعودية الأولى فماذا عن جانب متَّصل بها إلى حد ما: وهو الأمن؟

لقد تحدَّث كل من ابن بشر وبوركهارت عن هذا الجانب المهمّ، فقال ابن بشر وهو ـ يعني عبد العزيز بن محمد بن سعود ـ: «حقيق بأن يُلقَّب مهدي زمانه؛ لأن الشخص الواحد يسافر بالأموال العظيمة أي

(١) المصدر نفسه، ص ص ٧٠ ـ ٧٥.

وقت شاء شتاء وصيفاً، يمينًا وشمالاً، وشرقاً وغرباً. . . لا يخشى أحداً إلا اللَّـه. وكـانت جميع بلـدان نجـد مـن العـارض والخرج والقصيم والجنوب وغير ذلك من النـواحي في أيام الربيع يسيبـون جميع مواشيهم في البراري والمفـالي، والإبل والخيل والجيـاد والبقر والأغنـام وغير ذلك ليس لها راع، بل إذا عطشت وردت على البـلاد تشرب ثم تصـدر إلى مفـاليهـا حتى ينقضي الـربيع أو يحتـاج إليهـا أهلهـا لسقي زرعهم ونخلهم. وربما تلقح وتلـد ولا يـدرون أهلهـا إلا إذا جاءت بـولـدهـا معها. . . »[1].

ويقول بوركهارت:

«لقد تـوقَّف تقريباً كل النهب الفـردي والجماعي بين كلٍّ من حاضرة جزيـرة العرب وبـاديتها، التي لم تكن في الماضي تبتهج بشيء أكثـر من ابتهـاجها بـالسلب والنهب. ولعلَّـه لأول مرة منـذ عهد محمـد، ﷺ، أصبح التاجـر يستطيع أن يخترق وحده صحـراء الجزيرة العربيـة بأمان تـام، وأصبح البدو ينـامـون دون خوف مـن أن تؤخـذ دوابهم من قِبَل اللصوص الليليين. . . »[2].

ولقد حـاول قادة الـدولة السعـودية الثـانية أن يسيروا على نهج قـادة الدولة السعودية الأولى. على أن دولتهم لم تبلـغ ما بلغته دولة أسلافهم من حيث الاتساع، والقوة، واستتباب الأمن.

---

(١) ابن بشر، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ص ١٦٨ ـ ١٦٩.

(٢) بوركهارت، مصدر سبق ذكره، ص ٤٦.

٥ ـ حياة الملك عبد العزيز حتى بداية حكمه :

ولد الملك عبد العزيز في الرياض عام ١٢٩٣ هـ/ ١٨٧٦ م على الأرجح[١]. وانتقل إلى رحمة اللّٰه يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول سنة ١٣٧٣ هـ (١٨/ ١١/ ١٩٥٣ م). وقد نشأ كما نشأ كثير من أفراد الأسرة السعودية الذين سبقوه. فتعلَّم مبادئ القراءة والكتابة، ثم القرآن الكريم وأصول العقيدة. وتدرَّب على الرماية وركوب الخيل. واكتسب من مجالسته لأبيه وقادة أسرته والمقرَّبين إليها من علماء وزعماء الشيء الكثير من المعارف العامة وقصص البطولات.

وكانت أول مشاركة له في الحياة السياسية عندما خرج مع عمِّه محمد والشيخين عبد الله بن عبد اللطيف وحمد بن فارس للتفاوض مع الأمير محمد بن رشيد خلال محاصرته للرياض عام ١٣٠٨ هـ[٢]. وكان إلى جوار والده إبَّان تنقُّله بين فئات بادية العجمان وآل مُرَّة بعد خروجه من هذه المدينة. وقد أتاح ذلك التنقُّل له فرصة ممارسة حياة الصحراء الصارمة ممَّا زاد تجربته القيادية ثراء.

---

(١) خير الدين الزركلي، **شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز**، بيروت، ١٣٩٠ هـ، ج ١، ص ٥٨. والملك عبد العزيز هو عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل بن تركي ابن عبد الله بن محمد بن سعود.

(٢) تكاد المصادر تجمع على ذلك. ومنها ابن عيسى، **عقد الدرر**..، ص ص ٩٩ ـ ١٠٠، والريحاني، **تاريخ نجد وملحقاته**، ط٥، الرياض، ١٩٨١م، ص ص ١٠٤ ـ ١٠٥.

على أن سعود بن هذلول ذكر أن ذلك كان عام ١٣٠٧هـ. انظر كتابه **تاريخ ملوك آل سعود**، الرياض، ١٣٨٠هـ، ص ٥١. ويبدو أن ما ذكره غير صحيح.

ولقد وصل الملك عبد العزيز مع أبيه وأسرته إلى الكويت عام ١٣١٠ هـ. وكان له من تاريخ تلك الأسرة وطموحه الذاتي ما دفعه إلى ملازمة حضور جلسات الزعماء والقادة في تلك البلاد. وراح يتأمل ما يحيط بالمنطقة من تيارات سياسية، فيستخرج ممَّا يشاهد ويسمع العبر والدروس. على أن ما كان يهمُّه بالدرجة الأولى سير الأحداث في نجد مسقط رأسه، ومرتع طفولته، ومنطلق حكم آبائه وأجداده.

كان حاكم نجد عندما اضطرت أسرة الملك عبد العزيز إلى مغادرتها الأمير محمد بن عبد اللّه بن رشيد. وقد توفي هذا الأمير عام ١٣١٥هـ، فخلفه في الحكم ابن أخيه، عبد العزيز بن متعب، الذي لم يكن يتمتَّع بما كان يتمتَّع به سلفه من حنكة سياسية. ولقد بلغت العلاقات بين ابن متعب وحاكم الكويت، مبارك بن صباح، درجة كبيرة من التوتُّر عام ١٣١٨ هـ. ونتيجة لذلك استنهض الحاكم الكويتي همم كثير من القادة المعادين لابن رشيد. وكان في طليعة هؤلاء من كانوا في الكويت من آل سعود، وآل مُهنَّا أمراء بُرَيدة، وآل سُلَيْم أمراء عُنَيزة، قبل نهاية الدولة السعودية الثانية. وخرج الجميع من تلك البلاد بجيش كبير صوب نجد لمحاربة الخصم المشترك. وعندما وصلوا إلى الشَّوْكي، الذي يبعد عن الرياض حوالى مئة وستين كيلاً شمالاً بمَيْلٍ قليل نحو الشرق، انطلق الملك عبد العزيز بفرقة من ذلك الجيش نحو الرياض. وقد نجح في دخولها بدون صعوبة. وكان مما سهَّل ذلك

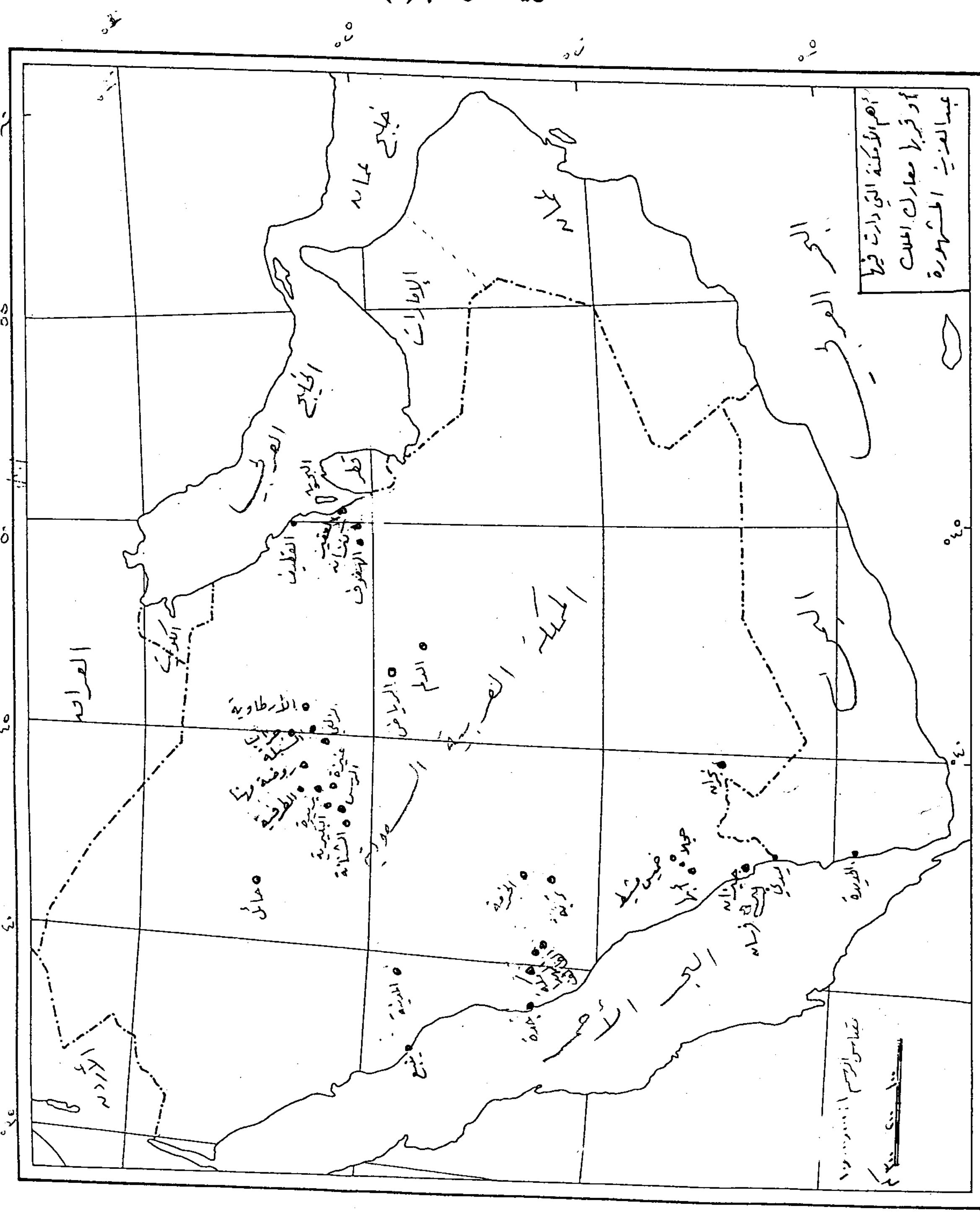
الدخول هدم الأمير محمد بن رشيد لأسوارها، أو لأكثر أسوارها [1].
وقد حاصر الملك عبد العزيز قلعة المصمك التي تحصَّن بها أمير ابن رشيد على البلدة حتى كادت تسقط في يده [2]. لكن الجيش الذي كان يقوده مبارك بن صباح مُنِي بهزيمة كبيرة على يد الأمير عبد العزيز ابن رشيد في الصَّريف. فتوجه الإمام عبد الرحمن بن فيصل صوب الرياض. فلما اقترب منها أرسل إلى ابنه يخبره بتلك الهزيمة. فترك الابن حصار المصمك، وخرج من البلدة حيث توجه هو وأبوه إلى الكويت.

---

(١) إبراهيم بن صالح بن عيسى، **تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد**. .، دار اليمامة، ١٣٨٦ هـ، ص ١٩٧.

(٢) ابن هذلول، مصدر سبق ذكره، ص ٥٥.

خريطة رقم (١)



الفصل الثاني
معركة الرياض

سنة ١٣١٩هـ/١٩٠٢م

الموقف العام:

كان لكلٍّ من الدولة العثمانية والدولة البريطانية قوتها المؤثِّرة على سير الأحداث في جزيرة العرب وما يحيط بها من أقطار وممرَّات مائية خلال العقد الثاني من القرن الرابع عشر الهجري. كانت الأولى تسيطر على الأقطار الواقعة شمال هذه الجزيرة، كما تسيطر على الأجزاء الغربية منها المتمثِّلة في الحجاز وعسير واليمن، وعلى الأجزاء الشرقية المتمثِّلة في الأحساء والقطيف. وكانت الكويت وقطر، أيضاً، تحت نفوذها من الناحية الرسمية وإن كانت شؤونها الداخلية في أيدي أمرائها المحلِّيين. على أن قبضة هذه الدولة على الأقطار التابعة لها لم تعد قوية بسبب المشكلات التي كانت تتعرَّض لها حينذاك. ومع أن إمارة آل رشيد في نجد كانت تعترف بالسيادة الاسمية للعثمانيين إلا أنها لم تكن مرتبطة بهم ارتباط الأقطار السابقة.

وكانت الدولة البريطانية صاحبة النفوذ الأكبر في بحر عمان والخليج العربي والساحل الجنوبي للجزيرة العربية. وقد عقدت الإمارات المحلِّية في الأمكنة المذكورة معها معاهدات حماية جعلت لها الكلمة النهائية في شؤونها؛ خاصة من الناحية الخارجية. ومن تلك المعاهدات معاهدة الحماية للكويت التي أعلنت سنة ١٣١٨ هـ[١].

ومما سبق يتبيَّن أن الدولتين العثمانية والبريطانية لم تكونا في معزل عن المعركة التي دارت على أرض الصَّريف تلك السنة بين ابن صباح وابن

---

(١) الزركلي، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ٧٢.

رشيد. لقد حاول ابن رشيد المنتصر في تلك المعركة أن يهجم على بلاد الكويت، فأيَّدته الدولة العثمانية في محاولته نكاية بأمير تلك البلاد الذي أثارها بتوثيق علاقاته مع منافستها بريطانيا. وراح ابن صباح المهزوم في المعركة المذكورة يدافع عن بلاده ذاتها. فوقفت الدولة البريطانية معه في ذلك الدفاع تحقيقاً لمصالحها ومنافسة للدولة العثمانية. على أن موقفها كان يتَّسم حينذاك بالتركيز على الساحل، والابتعاد عن التورُّط في داخل الجزيرة العربية. وظلَّ ابن رشيد يحاصر الكويت أملاً في الاستيلاء عليها. وبقي ابن صباح يستخدم ما لديه من إمكانات ذاتية وخارجية أملاً في الدفاع عنها.

أما أهل نجد فقد أدركوا، بصفة عامة، أن قوة ابن رشيد لا يستهان بها، وأن التعاون مع خصومه قد يجرُّ الويلات؛ وذلك نتيجة ما أنزله ذلك الأمير ببعض المتعاونين مع أولئك الخصوم من بطش، وما فرضه على بعضهم الآخر من غرامات باهظة [1]. لكن إجراءاته التي بثَّت الرعب في القلوب زادت من تطلُّع الكثيرين إلى التخلُّص من حكمه.

---

(١) مقبل بن عبد العزيز الذكير، مسودة تاريخ لم يضع له مؤلفه عنواناً ثابتا. وله عدة نسخ يختلف بعضها عن الآخر نوعاً ما. والمستعمل في هذا الكتاب ثلاث نسخ. مسودة مكتبة جامعة بغداد رقم ٥٦٩، ومسودة لدى الشيخ عبد الله البسام، ومسودة من نسخة خاصة لدى أقارب المؤلف. وسيشار إلى كل نسخة بذاتها عند الاعتماد عليها. نسخة البسام، ص ٢٤٢؛ ابن هذلول، مصدر سبق ذكره، ص ص ٥٦ ــ ٥٧. الزركلي، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ١٢٠.

الموقف الخاص:

رأى الملك عبد العزيز ما آلت إليه المواجهة العسكرية في معركة الصَّريف، وما تلاها من حصار ابن رشيد للكويت. وترجَّح لديه أن الظروف المحيطة بأمير البلاد المحاصرة فرضت عليه أن يكون همُّه الدفاع عن بلاده لا القيام بأية حركة جديدة ضد ابن رشيد في نجد. لكنه رأى، أيضاً، أنه قد حقَّق شخصياً مكاسب جيدة نتيجة دخوله الرياض عام ١٣١٨ هـ. ومن هذه المكاسب تجديد معرفته بتلك البلدة سكانًا وأرضاً وتحصيناً، والظهور أمام الآخرين بمظهر القائد الكفء. ولقد أضاف ابن رشيد، من حيث لم يرد، مكسباً آخر للملك عبد العزيز. ذلك أنه اشتد كثيراً في تعامله مع من وقفوا مع خصومه الذين قدموا من الكويت؛ خاصة في الرياض والقصيم(١). وكان هذا ممَّا زاد من سخطهم عليه وتطلُّعهم إلى التخلُّص من حكمه، كما ذكر قبل قليل. وبتأمُّل الملك عبدالعزيز لكل تلك الظروف اقتنع أنه وحده المؤهَّل لمحاولة استعادة الحكم السعودي، وأن الوقت مناسب ليبدأ تلك المحاولة. ولذلك عرض على والده الإمام عبد الرحمن أن يأذن له ببداية نشاطه في هذا المجال. ولم يشجعه ذلك الإمام في بداية الأمر، لكن إلحاحه المستمر جعله يوافق على ما عرضه. ومن المرجَّح أن ابن صباح قد ساعد الملك عبد العزيز

---

(١) الذكير، نسخة البسام، ص ٢٤٢؛ ابن هذلول، مصدر سبق ذكره، ص ص ٥٦ ـ ٥٧.

في إقناع الإمام بالموافقة أملاً في أن يخفِّف ما يقوم به الملك في نجد من شدَّة الحصار الذي فرضه ابن رشيد على بلاده إن لم يصرفه عنه نهائيا. وأمدَّ ابن صباح الملك عبد العزيز بأربعين بعيرًا وبعض المؤن[1]. فخرج من الكويت غازياً، عام ١٣١٩هـ، ومعه عدد من أفراد أسرته وأقاربه ومؤيِّديه لا يجاوزون أربعين رجلا[2]. وكان في مقدَّمة أولئك الرجال من آل سعود أخوه محمد، وعبد الله بن جلوي، وأخوا عبد الله فهد وعبد العزيز، وعبد العزيز بن مساعد بن جلوي، وعبدالعزيز بن عبد الله بن تركي، وناصر بن سعود آل فرحان، وسعود بن ناصر آل فرحان، وفهد بن إبراهيم آل مشاري، وعبد الله بن صنيتان[3].

ومن الواضح أن الملك عبد العزيز قد رأى في بداية انطلاقه من الكويت أن يلفت أنظار القبائل إليه بالقيام بإغارات جريئة اعتاد الجميع على رؤية أمثالها من القادة المغاوير، وأعجبوا دائماً بمن يقوم بها. فتوجَّه بمن معه إلى جهات الأحساء؛ خاصة أنها ليست بعيدة عن مكان منطلقه، وأن فيها من كان يؤمل في انضمامه إليه من القبائل. ولم يخب ظنُّه؛ إذ التحق به حوالى ألف مقاتل من قبائل مختلفة أغلبهم من

---

(١) الريحاني، مصدر سبق ذكره، ص ١٢١. وواضح أن تلك المعونة قليلة إذا ما قورنت بالهدف منها.

(٢) هكذا قدَّرتهم أكثر المصادر. لكن انضم إليهم غيرهم فيما بعد بحيث قاربوا الستين عند دخول الرياض.

(٣) ابن هذلول، مصدر سبق ذكره، ص ٥٨.

العجمان وسبيع والسهـول وآل مُرَّة [١]. وحالفه النصر في إغـاراته على بعض العشائر، فأدرك ابن رشيد خطر نشاطه، وحثَّ القادة العثمانيين على الوقوف ضده. فمنع المسؤولون في الأحساء والقطيف كل من يقف معه من التزوُّد بالأطعمة من هذين الإقليمين. ولذلك فضَّل المنضمون إليه التخلِّي عنه[٢]، ولم يبق بجانبه إلا الذين رافقوه من الكويت وعدد لا يبلغ نصفهم ممن التحقوا بـه بعد ذلك[٣]. وأمام هذا الـوضع توجَّه بهؤلاء إلى يَبْـرين الـواقعة بين قطر والـربع الخالي ليرسم خططه بـرويَّة. وقد حـاول والده أن يقنعه بـالعودة إلى الكـويت، لكن ذلك لم يزده إلا تصميماً على مواصلة جهوده [٤]. على أنه رأى أن الأسلوب الذي اتَّبعه يجب أن يُغيَّر بعمل جـريء مفـاجـئ يحدث صـدى بعيـداً في المنطقـة كلها؛ ألا وهو استعادة الرياض لحكم أسرته.

خطة دخول الرياض ومعركتها:

رأى الملك عبـد العزيـز أن دخـول الريـاض عام ١٣١٨ هــ لم يكن صعبًا، لكنه لم يسفر عن انتزاعهـا من حكـم آل رشيد. ذلك أن عامله عليها اعتصم مع حـاميته في قصر المصمك، الـذي كان قـويَّ البنيان

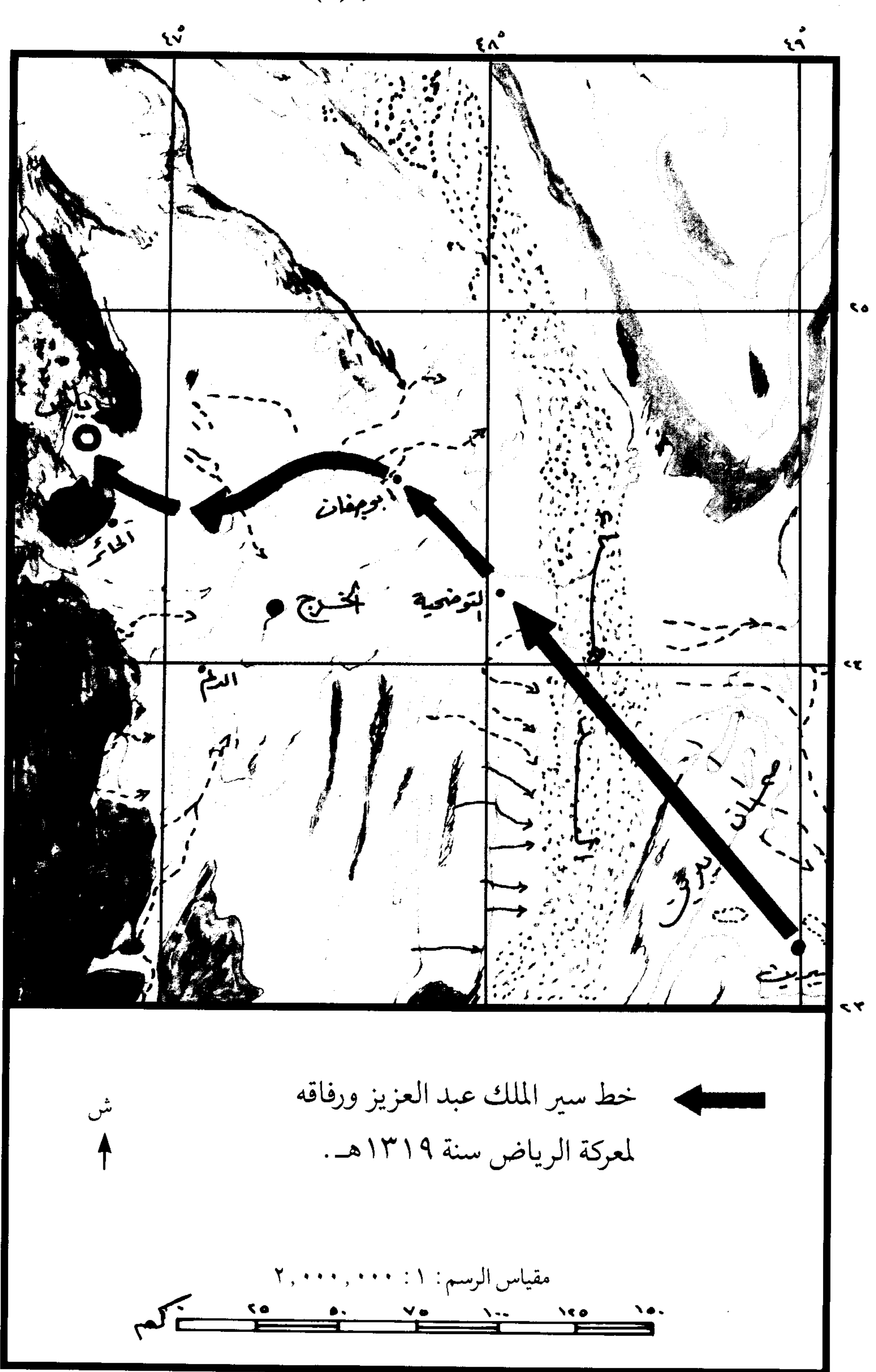
---

(١) الزركلي، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ٨٠.
(٢) المصدر نفسه، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ٨١.
(٣) الذكير، نسخة البسام، ص ٢٤٦.
(٤) الزركلي، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ٨٣.

جيد التحصين. وبما أنه لم يتمكَّن من اقتحام هذا القصر والقضاء على ذلك العـامل أو إجبـاره على الاستسـلام فإنـه لم يتمكَّن حقيقـة من السيطرة على مقاليـد الأمور في المدينة. ولهذا خطَّط على أن يتركَّـز هدفه في القضـاء على عـامل ابن رشيـد. ومتى قضى عليـه، أو أرغمـه على الاستسلام، استتبَّ الأمر له؛ خاصة أنه قد رأى في العام الماضي تعاون أكثرية سكان المدينة معه. وكان رفاقه الذين يريد أن ينتزع بهم الرياض من ابن رشيـد أقلَّ من ستين رجـلا. وكان من السهل على خصمـه في هـذه المدينـة أن يقضي على هـذا العـدد القليل، أو يصـدَّه عن بلـوغ هدفه، لو علم بتحرُّكه. ومـن هنا كانت السرِّيـة في الحركـة والمفاجـأة في الهجـوم من أهم الأمـور التكتيكيـة التي يجب أن تُـراعى. ومع أن قلَّـة العـدد عامـل ضعـف في المعـارك، بصفة عـامة، فـإنها في هذه المناسبة ـ وطبقًا لتخطيط الملك عبـد العزيـز الجديـد ـ عامـل يساعـد على ما حرص عليـه هـذا القائـد من سريَّة ومفاجـأة.

وفي اليـوم الحـادي والعشرين من رمضـان، عام ١٣١٩ هـ، اقتنع الملك عبـدالعزيـز بأن ابن رشيد قـد استبعـد أيـة حركـة منـه ضده. فانطلق برفاقـه من يَبْـرين متَّجهين إلى الرياض. وواصلوا السير نحوها يدلجون ليلاً، ويكنُّون نهارًا لئلا يعلم بهم أحد. ولم تغب شمس الرابع من شـوال، ذلك العـام، (١٣/ ١/ ١٩٠٢ م) إلا وهم على مشارفهـا الجنوبيـة الشرقيـة (انظـر الخريطـة رقـم ٢). وهنـاك راح قـائدهم عبـد العزيـز يضـع خطـة الدخـول إليهـا والسيطـرة على مقاليـد الأمـور فيها.

خريطة رقم (٢)


٤٧°
٤٨°
٤٩°
٢٥
٢٤
٢٣
الحائر
الخرج
التوضحية
الدلم
خط سير الملك عبد العزيز ورفاقه
لمعركة الرياض سنة ١٣١٩هـ.
ش
مقياس الرسم : ١ : ٢,٠٠٠,٠٠٠
٠ ٢٥ ٥٠ ٧٥ ١٠٠ ١٢٥ ١٥٠
كم

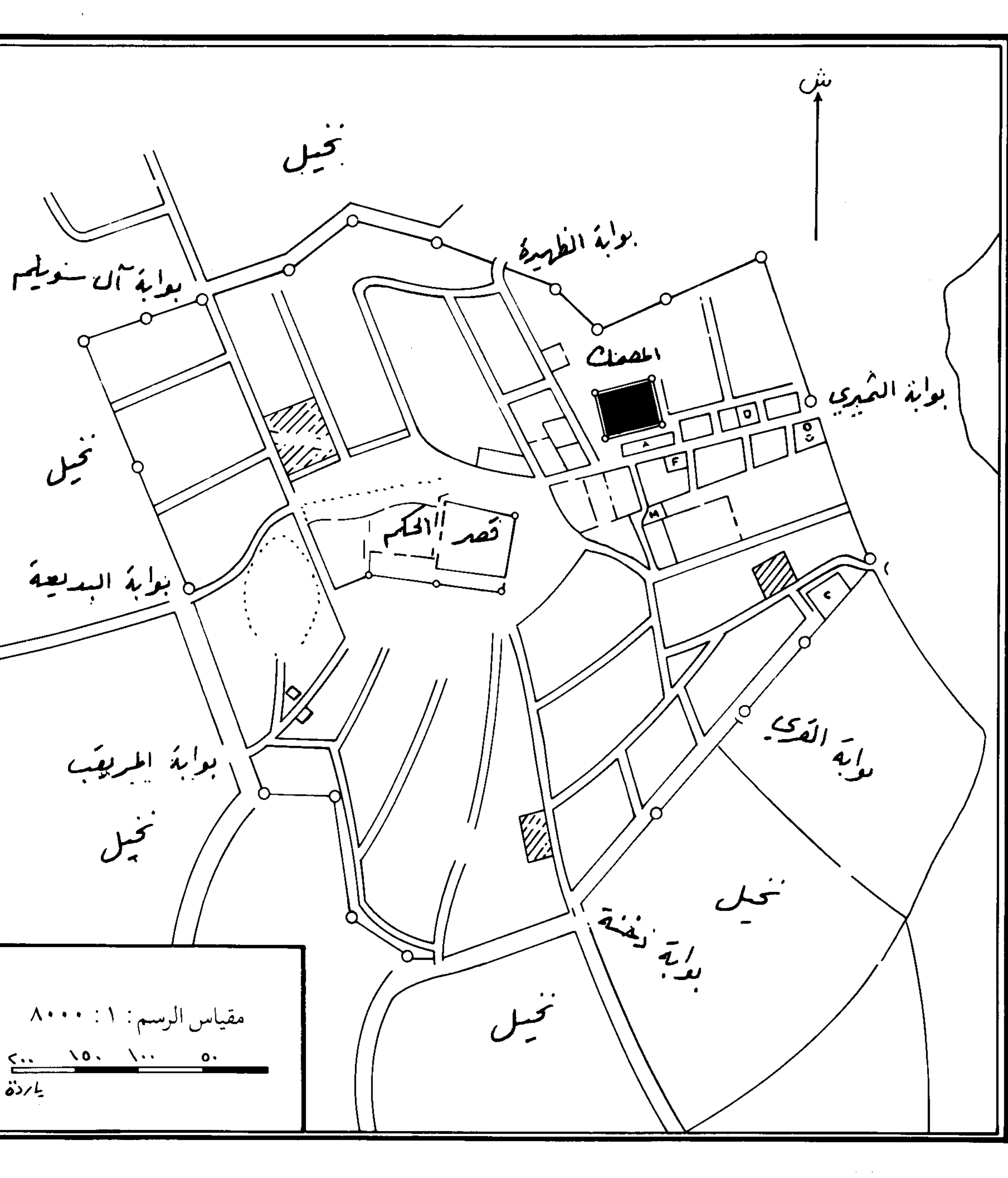
كان الملك عبد العزيز يعلم أنه لا يمكنه الدخول إلى الرياض إلا تسلُّلا. وهذا يحتِّم ترك الإبل المقلَّة للمقاتلين في المكان الذي وصلوا إليه. ولذلك قسم رفاقه إلى مجموعتين: الأولى، وتتكوَّن من عشرين رجلاً، تبقى عند الإبل والمؤن بصفتها عنصر إسناد إداري[١]، وعليها أن تنضمَّ إلى بقية الرفاق متى تلقَّت إشارة القائد بذلك، أو تنسحب من مكانها إن لم ترد إليها توجيهات منه قبل طلوع الشمس. والثانية، أو القوة الرئيسية المهاجمة، تتقدَّم نحو المدينة. وقد سار بهؤلاء راجلين حتى بلغوا مزرعة نخيل من مزارعها الساعة التاسعة ليلاً تقريبا. ثم قسم هؤلاء إلى قسمين، أو نسقين، يتكوَّن الأول منهما من ثلاثة وثلاثين رجلاً بقيادة أخيه محمد بن عبد الرحمن. وأمره بالبقاء في تلك المزرعة حتى تصل إليه إشارة منه بالحركة، فإن لم تصل إليه إشارة منه قبل الصباح فعليه أن يغادر المكان طلباً للنجاة. أما القسم الثاني فيتكوَّن من سبعة رجال بقيادته شخصيا؛ وهم عبد الله وعبد العزيز وفهد أبناء جلوي بن تركي، وناصر بن سعود آل فرحان، واثنان من خدام آل سعود هما سبعان والمعشوق[٢]، ومهمَّته أن يدخل البلدة ليمهِّد الطريق نحو الهدف الأساسي؛ وهو القضاء على عامل ابن رشيد فيها. (انظر الخريطة رقم ٣).

---

(١) رحمو، مصدر سبق ذكره، ص ٦٠.

(٢) الزركلي، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ٩٧. أسماء بقية من توجهوا مع الملك عبد العزيز من يَبْرين إلى الرياض - ومنهم أناس من أسرته سبقت الإشارة إليهم - موجودة في المصدر المذكور.

خريطة رقم (٣)



تعريب لخريطة رسمها فيلبي للرياض
قبل عام ١٣٥٠هـ والمصمك باللون الأحمر

دخل الملك عبد العزيز ورفاقه الستة إلى الرياض دون صعوبة. فالظلام الدامس كان خير ستار لهم، وأسوار البلدة، أو أجزاء كبيرة منها، كانت مهدَّمة، فلا عوائق أمامهم، وعددهم كان قليلاً لا يحدث جلبة ولا يثير انتباهاً. واستطاعوا أن يصلوا إلى بيت غير بعيد من بيت عامل ابن رشيد، عجلان بن محمد. ثم انتقلوا من ذلك البيت إلى منزل مجاور لبيت العامل المذكور. وقد اتَّخذوا من الإجراءات في هذا المنزل وذلك البيت ما رأوه ضرورياً لبقاء تحرُّكهم غير معروف. وبعد أن اطمأنوا إلى سلامة موقفهم أرسل الملك عبدالعزيز إلى أخيه محمد ومن معه يأمرهم بالالتحاق به. ونجح هؤلاء في الوصول إليه دون أن يشعر بهم أحد. فتركهم في المنزل ردءاً، وتسلَّق هو ورفاقه الستة الأولون إلى بيت عجلان الواقع أمام قصر المصمك. فلما وصلوا إلى الغرفة التي اعتقدوا أنه نائم فيها دخلها الملك عبد العزيز وإصبعه على زناد بندقيته، لكنه فوجئ بوجود زوجة عجلان وأختها ولم يجده. فأخبرته الزوجة أن زوجها نائم كعادته عند الحامية داخل المصمك، وأنه لا يأتي إلى بيته إلا بعد طلوع الشمس. وهنا استدعى أخاه محمداً ومن معه من المنزل المجاور. ولما اكتملوا في البيت أكلوا تمرًا مما كان معهم، ثم ناموا قليلا[1]. ولما أُذِّن لصلاة الفجر أدَّوها، وجلسوا يفكرون في الطرق المناسبة للقضاء على عجلان.

---

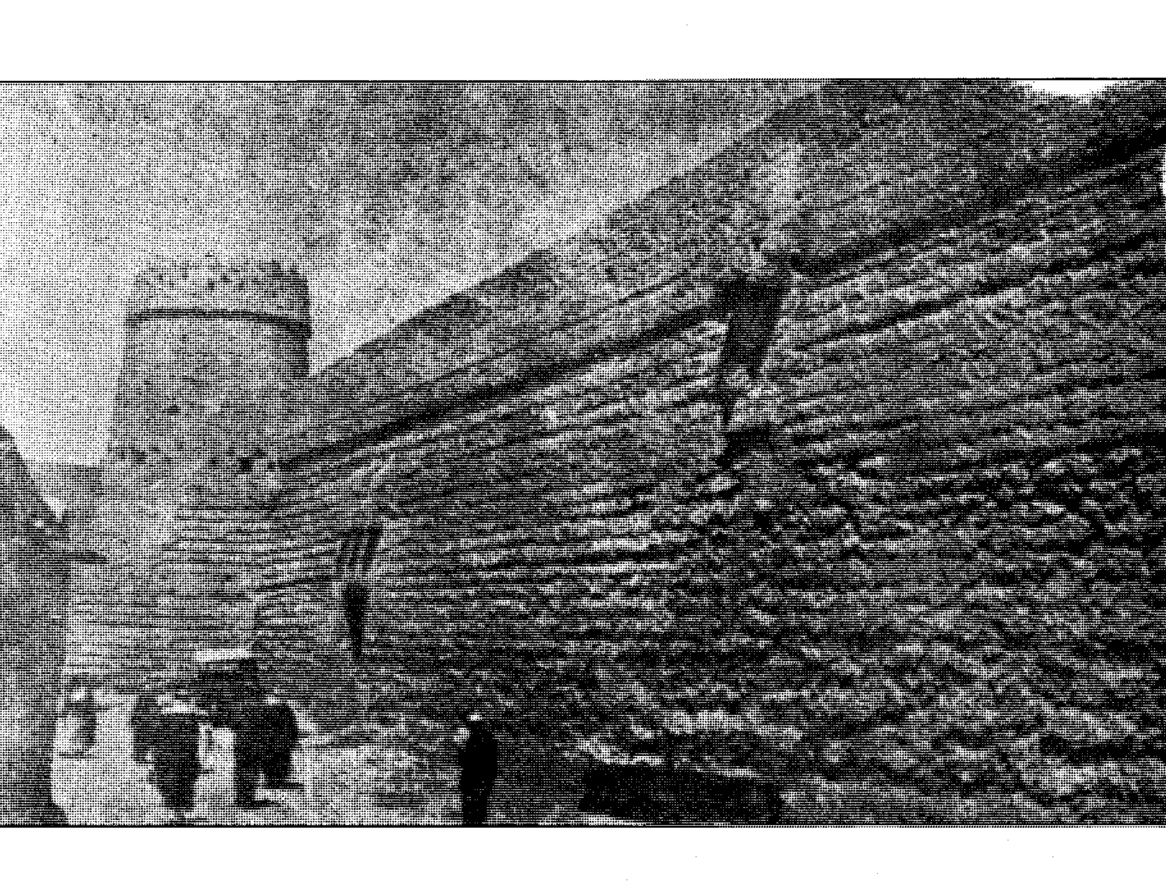
(١) مما يثير الانتباه أن يستطيع النوم من هو مقدم على مثل ما هم مقدمون عليه. لكن هذا دليل على رباطة الجأش. ومن المرجَّح أنهم لم يناموا جميعا. بل بقي منهم من لم يناموا حذرًا ومراقبة.

كان الملك عبد العزيز يرى أن يبقوا في بيت عجلان حتى يأتي إليه فيقضوا عليـه. وبعد شـروق الشمس بقليل رأى الجميع بوَّابـة القصر تفتح، والخدم يخـرجون منها، والخيل تقـاد عبرها إلى السـاحة التي أمامها. وأمـام هذا المنظر طرأت للملـك عبد العزيز فكـرة جديدة؛ وهي أن ينقضُّوا علـى القصر للسيطرة عليـه مادامت بـوَّابته مفتـوحة؛ خاصة أن القضـاء على عجلان في بيته - إن تمَّ - لا يعني أن الحامية لن تقـاوم بعد ذلك. ولهـذا أمـر مجموعـة ممن معـه أن يخرجـوا من البيت ويقتحمـوا المصمك وهـو في طليعتهم. وفي أثنـاء خـروجهم خرج عجلان من المصمك، ومرَّ بالخيل يستعرضها، وأقفل الحراس البوَّابة تاركين فتحة وسطها.

ولما رأى رجال عجلان الملك عبد العـزيز ومن معه عادوا مسرعين إلى داخل المصمك. أمـا هو فشهـر سيفـه في وجه الملك، الـذي بادره بطلقـة من بندقيته، لكنهـا لم تؤثِّر فيه تأثيـرًا قويا. فأسـرع نحو القصر، فـأمسك الملك بإحدى رجليـه وهو يحـاول الدخـول، لكنه ركله بـالأخرى، ودخل، فتبعـه عبد الله بن جلـوي إلى داخل القصر، وقتله[١]. وانـدفع بقيـة المهـاجمين إلى الداخـل، ففتحوا البـوَّابـة، وسارع إليهم من كـانوا في بيت عجلان، وراح الجميع يقاتلـون رجال الحـامية، الـذين كـان عددهم حـوالى ثمـانين مقـاتلا. وقـد شلَّت المفاجأة حركة كثيـر منهم، فقُتِل بعضهم، واستسلم الباقون. وما إن

---

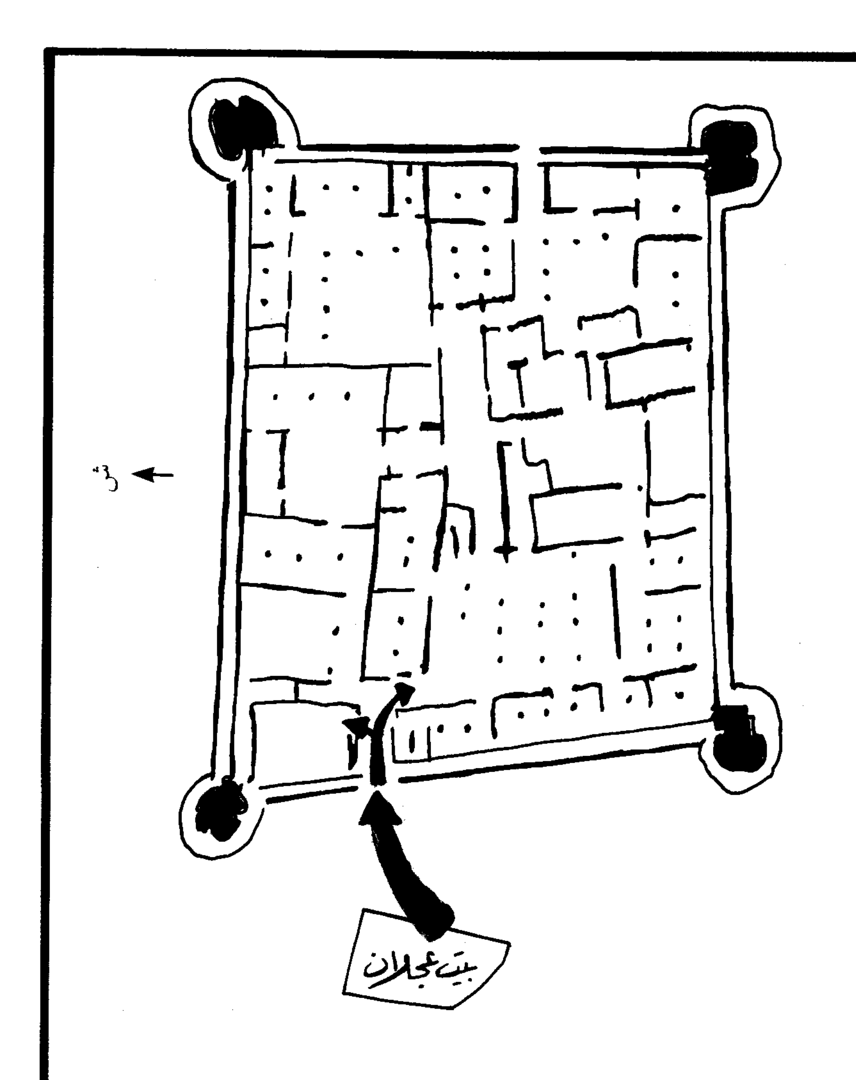
(١) ومما حـدث في ذلك الهجوم تـوجيه فهـد بن جلوي شلفـاه صوب عجـلان، لكنها أخطأته وضربت فتحة البوَّابة ولا يزال طرفها موجودًا في تلك الفتحة.



صورة لواجهة المصمك من كتاب الشيخ حمد الجاسر:
مدينة الرياض، دار اليمامة، ١٣٨٦هـ



الفتحة (الخوخة) التي في وسط بوَّابة المصمك من كتاب
الشيخ حمد الجاسر المذكور سابقا



مخطط المصمك: صورة مقتبسة من كتاب **المصمك**،
إصدار هيئة تطوير مدينة الرياض ١٤١٤هـ
وطريقة هجوم الملك عبد العزيز ورفاقه على عجلان
سنة ١٣١٩هـ

تمَّ ذلك حتى نودي أن الحكم لله ثم لعبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود[1] . وهكذا انتهت معركة الرياض ، وخطا ذلك القائد خطوته الأولى لاستعادة الحكم السعودي ، وتوحيد أجزاء البلاد المختلفة تحت راية الدولة السعودية الثالثة .

الدروس المستفادة:

كانت معركة الرياض ، عام ١٣١٩ هـ ، عملية جريئة محكمة . ويمكن أن يستفاد منها دروس كثيرة من أهمِّها .

١ ـ أهميَّة تحديد القائد للهدف من المعركة التي يريد الإقدام عليها ، وأهميَّة وضوح ذلك الهدف في ذهنه وتفكيره . وكان هدف الملك عبد العزيز في تلك المعركة محدَّدًا بدقة وواضحاً بجلاء ؛ وهو انتزاع الرياض ، عاصمة حكم آبائه وأجداده من ابن رشيد بالقضاء على عامله فيها والتغلُّب على حاميته .

٢ ـ أهميَّة اختيار الوقت المناسب لدخول المعركة ؛ وذلك من ثلاث زوايا . فقد اختار الملك عبد العزيز زمن سيره إلى الرياض عندما غلب على ظنِّه أن ابن رشيد قد اعتقد أنه لن يقوم بمهاجمتها . وهو بهذا الاختيار قد كسب عنصر المفاجأة المهم في المعارك . واختار فصل الشتاء لذلك السير ودخول تلك البلدة لأن ليل الشتاء طويل يتيح الفرصة أكثر من ليل الصيف لقطع مسافات الطريق

---

(١) من أوفى المصادر تفصيلا عن معركة الرياض ما ذكره الزركلي ، مصدر سبق ذكره ، ج ١ ، ص ص ٧٩-١٠٠ . ومن كلامه ما هو منقول عن الملك عبد العزيز نفسه .

المطلوب قطعها ليلاً، ويجعل أهل الرياض داخل بيوتهم اتِّقاء للبرد. واختار ليلة الخامس من شهر شوال لدخول البلدة لأن الهلال يغيب قبل الساعة المحدَّدة لدخولها فيكون مسرح العملية مظلمًا مناسبًا للتسلُّل والحركة السرِّية.

٣ ـ أهميَّة التخطيط الجيد للمعركة بوضع الخطوات التي يجب القيام بها قبل دخولها، ثم طريقة إدارتها. وقد تمثَّل ذلك في جميع الخطوات التي مرَّت بها معركة الرياض.

٤ ـ أهميَّة السرِّية في الحركة. ذلك أن ما قام به الملك عبد العزيز ورفاقه من سير خلال الليل واختباء في أثناء النهار كان عاملاً من العوامل التي حفظت تلك السرِّية، وأثمرت ما أثمرت من نجاح.

٥ ـ أهميَّة عامل المفاجأة لشلِّ حركة الخصم. وهذا ما حدث خلال الهجوم غير المتوقع لعبد العزيز ورفاقه على عجلان ومن معه بعد خروجهم من قصر المصمك.

٦ ـ أهميَّة اختيار أرض المعركة. ذلك أن الملك عبد العزيز اختار الرياض التي تمثِّل رمزًا لتاريخ أسرته، ويكنُّ أكثر سكانها ولاء لهذه الأسرة مما يدفعهم إلى التعاون معه. وقد اتَّضح أنه بمجرد انتصاره على حامية ابن رشيد وعامله هرع إليه أولئك السكان مبايعين فرحين.

٧ ـ أهميَّة الحصول على معلومات عن الخصم وتحرُّكاته وما لديه من إمكانات. ومن ذلك أخذ الملك عبد العزيز المعلومات من زوجة عجلان.

٨ ـ أهميَّـة معرفـة جميـع الطرق المؤدِّية إلى الهدف لاختيار أقربها وأكثرها احتمالاً للنجـاح. فالملك عبد العزيز يعرف ــ مثلاً ـ الطريق إلى الريـاض، كما يعـرف مواقع بيـوت أهلها، ولذلـك كان أوّل بيت دخله هو ورفاقه لا يبعد عن هدفه إلا ببيت واحد.

٩ ـ أهميَّـة العامل المعنوي. ذلك أن الملك عبد العـزيز لم يغفل هذا العامل؛ بل راح ـ رغم قصر الوقت ــ يأكل مع رفاقه التمر، وناموا ثم صلَّوا الفجـر. وفي كل ذلك مـا فيه من رفع للمعنـويات وتخفيف من حدة التوتُّر.

١٠ ــ أهميَّة السيطـرة على طرق الاتصـال بين القـائد وأفراد القـوة المحاربة.

١١ ـ أهميَّـة الانضبـاط لـدى الأفـراد. ذلـك أن رفـاق الملك عبـد العزيز قد طبَّقوا تعليماته بدقَّة. ونفَّذوا توجيهاته دون تأخير.

١٢ ـ أهميَّة التشاور والنقاش. يقول الملك عبد العزيز: «وبعد أن صلَّينا الفجر جلسنا نفكِّر ماذا نعمل».

١٣ ـ أهميَّة مرونة القائد في تغيير خطته إذا رأى ضرورة لذلك، كما هو واضح في أمـر الملك عبد العزيـز رفاقه باقتحـام قصر المصمك بدلاً من انتظـار دخول عجـلان إلى بيته للقضـاء عليه. فتحقَّق بتلك المرونة قتل الخصم من جهة، واقتحام المصمك، ثم السيطرة عليه، من جهة أخرى.

١٤ ـ أن قلَّـة العدد ليست دائمًا عـامل ضعف؛ بل قد تكون عامل قـوة في بعض الأحيان والظـروف، وأن المهم المقدرة على الاستفـادة من العدد المتاح بطريقة مثلى.

الفصل الثالث

معركة الدلم

سنة ١٣٢٠هـ/١٩٠٢م

معركة الدَّلَم

سنة ١٣٢٠ هـ/ ١٩٠٢ م

تنبع أهميَّة معركـة الدِّلَم بين الملك عبد العزيز والأمير عبـد العزيز ابن رشيد من عدة أمور أبرزها :

١ ـ أنهـا أوَّل معركـة يتقابل فيها هـذان الزعيمـان بجيشيهما . وفي ذلك ما فيه من سبر كلٍّ منهما لغور الآخر في الميدان .

٢ ـ أنها أثبتت قدرة الأول منهما ـ وهو في بـداية حركته التوحيدية ـ لا على الصمـود أمام الثـاني ، الـذي كـانت له مـن تجارب الحـرب والحكم مـا لـه ، فحسب ؛ بل القـدرة على إنزال بعض الخسـائر بـه أيضا .

الموقف العام:

سبقت الإشارة إلى ما للدولة العثمانيـة من نفوذ في الأقطار الواقعة شمال الجـزيرة العربيـة وفي غربي هذه الجزيـرة وشرقيها ، وعـلاقتها الخاصة بإمارة آل رشيد ، كما سبقت الإشـارة إلى ما للدولة البريطانية من نفـوذ في مياه عمـان والخليج العربي وسـواحل جنوب الجـزيرة ، والتنافس بين هاتين الدولتين ؛ خـاصة على الكويت . ولم يتغيَّر ذلك الوضع عمليًـا بعد انتزاع الملك عبد العـزيز الريـاض من ابن رشيد . لكن هذا الانتزاع أحدث صداه لدى الأوساط المسؤولة التابعة لهاتين الـدولتين في المنطقـة . فلقـد ساء العثمـانيين أن تُنتَـزع تلك البلـدة المهمَّة من حكم أميـر له عـلاقة وطيدة بهم ؛ خـاصة أن من انتـزعها ينتسب إلى أسرة قام حكمها على أساس ديني إصلاحي حاربه أولئك

العثمانيون . فاحتمال قيام ذلك الحكم من جديد أمر يثير القلق وعدم الارتياح لهم .

أما الدولة البريطانية فكانت صديقة لأمير الكويت خدمة لمصالحها الخاصة . وبما أن ما قام به الملك عبد العزيز يسرُّ ذلك الأمير لما قد ينتج عنه من تخفيف حدَّة حصار ابن رشيد له ، أو إنهاء ذلك الحصار، فإنها أبدت سرورًا وابتهاجاً . لكنها ـ وهي التي قد اتَّخذت حينذاك سياسة عدم التدخل المباشر في الشؤون الداخلية لوسط الجزيرة العربية ـ لم تقم بأي شيء عملي تجاه ما حدث .

وأما أهل نجد؛ حاضرة وبادية ، فقد اهتموا بالأمر غاية الاهتمام . فأكثرهم كانوا يكنُّون لآل سعود من الود والتقدير ما لا يكنُّون منهما لآل رشيد؛ لا سيما الأمير عبد العزيز بن متعب . ولهذا رأوا في انتزاع الملك عبد العزيز الرياض من ابن رشيد بارقة أمل يمكن أن تخلِّصهم من الحكم الذي يتوقون إلى التخلُّص منه ، وتعيد إليهم ذلك الحكم الذي يتطلَّعون إلى عودته . وأصبحت نفوسهم مهيَّأة لتحويل تلك المشاعر إلى حركة فاعلة متى وجدت فرصة مناسبة لذلك .

ولم يكن خروج الرياض من يد ابن رشيد بالأمر الهيِّن عليه . بل كان نذير خطر ومصدر إزعاج . ومع أن بعض المصادر أشارت إلى أنه أبدى عدم اكتراث بذلك الحدث[1] فإن ما أبداه لم يكن ـ

---

(١) الريحاني ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٢٧ ؛ ابن هذلول ، مصدر سبق ذكره ، ص ٦٢ . وكثيرًا ما قيل عنه إنه قال في تلك المناسبة : «أرنب محجورة» . فإن صدقت الرواية ـ ومرجح أنها صحيحة ـ فقد قالها علنًا محاولة منه لرفع معنويات أتباعه .

على الأرجح ــ معبِّرًا عن شعوره الحقيقي. ذلك أنه قد أدرك خطر نجاح الملك عبد العزيز في بعض إغاراته قبل انتزاعه الرياض منه، وحثَّ العثمانيين على محاربة من انضم إليه من القبائل اقتصادياً ففعلوا[1]. فهل من المعقول أن يهتمَّ بخطر خصمه الجديد قبل ذلك الحدث العظيم ولا يكترث به بعده؟

لقد استشار كبار قومه، وهو في حفر الباطن، عندما سمع بدخول الملك عبد العزيز الرياض، فأشار عليه أغلبهم بعدم التوجه إلى هناك لمحاربته، والذهاب بدلاً من ذلك إلى حائل للاستعداد الجيد. ولعلَّ أكبر عامل دفعهم إلى هذا الرأي أنه قد مضت عليهم مدة غير قصيرة منذ أن تركوا أهليهم وأولادهم وديارهم وشؤونهم الخاصة، وأن التوجه إلى الرياض لا يُعلَم زمن العودة منه. وفي هذا ما فيه من كبير العناء وفائق المشقة. فانصاع لرأي الغالبية، ومضى إلى حائل كي يستريح هو ومن معه فترة، ثم يستعدوا الاستعداد المطلوب لمنازلة الخصم الجديد[2]. وسواء كان الذهاب إلى حائل بعد سماع ما حدث في الرياض مباشرة أو بعده بوقت فإنه إجراء ثبت خطؤه وفداحة نتيجته بالنسبة له.

---

(١) انظر ص٤٣ من هذا الكتاب.

(٢) إبراهيم بن محمد القاضي، **تاريخ القاضي**، ص ٩ وهو مخطوط مكتوب باللغة العامية. وكان القاضي معاصراً للأحداث وجليساً لأمير عنيزة، عبد العزيز بن سُلَيم. ويذكر أن من استشارهم ابن رشيد قالوا: «هذا ضب وزا في جحره ولاحقين عليه».

الموقف الخاص:

بعد أن استتبَّ الأمر للملك عبد العزيز في الرياض أصبح يملك قاعدة ينطلق منها. وأية قاعدة؟ إنها مسقط رأسه، ومرتع صباه، وعاصمة أجداده وآبائه بما كان لهم من حكم واسع وتاريخ عريق. ولقد تجلَّت مظاهر عظمته القيادية بما اتَّخذه من خطوات مباشرة بعد استتباب الأمر له في هذه البلدة؛ وهي مظاهر برزت في جميع خطواته التوحيدية فيما بعد. وكان في مقدَّمة هذه المظاهر أخذ الحيطة والتأهب لكل خطر محتمل. كان يدرك غاية الإدراك قوة ابن رشيد وكثرة أتباعه طوعاً أو كرها. فلم تلهه مشاعر فتوَّته، أو نشوة انتصاره، عن إعداد كل ما يستطيع للوقوف أمام أي هجوم قد يقوم به ذلك الحاكم القوي. وهكذا سارع إلى إعادة بناء أسوار الرياض المهدَّمة. ولم تمرَّ خمسة أسابيع إلا وقد كمل ذلك البناء[1]. ولم يكتف بما عمله محلِّياً. بل أرسل إلى أبيه الإمام عبد الرحمن والشيخ مبارك بن صباح يبشرهما بانتصاره، لكنه قرن تلك البشارة، أيضاً، بطلب نجدة بقيادة أخيه سعد. وقد وصلت إليه هذه النجدة بالسرعة التي أمل أن تصل بها. وبذلك أصبحت الرياض قوية من حيث وسائل الدفاع والتحصين، ومن حيث عدد المدافعين. وكان مما قام به الملك عبد العزيز بعد ذلك أن بعث أخاه محمداً إلى الكويت ليصحب والدهما، الإمام عبد الرحمن، وبقية أسرته من

---

(١) ابن هذلول، مصدر سبق ذكره، ص ٦٢؛ الزركلي، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ١٢٣.

هناك إلى الرياض. وبوصول الجميع إليها التمَّ شمل الأسرة السعودية في مقرِّ حكمها التاريخي[1].

وكان من مظاهر عظمة صفات الملك عبد العزيز القيادية، أيضاً، أنه أدرك ضرورة الاستفادة من الوقت على أكمل وجه. فبعد أن اطمأن إلى وضعه القوي في الرياض سارع إلى التحرُّك خارجها. وكان يعلم أن له أنصارًا في مختلف أقاليم نجد، لكنه يدرك أن تحرُّكه صوب الجهات الواقعة جنوب الرياض أكثر احتمالاً للنجاح لأسباب. منها: أنها أبعد جغرافياً عن مركز إمارة ابن رشيد، حائل، من الجهات الواقعة شمالها. وهي بذلك لن تثير ذلك الخصم القوي كما تثيره الجهات الأقرب إلى ذلك المركز. ولم تكن ظروف الملك عبد العزيز حينذاك تخوِّله أن يجازف بالبحث عن تلك الإثارة. ومنها أن قوة الحكم الرشيدي في الجهات البعيدة نسبيًا عن جبل شمَّر أقلُّ من القريبة إليه. وهذا قد يكون سبباً من أسباب تشجُّع سكان تلك الجهات البعيدة على مدِّ يد التعاون إلى الحاكم الجديد. ومنها، أيضاً، أن معظم قادة الجهات الجنوبية من نجد وأهاليها كانت لهم مواقف عظيمة ضد القوات المعادية للحكم السعودي؛ خاصة القادمة من مصر. وكانت بلدانهم ملاذًا لبعض آل سعود وآل الشيخ بالذات ممن لم يرضوا بالخضوع لهذه القوات.

---

(١) الذكير، نسخة البسام، ص ٢٥١.

واعتقد الملك عبد العزيز أنه متى كسب ولاء سكان الجهات الواقعة جنوب الرياض أمكنه التحرُّك صوب الجهات الواقعة شمالها وغربها وظهره أكثر أمانا. فاتصل بأولئك السكان ولقي ما توقَّعه من استجابة وتعاون، فدخلت تحت حكمه الخرج والأفلاج والحريق وحوطة بني تميم[1]. ووجَّه أهلها إلى تقوية دفاعاتهم، كما حدث بالنسبة لسور الدِّلَم[2].

وبعد أن حقَّق الملك عبد العزيز ما حقَّق من نجاح في جنوبي نجد بدأ التحرُّك صوب الجهات الأخرى. وكان أن بدأ بعالية نجد. على أن تحرُّكه استهدف فئات من البادية، ولم يستهدف بلداناً أو قرى. وكان النصر حليفه وحليف من بعثه نائبًا عنه[3]. ومن الواضح أن بدأه بعالية نجد عائد إلى بعدها النسبي عن مركز حكم ابن رشيد، وأن استهدافه البادية راجع إلى أن مهاجمتها لا تثير ذلك الحاكم كما تثيره مهاجمة البلدان والقرى التابعة له؛ إذ لم تكن قوة ارتباط القبائل به؛ خاصة تلك التي لم تكن في جبل شمَّر أو قريبة منه، كقوة ارتباط الحاضرة. وبالإضافة إلى هذا فإن نجاح غزوه للبادية سينتج عنه الحصول على غنائم كان في أمس الحاجة إليها حينذاك.

---

(١) القاضي، مصدر سبق ذكره، ص ٩.

(٢) مسودة الكتاب الذي أعدته اللجنة العسكرية، ص ٥٦.

(٣) ابن هذلول، مصدر سبق ذكره، ص ٦٢.

أما الأمير عبد العزيز بن رشيد فبعد أن استراح فترة في حائل قرَّر أن يتوجه للقضاء على خصمه الجديد، الملك عبد العزيز. فخرج من تلك البلدة بقواته من حاضرة جبل شمَّر وباديته في ربيع الأول عام ١٣٢٠ هـ. وانضم إليه أتباعه من أقاليم القصيم والوشم وسدير والشعيب والمحمل. فوصل بالجميع إلى رغبة، إحدى بلدان الإقليم الأخير. وبقي هناك حوالى شهرين، ثم انتقل إلى الحِسِي. وقد حلَّ بمن معه خلال إقامته وباء توفي بسببه أعداد منهم[١]. وقد وجَّه - وهو هناك - بادية قحطان للنزول قرب بلدة ضرما، كما أرسل إليها سالم بن سبهان ومعه غزو أهل القصيم[٢]. وبعث سعداً الحازمي إلى القبائل المجاورة للأحساء ليستنهضها، لكنه فشل لأن الملك عبد العزيز كان قد سبقه بإرسال أخيه محمد وعبد الله بن جلوي إليها، فتمكَّنا من كسبها[٣]. ومن الواضح أن هدف ابن رشيد من تلك الإجراءات تطويق الرياض من شمالها الغربي وشرقها. على أنه رغم كل ذلك لم يتحرَّك من الحِسِي لمهاجمة هذه البلدة؛ بل انتقل إلى الحفر. ولعله أراد بهذا الانتقال التمويه ليقوم بعد ذلك بهجوم مفاجئ.

---

(١) الذكير، نسخة البسام، ص ٢٥٢؛ عبد الرحمن بن ناصر، **عنوان السعد والمجد فيما استظرف من أخبار الحجاز واليمن ونجد**، مخطوط، ج ١، ص ٥٧.

(٢) القاضي، مصدر سبق ذكره، ص ٩.

(٣) الريحاني، مصدر سبق ذكره، ص ص ١٢٩ ـ ١٣٠.

رأى الملك عبد العزيز ما قام به الأمير عبد العزيز بن رشيد من محاولة لمهاجمته، فخطَّط تخطيطاً متقناً بحيث يستدرج ذلك الخصم إلى مواجهة عسكرية على أرض يختارها وفي زمن يناسبه. ولقد قارن بين أن تكون تلك الأرض مركز حكمه، الرياض، أو الجهات الواقعة جنوباً عنها. فرأى أن هذه الجهات أفضل له لأسباب منها:

١ ـ أن خصمه قد يحكم الحصار على الرياض، فيحدُّ بقاؤه فيها من اتِّصالاته بأنصاره خارجها، ولا تتاح له فرصة التحرُّك المرن، وبالتالي يقع في مصيدة عسكرية.

٢ ـ أن كونه بين أنصاره في الجهات الجنوبية من هذه البلدة سيتيح له القدرة على المناورة بحرِّية أكثر، ويسهِّل له التكيُّف مع الظروف الطارئة؛ خاصة أنه واثق من تحصين الرياض.

٣ ـ أن ذهابه إلى تلك الجهات سيجعل خطوط مواصلات خصمه أطول، وبالتالي أكثر عرضة للخطر، وأعظم تكلفة.

٤ ـ أن وجوده في الجهات المذكورة قد يغري ذلك الخصم بمحاولة الاستيلاء على الرياض. وما دامت محصَّنة قوية الدفاع فإن الملك عبد العزيز سيتمكَّن، بقوات من جنوبي نجد، من تطويقه أو وضعه في كمَّاشة.

ومادام الملك عبد العزيز قد اختار الجهات الجنوبية من نجد ميداناً للمعركة التي أراد أن يواجه بها خصمه الأمير عبد العزيز بن رشيد

فإنه لم يكن غريباً عليه أن يستخدم أسلوب التمويه على ذلك الخصم ليستدرجه إليها، فيشيع بأن خلافاً قد وقع بينه وبين أبيه الإمام عبد الرحمن، وأنه قد اضطر إلى الخروج من الرياض بسبب ذلك الخلاف(١). وخرج من هذه البلدة بعد أن ترك فيها قوات قادرة على الدفاع عنها بقيادة أبيه. فتوجه إلى حوطة بني تميم يستثير همم أهلها، وأرسل أخاه سعداً إلى الحريق يستنهض عزائم سكانها، وجعل عبد الله بن جلوي يرابط بقوات بين هاتين البلدتين، ووضع سريَّة في الدِّلَمَ بقيادة السديري(٢).

من المحتمل أن الأمير عبد العزيز بن رشيد قد انطلت عليه إشاعة الخلاف بين الملك عبد العزيز وأبيه فجعلته ينطلق بقواته صوب الرياض محاولاً استغلال ذلك الخلاف، الذي أشيع، لصالحه. لكن من المحتمل، أيضاً، أن ما ذكر سابقاً من أن انصرافه من الحِسِي لم يكن إلا لترتيب هجوم مفاجئ على تلك البلدة. وسواء كان هذا أو ذاك فإنه قد أقبل بأتباعه الذين يُقدَّر عددهم بأكثر من أربعة آلاف بينهم حوالى أربع مئة خيَّال(٣). فلما وصل بهؤلاء الأتباع

---

(١) الزركلي، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ١٣٤.

(٢) يقول إنه أحمد السديري كل من الريحاني، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٠ والذكير، نسخة البسام، ص ٢٥٢. ويذكر أنه محمد السديري كل من عبد الله بن محمد البسام، **تحفة المشتاق في أخبار نجد والحجاز والعراق**، مخطوط نقله عن خط المؤلف نور الدين شريبة سنة ١٣٧٥هـ، ورقة ١٦٩هـ، وابن هذلول، مصدر سبق ذكره، ص ٦٣، وابن ناصر، مصدر سبق ذكره، ج١، ص ٤٥.

(٣) الريحاني، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٢.

إلى بَنْبان، الذي يبعد عن الريـاض خمسين كيلاً تقريبا، علم أنه لم يقع خلاف بين الملك عبد العزيز وأبيه. لكنه لم يرد أن يظهر بمظهر المتخوِّف من لقاء خصمه؛ بل قـرَّر أن يجابهه. ورأى من الأفضل له أن يهـاجمه في الجهـات التي ذهب إليهـا جنوب الـرياض بـدلاً من مهـاجمـة البلـــدة ذاتهـا. وانطلق من بَنْبـان صـــوب الخـرج، فمـرّ بالسَّلَميَّة، وتـرك فيها حامية صغيـرة، ثم واصل سيره حتى وصل إلى نَعْجـان واتخذهـا مـركـزاً له. وراح يشنّ غـارات على الـدِّلَم. ورغم تهديـداته حيناً وإغراءاتـه حيناً آخر فإن أهلها لم تخفهم التهـديدات ولم تجتذبهم الإغـراءات؛ بل صمدوا في وجهه. وبقي محاصـراً لها ومخرِّباً لمزارعها الخارجـة عن أسوارها المنيعـة. لكنه لم يتمكن من اقتحامها أو تحطيم معنوية سكانها [١].

وكانت إغـارات ابن رشيد على الدِّلَـــم خلال ساعـات النهار [٢]. وهذا مما أعطى الملك عبد العزيز فـرصة لرسم خطة متقنة تؤدِّي إلى مهاجمته فجأة.

فأقبل ذلك الملك بقـواتـه، التـي يبلغ عـددهـا ألفي مقـاتل ليس معهم إلا أربعـون من الخيل [٣]، ودخل تلك البلـدة ليلاً من بـوَّابتها الجنـوبية (انظـر الخريطـة رقم ٤). ولمـا استراح يـومين خرج منهـا

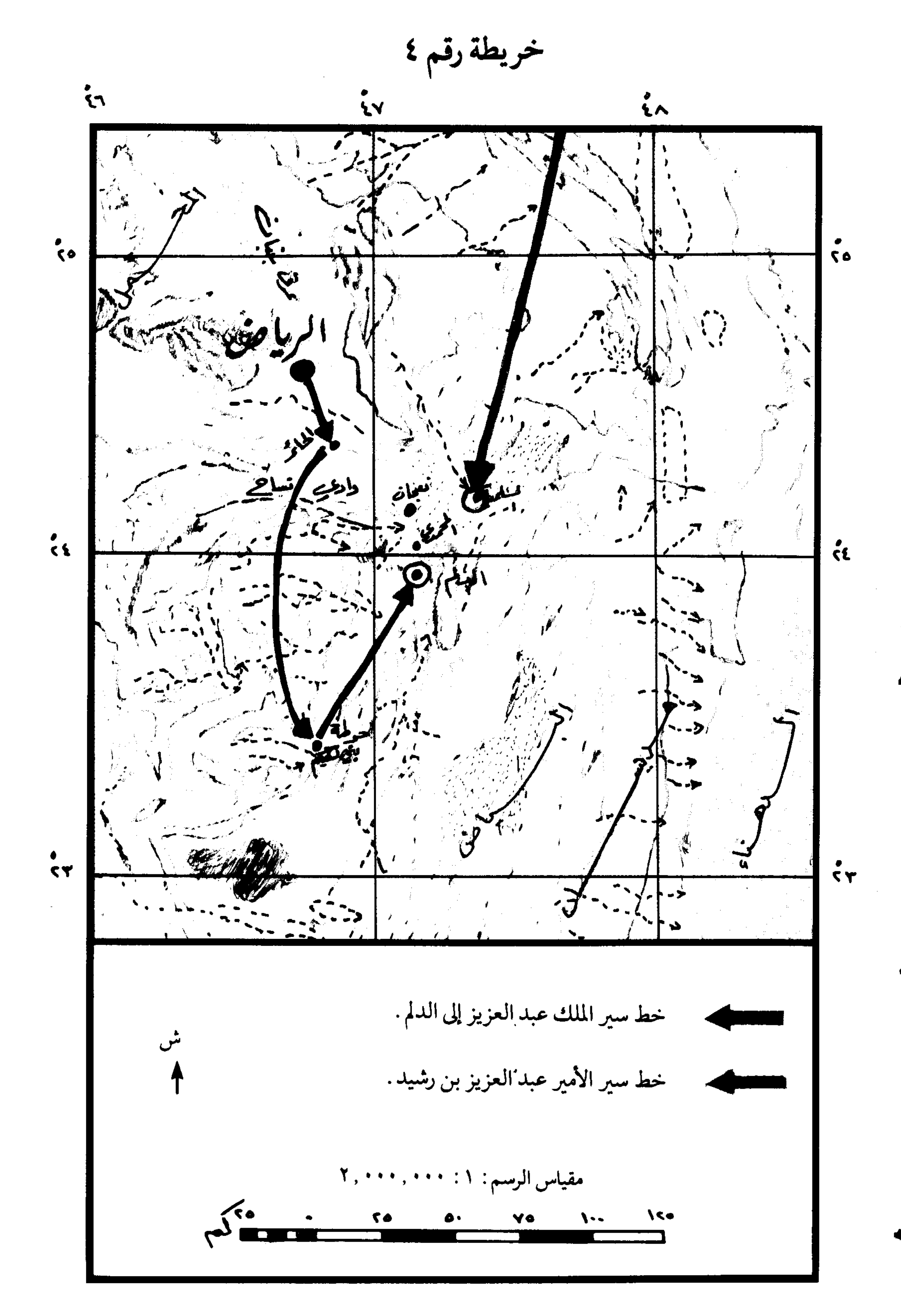
---

(١) ابن هذلول، مصدر سبق ذكره، ص ٦٤.

(٢) الريحاني، مصدر سبق ذكره، ص ١٣١.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٣٢.

خريطة رقم ٤



٤٦°
٤٧°
٤٨°
٢٥°
٢٤°
٢٣°
الرياض
الحائر
وادي نساح
نعجان
الخرج
الدلم
خط سير الملك عبد العزيز إلى الدلم .
خط سير الأمير عبد العزيز بن رشيد .
ش
مقياس الرسم : ١ : ٢,٠٠٠,٠٠٠
٢٥ كم
٠
٢٥
٥٠
٧٥
١٠٠
١٢٥

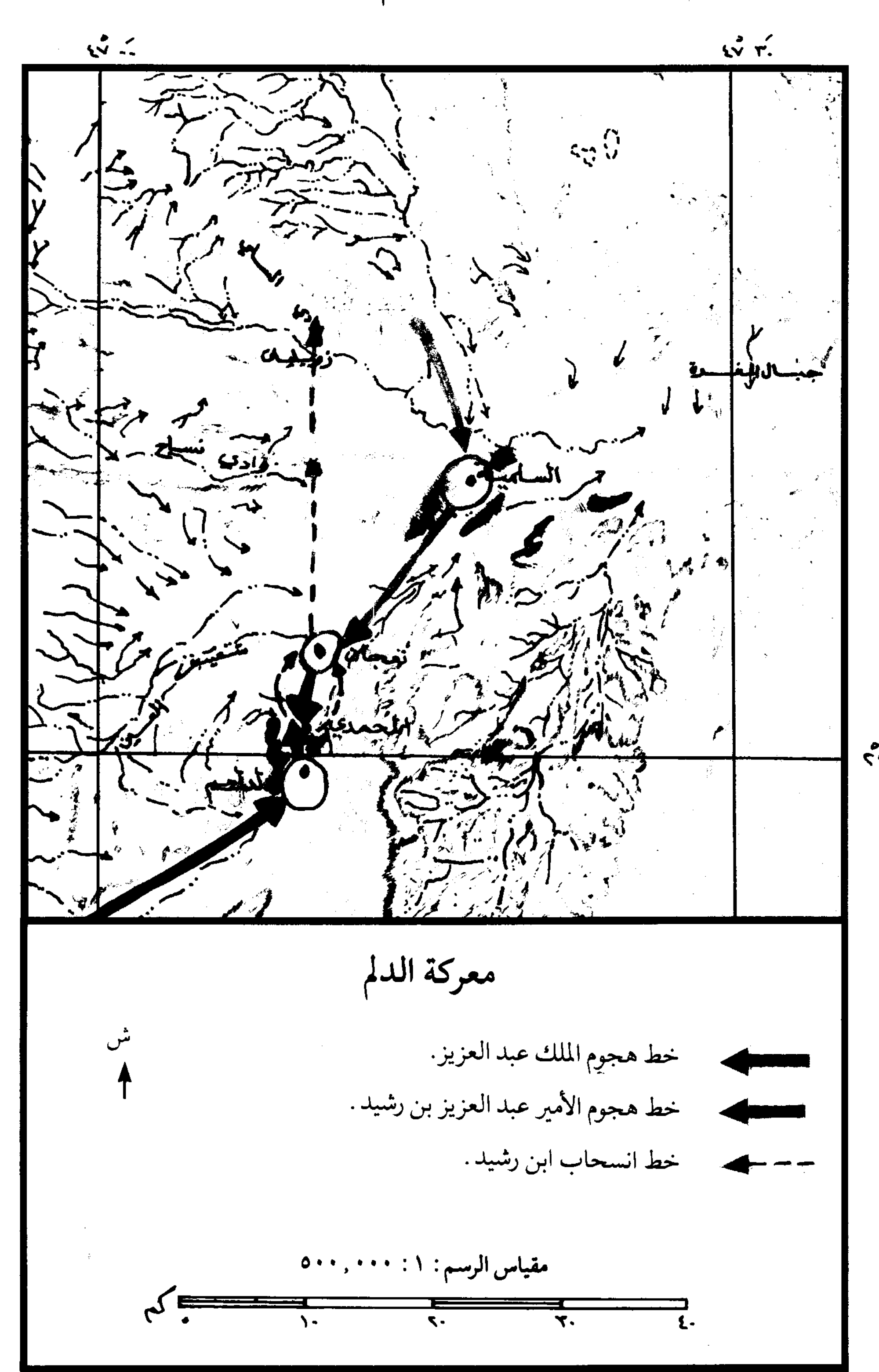
بأتبـاعه قبل الفجـر، وكمنوا لخصمهم بينهـا وبين بلدة نَعْجـان، التي كانت قوات ذلك الخصم تنطلق منها كل يـوم للإغارة بثقة واطمئنان.

ولما أقبلت هذه القوات المغيرة بهذا الاطمئنان وتلك الثقة، ووصلت إلى مكـان يقال لـه المحمَّدي، فـاجأها الملك عبـد العزيـز وأتباعـه بنيران بنادقهم، فارتدت على أعقابها. وأدرك قائدها أن خصمه شخصياً كان على رأس ذلك الكمين. وحاول مراراً أن يقتحم مواقع المدافعين، لكن قواته كـانت تواجه كل مرة بنيران كثيفـة من بنادقهم، فتتراجع، بل إن مفرزة من هـؤلاء المدافعين قامت بشنٍّ هجوم مضاد على فئـة من قوات ابن رشيد، وأنزلت بها بعض الخسائر. وكادت شمس ذلك اليوم تغيب وقـوات ذلك الأمير لم تحقـق أي نجـاح. وأدرك أن المعـركـة لن تنتهي لصالحه، فعاد إلى معسكره في نَعْجـان (انظر الخريطة رقم ٥)، وقرَّر أن يغادر الإقليم كله. وقبل أن يحلَّ فجر اليوم التالي انسحب من معسكره متجهـاً شمالاً بعـد أن ترك النيران مـوقـدة في ذلك المعسكـر تمويهاً على الخصم لتغطية ذلك الانسحاب[١]. وهكذا انتهت معركـة الدِّلَم التي كـانت المواجهة العسكـرية الأولى بين الملـك عبد العـزيز والأمير عبـد العزيـز بن رشيد. وكانت نصراً لـلأول على الثاني. فقد أثبت مقـدرته على الصمود؛ بل إنزال بعض الخسائر بخصمه.

---

(١) ذكر الزركلي (مصدر سبق ذكره، ج٢، ص ١٣٧) أن معـركة الدلم كانت في شهر ربيع الأول سنة ١٣٢٠هـ. ومن الواضح أن هذا غير صحيح؛ إذ تـوجه ابن رشيد بقواته من حـائل في ذلك الشهر. الـريحاني، مصدر سبق ذكـره، ص ١٢٨. لكنه لم يتحـرك من الحِسِـي إلا في الثاني من شعبان من تلك السنة. القاضي، مصدر سبق ذكره، ص ٩. ولعل المعركة وقعت في شعبان (١١/ ١٩٠٢م).

خريطة رقم ٥


٣٠َ ٤٧ْ
٠٠َ ٤٧ْ
٤٠ْ
جبال الخفوة
السلمية
نعجان
اليمامة
الدلم
زميقة
وادي نساح
معركة الدلم
خط هجوم الملك عبد العزيز.
خط هجوم الأمير عبد العزيز بن رشيد.
خط انسحاب ابن رشيد.
ش
مقياس الرسم: ١ : ٥٠٠,٠٠٠
٠
١٠
٢٠
٣٠
٤٠
كم

الدروس المستفادة:

يستفـاد من الإجراءات التي قــام بها الملك عبـد العزيـز والأميــر عبد العزيز بــن رشيد، والتي تـمَّت بين معركـة الرياض ونهايـة معركة الدِّلَم دروس من أهمِّها:

١ ـ أهميَّـة مبادرة القائد بإعداد العـدة لكل أمر محتمل الوقـوع. وقد تجلَّـى ذلك فـي مسارعة الملك عبـد العزيـز إلى إعادة بنـاء سور الرياض وتحصينها التحصين الـلازم فـور استتباب الأمـر له حـذراً من هـجــوم يـقــوم به خصمه الأميـر عبد العـزيز بن رشيـد، كما تجلَّـى في طلبه النجدة من الكويت لدعم موقفه الدفاعي.

٢ ـ أن تباطؤ القائد في حلِّ المشكـلات الطارئة قد يؤدِّي إلى كارثة. وقد اتضح ذلك في عـدم مسارعة الأميـر عبد العزيـز بن رشيد إلى مهاجمة خصمه الجديد، الملك عبد العـزيز، فور دخوله الرياض مما أعطى هـذا الخصم فرصـة إقامـة دفاعاتـه حولهـا واستقطاب أنصار خارجها حتى أصبح من الصعب الانتصار عليه.

٣ ـ أهميَّة تحديد القائد للهدف الذي يطمح إليه من دخول المعركة. وقد تمثَّل ذلـك في تخطيط الملك عبد العـزيز الناجـح لاستدراج خصمه، ومجـابهته مجـابهة أظهرت مقـدرته؛ تخطيطـاً وتنفيذاً، على الوصـول إلى هدفـه؛ المتمثِّل في أن يثبت للجميع أنـه قادر على الصمـود أمام ذلك الخصم. ولعلَّ هـذا هـو الذي جعلـه لا يتعقَّبه بعد أن علم بأنه قد انسحب من نَعْجان اكتفاء بتحقيق هدفه من المعركة.

٤ ـــ أن التفـوُّق في العـــدد والعـــدة ليس العنصـــر الأهم في كسب المعارك؛ بل الأهم سلامة التخطيط، وصحة استخدام ذلك العدد وتلك العدة.

٥ ـ أهميَّـة اختيار القائد لـلأرض التي يقابل فيها خصمـه بحيث تكون مناسبة له وغير مناسبة لذلك الخصم. ويتبيَّن هذا من اختيار الملك عبد العزيز جهات نجد الجنوبية ميـداناً لقتاله الأمير عبد العزيز بن رشيـد. فقـد كـانت تلك الجهـات مناسبـة لـه من حيث الموقع الجغـرافي. ذلك أنها بعيدة عن مـركز حكم خصمـه، وبالتـالي فإن خطـوط مـواصـلات هـذا الخصم ستطـول ممـا يكلِّفـه ويضعفـه. وسكـانها أنصـار لـه مناهضـون لخصمـه. وهـذا يعني استبسـالهم لتحقيق الهدف الذي كان يطمح إليه من وقفوا بجانبه.

٦ ـ أن أسلـوب الدفاع المتحـرِّك يمكِّن القائد من المرونـة في الحركة وفق الظروف المختلفـة. وقد تجلَّى ذلـك في استطاعة الملـك عبد العـزيز حشد الأتباع، والدخول بهم إلى الـدِلَم دون معرفة خصمه، والخروج من هـذه البلـدة إلى مكـان أتـاح لهم فـرصـــة مفـاجأتـه في الـوقت المناسب.

٧ ـ أهميَّـة التمويـــه على الخصم. وقد ظهر ذلك في إشـاعة وجـود خـلاف بين الملـك عبـد العـزيـــز وأبيـه دفعـه إلـى الخـروج من الرياض. وهذا مما جعل خصمه يتـوجه، في نهاية المطاف، إلى الأرض التي أراد هو أن يستدرجه إليها.

٨ ـ أهميَّة معرفة تحرُّكات الخصم لرسم الخطط للتغلُّب عليه بموجبها. وقد تبيَّنت تلك الأهمية في دراسة الملك عبد العزيز لحركات خصمه اليومية التي كان يقوم بها كل يوم ضد الدِّلَم. وهذا ما أتاح له فرصة التخطيط لوضع كمين فاجأه، وخلخل صفوف أتباعه.

٩ ـ أهميَّة مقدرة القائد في السيطرة على أفراد قوته بحيث يكونون منضبطين بأوامره؛ هجوماً، ودفاعاً، واستعمالاً للأسلحة.

١٠ ـ أهميَّة مفاجأة الخصم في حسم المعركة. وقد اتضح ذلك في مفاجأة الملك عبد العزيز بأتباعه لابن رشيد وقومه مما أربكهم واضطرهم إلى التقهقر.

١١ ـ أهميَّة التحكم السليم في استعمال السلاح في الوقت المناسب. وقد تجلَّى ذلك في محافظة الملك عبد العزيز على ما كان لديه من ذخيرة حتى حان الوقت الذي ينبغي أن تستخدم فيه؛ وهو مفاجأة خصمه ومن معه.

١٢ ـ أهميَّة صمود الخطوط الأمامية في الحدِّ من فاعلية اندفاع هجوم الخصم والتأثير على معنويات أفراد قوته. وقد ظهر ذلك في مقدرة سكان الدِّلَم على الصمود أمام غارات قوات ابن رشيد مما قلَّل من حدَّة اندفاعها وثبَّط نوعاً ما من معنويات أفرادها.

الفصل الرابع

معارك القصيم

سنة ١٣٢٢هـ/١٩٠٤م

للقصيم أهميَّة استراتيجية كبيرة في التاريخ السعودي. فهو إقليم مهم مساحة، وإمكانات زراعية، وكثافة سكان. وكان منطلق القوات السعودية لتوحيد شمالي الجزيرة العربية في عهد الدولة السعودية الأولى، والبوَّابة التي حاولت قوات حاكم مصر العثماني أن تعبرها لإنهاء تلك الدولة، كما كان الممرَّ لقوات ذلك الحاكم لمحاربة قادة الدولة السعودية الثانية. وكما أدرك أهمية ذلك الإقليم الإمام عبد الله بن سعود في الدولة السعودية الأولى فهبَّ إليه لئلا يقع في أيدى خصومه أدركها الإمام فيصل بن تركي في الدولة السعودية الثانية، ففعل كما فعل سلفه. وكانت سيطرة أولئك الخصوم عليه أكبر عامل في انفتاح الطريق أمامهم للقضاء على حكم الإمام عبد الله ابن سعود، وإنهاء الفترة الأولى من حكم الإمام فيصل. وكما كان دخوله في طاعة هذا الإمام ـ بعد عودته من مصر ـ عاملاً حاسماً في كسبه الجولة ضد عبد الله بن ثُنيَّان كانت هزيمة أهله أمام الأمير محمد بن رشيد في معركة المُلَيداء أكبر سبب في فقد الإمام عبدالرحمن بن فيصل الأمل في مقاومة ذلك الأمير. وستتضح تلك الأهمية في تاريخ الدولة السعودية الثالثة من خلال ما دار عليه من معارك وما واكب هذه المعارك من مواقف سياسية. وكانت معركتا البكيرية والشنانة هما المعركتين الكبيرتين اللتين تقابل فيهما الملك عبد العزيز مع الأمير عبد العزيز بن رشيد وجهاً لوجه، عام ١٣٢٢هـ. لكن سبقتهما أعمال عسكرية قام بها الملك وانتزع بها القصيم من خصمه. ولا بد من الحديث عن تلك الأعمال لما لها من أهميَّة كبيرة.

ظلت الدولة البريطانية ملتزمة بسياستها المهتمة بالأجزاء الساحلية من شرقي الجزيـرة العربية دون الأجزاء الداخليـة منها. ومن المرجح أن فشل الأمير عبدالعزيز بن رشيد أمام الملك عبد العزيز في الدِّلَم، وما ترتَّب على ذلك من توطد حكم هـذا الملك في الرياض وما يليها جنوبـاً وارتفاع مكانته، كـانا من الأمور السارة لهـا. ذلك أن نجـاحه تقوية ـ إلى حـدٍّ ما ـ لمركز حاكم الكويت الواقع تحت حمايتها ضد ابن رشيـد ذي العلاقـة الخاصـة مع منـافستها في المنطقـة: الدولـة العثمـانية. ومن المـرجح، أيضاً، أن ذلك الفشل قـد أقلق الزعمـاء العثمانيين؛ خاصة أن المنتصر من أسـرة لم تكن علاقاتهم السياسية معها طيبة في أغلـب الأوقات، وأن انتصاره تقوية لحـاكم الكويت، الذي رأته قد غدر بها بعقده معاهدة حماية مع بريطانيا.

أمـا ابن رشيد فـوصل إلى أطـراف بريـدة بعـد انسحابـه من إقليم الخرج، ثم توجه لغزو فئات من القبائل في شمالي الصُمَّان والدَّهناء قبل أن يعسكـر في حفر البـاطن مرة أخـرى[1]. ولعلَّـه أراد بهـذا أن يكون قريباً من السلطات العثمانيـة في العراق، وأن يراقب التحركات بين خصمه الجديـد في نجد وخصمه في الكويت؛ خاصـة أنه كان في هذه البـلاد الأخيرة كبار أسرتي الإمـارة في بريدة وعنيـزة وكثير من مؤيديهم.

---

(١) الذكير، نسخة البسام، ص ٢٥٣؛ ابن هذلول، مصدر سبق ذكره، ص ٦٤.

وكان لعودة ابن رشيد إلى حفر الباطن أثر في نفس حاكم الكويت دفعه إلى الاستنجاد بالملك عبد العزيز، فهبَّ الملك لنجدته. فلما توجهت قوات المستنجد والمُنجد للهجوم على خصمهما بلغها أن ذلك الخصم قد مضى إلى حائل، فقامت بمهاجمة إحدى الفئات القبلية. والواقع أن ذلك الخصم لم يمضِ إلى تلك البلدة، وإنما انطلق لمهاجمة الرياض؛ ظاناً أن وجود الملك عبدالعزيز بقواته بعيداً عنها سيمكِّنه من الاستيلاء عليها، لكنه لم يتمكَّن من ذلك. فاكتفى بإتلاف بعض النخيل الواقعة خارج أسوارها، وعاد أدراجه[1].

وكان ما حققه الملك عبد العزيز من نصر على الأمير عبد العزيز بن رشيد في الدِّلَم، ثم إخفاق هذا الأمير في محاولة الاستيلاء على الرياض، من الأمور التي شجعت مؤيدي الحكم السعودي في الأقاليم الواقعة شمال هذه البلدة وغربها على التحرُّك ضد الحكم الرشيدي، كما شجعت الملك عبد العزيز على بدء حركته لتوحيد تلك الأقاليم. والتقت رغبة كثير من أهلها مع براعة الملك في التخطيط والتنفيذ[2]، فتوحَّدت أقاليم المحمل والشعيب والوشم وسدير تحت رايته[3]، وانفتحت الطريق أمامه إلى القصيم.

---

(١) الريحاني، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٤؛ ابن هذلول، مصدر سبق ذكره، ص ٦٥.

(٢) بعث الملك عبد العزيز بعض السرايا إلى تلك الأقاليم، لكن هجومها، بصفة عامة، كان موجها ضد حاميات ابن رشيد.

(٣) دخلت كل بلدان الأقاليم الأربعة تحت حكمه إلا بلدة المجمعة، قاعدة سدير، التي بقيت خارجه حتى مقتل الأمير عبد العزيز بن رشيد عام ١٣٢٤هـ.

وفي تلك الفترة كان يوجد مئات من أهل القصيم خارج الجزيرة العربية تغرَّبوا عن أوطانهم عملاً في التجارة، أو كرهاً في العيش تحت الحكم الرشيدي. وكان أكابر أسرتي الإمارتين في بريدة وعنيزة، آل مُهنَّا وآل سُلَيْم، مقيمين في الكويت خوفاً من بطش آل رشيد. وكان هؤلاء وأنصارهم يتشوقون إلى العودة إلى بلدانهم. ولعل مما زاد اشتياق كثير من عامتهم إليها قصيدة العوني المسمَّاة «الخَلُوج»، التي استنهضهم بها ليقدموا إلى القصيم، وينتزعوها من آل رشيد[1]. وكان كبار أسرتي الإمارة قد شاركوا في الحملة التي انطلقت من الكويت إلى نجد عام ١٣١٨هـ، ودخلوا البلدتين المذكورتين، لكن لما علموا بنتيجة معركة الصريف عادوا مسرعين إلى الكويت.

الموقف الخاص:

كان ابن رشيد يرقب ما حدث في الأقاليم النجدية الواقعة شمال الرياض. وقد قام بإغارات على بعض الفئات القبلية إظهاراً لقوته، ثم توجه إلى شقراء محاولاً إعادتها إلى نفوذه، لكنه لم يفلح. فما

---

(١) هذه القصيدة منشورة في كثير من كتب الشعر النبطي؛ مثل **ديوان النبط**، نشر خالد الفرج، القاهرة، ج ٢، ص ص ٢٨٣ ـ ٢٨٧. والخَلُوج هي الناقة التي فقدت ولدها.

كان منه إلا أن تقهقر إلى بريدة [1]. ولقد أدرك حينذاك أن القصيم سيكون ميدان المجابهة الخطيرة بينه وبين الملك عبد العزيز، فراح يخطِّط للمحافظة عليه بكل الوسائل. ومن ذلك أنه حاول كسب رضا سكانه بإظهار المودَّة لهم، ومشاورتهم. وقرَّر أن يقوِّي السريَّة التي في بريدة بقيادة عبد الرحمن بن ضَبْعان، ويرسل سريَّة من خمسين رجلاً ــ بقيادة فهيد بن سبهان ـ إلى عنيزة، وأخرى قوامها أربع مئة رجل ـ بقيادة ماجد الحمود بن رشيد ــ لترابط قرب هذه البلدة، ويبعث سريَّة يقرب عدد أفرادها من السريَّة الأخيرة ـ بقيادة حسين بن جراد ـ لترابط في إقليم السِّر الواقع جنوب القصيم[2]. ولما اطمأن إلى ما قام به من إجراءات توجه إلى حدود العراق ليتزوَّد هو وأتباعه بما يحتاجون إليه من أطعمة، ويستنهض مَنْ هناك من قبيلة شمَّر، ويطلب المساعدة من العثمانيين[3].

أما الملك عبد العزيز فبعد أن وحَّد الأقاليم الواقعة بين العارض والقصيم أدرك ــ كما أدرك الأمير عبد العزيز بن رشيد ــ أن الأقليم الأخير سيكون ميدان المجابهة الكبيرة بينه وبين ذلك الأمير، فراح

---

(١) القاضي، مصدر سبق ذكره، ص ١٠؛ الذكير، نسخة البسام، ص ٢٥٧؛ ابن ناصر، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ٤٧.

(٢) القاضي، مصدر سبق ذكره، ص ١١؛ الريحاني، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٧؛ البسام، مصدر سبق ذكره، ورقة ١٧١أ. وتختلف المصادر في أعداد أفراد السرايا.

(٣) القاضي، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٧، الريحاني، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٧.

يخطِّط لانتزاعه منه. وكان من الوسـائل التي رآها مهمة لتحقيق هدفه أن أرسل إلى زعمـاء آل مهنَّـا وآل سُلَيْم المـوجـودين فـي الكـويت يدعوهم إلى التوجه إليه كي يتعـاونوا ضد الخصم المشترك. فتوجهوا إليـه مسرعين مع من انضم إليهم مـن أنصارهم، والتقـوا به وهـو في طريقـه إلى القصيم، ووصل الجميع إلى الزُّلْفي في أول رمضـان سنة ١٣٢١هـ[١]. وكـانت السنـة سنـة جـدب، بحيث لم يكن معـه إلا أعداد قليلة من الإبـل والخيـل. وربما كـان ذلك سبباً في أن الملك عبد العـزيز رأى عـدم مواصلـة السير والعـودة إلى الـرياض[٢]. أما زعماء القصيم فذهبوا إلى شقراء[٣] (انظر الخريطة رقم ٦).

---

(١) القاضي، مصدر سبق ذكره، ص ١١.

(٢) الـريحـاني، مصـدر سبق ذكـره، ص ١٣٧؛ ابـن هـذلـول، مصـدر سبق ذكـره، ص ٦٧.

(٣) القاضي، مصدر سبق ذكره، ص ١١.

خريطة رقم (٦)

ش

قصيباء

بريدة

البصر

الشيحية

البكيرية

الخبراء

عنيزة

قصر ابن عقيل

الرس

الشنانة

المذنب

فيضة السر

مواضع البلدان المذكورة

في معارك القصيم سنة ١٣٢٢هـ. .

مقياس الرسم: ١ : ٢,٠٠٠,٠٠٠

٢٠ ٤٠ ٦٠ ٨٠ ١٠٠كم

معركة فيضة السرّ:

كانت مغادرة ابن رشيد إقليم القصيم إلى حدود العراق من الأمور التي زادت من حماسة الملك عبد العزيز وأتباعه من آل مهنّا وآل سُلَيْم ليتوجهوا إلى ذلك الإقليم. فلما تجاوزوا الوشم علموا بوصول حسين بن جراد ومن معه إلى فيضة السِّر. فخطط الملك عبد العزيز تخطيطاً بارعاً لمفاجأته بهجوم كاسح. وفي منتصف ليلة الثامن والعشرين من ذي القعدة، عام ١٣٢١هـ (١٤/ ٢/ ١٩٠٤م)، باغته بذلك الهجوم. فقُتِل ابن جراد وكثير من أفراد سريَّتِه[١].

ويبدو أن الملك عبد العزيز قد رأى أن تلك المعركة قد أصبحت نذيراً لقوات ابن رشيد في القصيم مما سيفقده عنصر المفاجأة. ولذلك عاد إلى الرياض، وعاد آل مهنَّا وآل سُلَيْم إلى شقراء[٢]. ولعلَّ مما يدل على صحة رأيه انتقال ماجد الحمود بن رشيد إلى مكان قريب من سور عنيزة لما علم بتلك المعركة[٣]؛ محاولة منه في تقليل خطر هجوم مفاجئ عليه، ورغبة في دعم السريَّة الموجودة داخل تلك البلدة إن أحاط بها خطر.

---

(١) مصدر نفسه، ص ١٢؛ الذكير، نسخة البسام، ص ٢٦٢.
(٢) القاضي، مصدر سبق ذكره، ص ١٢.
(٣) المصدر نفسه، الصفحة ذاتها.

معركة عنيزة:

في العشر الأواخر من ذي الحجة، عام ١٣٢١هـ، خرج الملك عبد العزيز من الرياض ومعه أتباعه من مختلف الأقاليم النجدية، وانضم إليه آل مُهنَّا وآل سُلَيْم. وقد أظهر أنه متَّجه إلى أطراف الكويت؛ وذلك للتمويه على خصومه. ثم غيَّر اتجاهه مسرعاً نحو القصيم. وفي ليلة الخامس من المحرَّم من العام التالي (٢١/ ٣/ ١٩٠٤م) وصل بقواته إلى قرب الأسوار الجنوبية من عنيزة. فأمر آل سُلَيْم وآل مهنَّا أن يدخلوها. ففعلوا ذلك دون صعوبة، ثم كمنوا لقائد السرية فيها، فهيد بن سبهان، وقتلوه، وحاصروا أفراد السريَّة في قصر الإمارة. وفي صباح اليوم التالي أرسل إليهم الملك عبد العزيز مئة رجل، بقيادة عبد الله بن جلوي. وكانت نتيجة الحصار أن هرب عدد ممن كانوا في القصر واستسلم الباقون بأمان[1].

أما ماجد الحمود بن رشيد فقد أدرك أن أهل عنيزة كانوا، بصفة عامة، متضامنين مع الملك عبد العزيز وأمرائهم السابقين، فأمر أتباعه بالرحيل. وما إن بدأوا بالتحرك حتى فاجأهم الملك وأتباعه بهجوم نتج عنه قتل حوالى خمسين رجلاً بينهم عبيد الحمود بن رشيد، وهرب الباقون إلى بريدة وحائل[2]. وبذلك عادت إمارة عنيزة إلى آل سُلَيْم تحت حكم ذلك الملك.

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٣؛ الذكير، نسخة البسام، ص ٢٦٥.
(٢) القاضي، مصدر سبق ذكره، ص ١٣؛ البسام، مصدر سبق ذكره، ورقة ١٧٢ب.

بعد يومين من دخول الملك عبد العزيـز عنيزة قدم إليه وفد من كبار أهل بـريدة يخبرونـه بوقـوفهم معـه. فسيَّر آل مهنَّا إليهـا، واستقبلهم أهلها بحماسة [1]. ثم توجه إليهـا هو بقواته، فبـايعوه، وأخذ يحاصر عبـد الرحمن بن ضبعـان ورجـال حـاميته في قصر إمـارتها. ودام ذلك الحصار حوالى شهرين ونصف الشهر. ولما نفد ما لدى المحاصرين من أطعمة اضطر قائدهم إلى التفاوض مع الملك عبـدالعزيز، وتوصل معه إلى اتفاق يسلَّم بموجبه القصر إلى الملك، ويخرج المحاصرون من بريدة بأسلحتهم الشخصيـة آمنين على أنفسهم، وتُؤَمَّن لهم ركـائب تنقلهم إلى بلادهم [2]. ومع أن ذلك الاتفاق يبـدو، في بعض جوانبـه، كسباً لقـائد الحامية، التي كـانت مهددة بـالموت جوعـاً، فإنه كـان نجاحـاً واضحاً للملك عبد العـزيز. فقد كان حريصـاً على سرعة خروج تلك الحامية لئلا يصل ابـن رشيد إلى بريدة وهي ما تـزال داخلها، فينشغل بملاقاته عنها. وهكذا عادت إمارة تلك البلدة إلى آل مهنَّا تحت حكم الملك عبـد العزيـز. وبـدخولها تحت هـذا الحكم؛ إضـافة إلى دخـول عنيزة، أصبح إقليم القصيم واقعياً تحت رايته. على أن ذلك لم يتمَّ عبر مجابهة مباشرة مع خصمه؛ بل مجابهة مـع سريَّة ذلك الخصم في عنيزة، وحصاراً لحاميته في بريدة.

---

(١) القاضي، مصدر سبق ذكره، ص ١٣.

(٢) البسـام، مصـدر سبق ذكـره، ورقـة ١٧٣أ. وكـان ذلك حـوالي ١٥/ ٣/ ١٣٢٢هـ (٢٠/ ٥/ ١٩٠٤م).

١ ـ أهميَّة حسن التخطيط في تحقيق الأهداف المرجوَّة. ويتضح ذلك من عدم محاولة الملك عبد العزيز توحيد الأقاليم الواقعة شمال الرياض وغربها إلا بعد أن نجح في توطيد حكمه في الأقاليم الواقعة جنوبها.

٢ ـ أن توجُّه القائد إلى أرض يكنُّ سكانها، أو أغلبهم، ولاء له عامل مهم في تحقيق هدفه. ويظهر ذلك من نجاح الملك عبد العزيز السريع وغير المكلِّف في الأقاليم النجدية الواقعة بين العارض والقصيم، واقتصار جهوده العسكرية، بصفة عامة، على مقاتلة حاميات خصمه ابن رشيد.

٣ ـ أهميَّة استفادة القائد من جميع الملابسات والظروف. ويظهر ذلك من دعوة الملك عبد العزيز لآل مهنًّا وآل سُلَيْم ليتعاونوا معه في تخليص القصيم من خصمهم المشترك.

٤ ـ أهميَّة تقدير القائد للمواقف المحيطة به قبل إقدامه على الحركة. ويتبيَّن ذلك من عدم مواصلة الملك عبد العزيز سيره نحو القصيم في رمضان، عام ١٣٢١هـ، بسبب قلَّة الإبل والخيل معه، ثم عدم مواصلة سيره نحو ذلك الإقليم بعد معركة فيضة السِّر؛ لأنه ظن أنها قد أصبحت نذيراً لقوات خصمه مما سيفقده عنصر المفاجأة.

٥ ـ أن مباغتة الخصم بالهجوم سبب من أسباب الانتصار عليه، كما حدث في هجوم الملك عبد العزيز بأتباعه على حسين بن جراد وسريَّته، الذي أدَّى إلى القضاء على قائد السريَّة وأكثر أفرادها.

٦ ـ أن عدم ولاء السكـان عامل أكبر في الفشل. ويتبيَّن ذلك من عدم جـدوى مـا قـام بـه ابن رشيـد من وضع سرايـا في القصيم أمـلاً في المحـافظة على بلـدانه. ذلك أن سكـان هذا الإقليم كـانوا، بصفـة عامة، غير مـوالين له. ولهذا رحَّبوا بالملك عبد العزيـز والمؤيدين له من أمـرائهم المحلِّيين السـابقين، واقتصرت الأعمال العسكريـة لهذا الملك ومؤيديه على مهاجمة حـاميات ابن رشيد، التي كان عدم ولاء السكان أكبر عامل في القضاء على قوتها.

٧ ـ أن من الفائدة عدم إقدام القائد على اقتحام قد ينتج عنه خسائر في صفـوف أفـراد قـوتـه مـا دام مطمئنـاً إلى تحقيق الهدف بغير ذلك الاقتحـام في نهايـة الأمـر. ويظهـر ذلك من عـدم قيـام الملك عبد العزيز باقتحام قصر بريدة وبقائه محاصراً له أكثر من شهرين؛ لأنه كان مدركاً بأن من فيه سيضطرون آخر الأمر إلى الاستسلام.

٨ ـ أهميَّـة المرونة في قبـول شروط الخصم إذا كان قبـولها يحقق نجـاحاً واضحـا. ويتبين ذلك من قبـول الملـك عبـد العـزيـز شروط رئيس حامية ابن رشيـد في بريدة؛ لأنه سينتج عن القبـول بها مغادرة تلك الحامية من البلدة.

معركة البكيرية:

لم تشأ الدولة العثمانية أن تساعد ابن رشيد عسكرياً في بداية نشاط الملك عبدالعزيز لتوحيد البلاد. لكن نجاح هذا الملك في توحيد إقليم القصيم مع الأقاليم التي سبق أن وحّدها أشعرها بخطره. وكان هذا من أكبر عوامل موافقتها على إمداد ابن رشيد بمعونة عسكرية ومالية. ولقد علم هذا الأخير، وهو قرب السماوة، بما حدث في القصيم، فغضب على أهله، وأجبر تجار الإبل الموجودين منهم في حدود العراق على أن يحملوا على إبلهم إلى القصيم قسماً كبيراً من تلك المعونة العثمانية؛ رجالاً، وأسلحة، ومؤناً، وأطعمة[1].

وانطلق ابن رشيد من حدود العراق نحو القصيم ومعه القوة العثمانية النظامية، ومئات من حاضرة قومه، وفئات كبيرة من البادية أغلبها من شمَّر. ولما وصل إلى هذا الإقليم انضم إليه ماجد الحمود بن رشيد ومن خرج معه من حاضرة جبل شمَّر. ثم وصل إلى قُصَيْباء[2]، حيث قدم إليهم ابن ضبعان ورجاله[3]، حتى أصبح جيشه آلافاً. وتوجه بالجميع من هناك حتى وصل في نهاية الأمر إلى الشِّيحية المجاورة للبُكَيْرية.

---

(١) تختلف المصادر في تقدير الجنود النظاميين الذين أمدَّت الدولة العثمانية بهم ابن رشيد. لكن أكثرها تفيد بأنهم كانوا بين ألفين وألفين وخمس مئة. أما المدافع فأكثر المصادر تفيد أنها ستة، لكن منها ما ذكر أنها ثمانية، أو أحد عشر، أو أربعة عشر.

(٢) تقع قُصَيباء شمال غربي بريدة بحوالى ٧٤ كيلا. وكانت تكثر فيها المستنقعات.

(٣) القاضي، مصدر سبق ذكره، ص ١٤. وقد ذكر أن ابن ضبعان توفي بعد وصوله إلى تلك البلدة بقليل. وكان قد انتشر مرض الملاريا بين الجنود النظاميين بصفة خاصة.

أما الملك عبد العزيز فكان يتابع حركات ابن رشيد بدقة. ولإدراكه حجم قوات هذا الخصم أرسل إلى جميع أتباعه من الحاضرة والبادية يطلب منهم موافاته بزيادة مقاتلين حتى اجتمع لديه عدة آلاف[1].

سير المعركة:

لما اجتمع لدى الملك عبد العزيز أتباعه من الحاضرة والبادية خرج من بريدة، ونزل بهم البُصْر. ثم ارتحل إلى البكيرية محاولاً أن يمنع خصمه الأمير عبدالعزيز بن رشيد، الذي كان على مقربة منها، من دخولها. وكان هذا الخصم على علم بتحركه خطوة خطوة. وما إن وصل إلى البلدة، في منتصف نهار آخر يوم من شهر ربيع الآخر، عام ١٣٢٢هـ(١٢/ ٧/ ١٩٠٤م) حتى رأى ابن رشيد مستعداً لقتاله. وتختلف المصادر في حديثها عن ذلك القتال. لكن أرجحها، فيما يبدو، أن الملك عبد العزيز قسم أتباعه إلى قسمين: قسم يشتمل على محاربي الأقاليم النجدية الواقعة جنوب القصيم، وقسم يتكوَّن من أهل القصيم. ومع هؤلاء وأولئك فئات من البادية. وقد بدأ القتال بين الطرفين بعد ظهر ذلك اليوم. ومن الواضح أن ابن رشيد ركَّز هجومه ونيران مدافعه على القسم الأول الذي كان فيه الملك

---

(١) قدَّرهم القاضي (مصدر سبق ذكره، ص ١٤) بعشرة آلاف، وأعرب عن كثرة جيش ابن رشيد بقوله: «ما اتفق كثرهم مع حاكم» دون تحديد العدد. على أن إبراهيم بن عبيد آل عبد المحسن يقول: إن عدد جيشه كان ثمانية عشر ألف مقاتل: منهم حوالى تسعة آلاف جنود نظاميون. انظر كتابه **تذكرة أولي النهى والعرفان بأيام الله الواحد الديَّان وذكر حوادث الزمان**، الرياض، دون ذكر لسنة الطباعة، ج٢، ص ٢٢. والمبالغة واضحة في قوله؛ خاصة بالنسبة للجنود النظاميين.

عبد العزيز نفسه، لأنه اعتقد بأن نجاحه في هزيمة هذا القسم سيكون حاسماً في انتصاره في المعركة. وما إن حلَّ وقت صلاة العصر حتى أُنهِك من كانوا مع الملك؛ خاصة من نيران المدافع التي أصابت شظية منها يده اليسرى، فبدأوا ينهزمون. واقتفى أثرهم قوم ابن رشيد. لكن أهل القصيم تمكنوا من إحراز تقدم كبير ضد من كانوا أمامهم من جيش ابن رشيد، وهزموهم. وكان أحد التلال قد حال بينهم وبين ما كان يحدث للملك عبد العزيز ومن معه خلال المعركة، فلم يعلموا بانهزام هؤلاء. وفي تعقُّبهم للمنهزمين ممن كانوا أمامهم من الجيش الرشيدي وصلوا إلى أولئك الذين كانوا في ساقة المنهزمين من أتباع الملك عبد العزيز. ويبدو أن المتعقِّبين لهؤلاء الأتباع قد ظنوا أن الملك لم ينهزم في واقع الأمر؛ بل عمل التفافاً حولهم، فانهزموا، أيضاً، أمام أهل القصيم، الذين ظلُّوا في إثرهم حتى حلول الليل[1]. (انظر الخريطة رقم ٧).

وهكذا كانت نتيجة معركة البكيرية غريبة؛ إذ انهزم فيها قسم من أتباع الملك عبد العزيز بقيادته، وانتصر قسم آخر من أولئك الأتباع، ورجحت كفة جيش ابن رشيد في بداية المعركة بدرجة كبيرة، لكنه انهزم في نهايتها.

---

(١) القاضي، مصدر سبق ذكره، ص ١٥.

معركة البكيرية

خـريطـة رقم (٧)

خط سير الملك عبد العزيز إلى معركة البكيرية .

خط انهزامه مع نفر قليل بعد المعركة .

خط سير الأمير عبد العزيز بن رشيد إلى المعركة .

خط انهزام ابن رشيد بعد المعركة .

مقياس الرسم : ١ : ٥٠٠,٠٠٠

٠ ١٠ ٢٠ ٣٠

قصيباء
وادي الكوارع
الشيحية
البكيرية
بريدة
المليداء
البصر
نفود الغميس
وادي الرمة
عنيزة
الخبراء
رياض الخبراء

٤٣,٣٠ ٤٤,٠٠ ٢٦,٣٠ ش

وكانت خسائر الطرفين كبيرة جداً مقارنة بأية معركة دارت بينهما، أو بين أتباعهما، سابقاً ولاحقا. فقد قُتِل من أتباع الملك عبد العزيز حوالى تسع مئة رجل أكثرهم من أقاليم نجد الواقعة جنوب القصيم؛ خاصة إقليم العارض[1]، لتركيز هجوم الفرسان ونيران المدافع عليهم. وقُتِل من جيش ابن رشيد حوالى ألف وثلاث مئة أغلبهم من الجنود النظاميين[2]. وذلك لأن فرسانه من الحاضرة والبادية تمكنوا من الهروب أمام نيران بنادق أهل القصيم أسرع من أولئك الجنود.

وعاد أهل القصيم من تتبُّعهم المنهزمين من جيش ابن رشيد إلى البكيرية ومعهم بعض الأسرى من الجنود النظاميين، وكثير من الغنائم؛ إضافة إلى عدد من المدافع[3]. لكنهم أدركوا أن خصمهم لو علم أنهم وحدهم هناك لانقضَّ عليهم. فرجعوا إلى بلدانهم بما استطاعوا حمله من الغنائم تاركين الأسرى والمدافع[4].

وكان الملك عبد العزيز قد اتجه جنوباً بعد انهزامه من المعركة ومعه عدد قليل جداً من فرسانه حتى تجاوز بلدة المذْنَب. أما بقية المنهزمين من أتباعه فاتجه أغلبهم، أيضاً، جنوباً، ووصلت أعداد

---

(١) الريحاني، مصدر سبق ذكره، ص ١٤١.

(٢) المصدر نفسه، الصفحة ذاتها.

(٣) القاضي، مصدر سبق ذكره، ص ١٥.

(٤) محمد العلي العبيِّد، **النجم اللامع للنوادر جامع**، مخطوط لدى أقارب المؤلف، ص ١٤١.

منهم إلى عنيزة. لكن مندوباً من أمير غزو هذه البلدة وصل بعدهم بقليل يفيد بانتصار أهل القصيم على ابن رشيد، فبعث أميرها رسالة مع مجاهد الحبردي إلى الملك عبد العزيز يخبره بما تمَّ من نصر، ويدعوه إليها لتكون مركز التجهيز من جديد. لكن الملك، فيما يظهر، لم يطمئن إلى صدق ما أخبر به. ولذلك لم يقدم إلى تلك البلدة إلا بعد أن وصل إليه عبد العزيز بن جلوي وشلهوب، اللذان كانا قد وصلا مع المنتصرين إليها في فجر اليوم التالي لحدوث المعركة، وأفاداه بصدق ما قيل له[1]. ولما قدم إليها بعث سريَّة إلى البكيرية محاولاً أن يحول دون وقوعها في يد ابن رشيد، لكنها اكتشفت أنها قد وقعت، فرجعت السريَّة إلى عنيزة. وبعد ذلك استنفر الملك عبد العزيز أتباعه من الحاضرة والبادية، فلبَّوا نداءه. وانطلق بهم إلى البكيرية. ولما اقترب منها علم به خصمه، فبعث فرقة من خيَّالته للدفاع عنها، واشتبكوا مع أتباع الملك عبد العزيز، فانهزموا[2].

وكان ابن رشيد ـ بعد انهزامه في المعركة ـ قد وصل إلى الشِّيحية حيث تتابعت في الوصول إليه فلول جيشه. وفي صباح اليوم التالي علم بأن أهل القصيم قد تركوا الأسرى والمدافع في البكيرية، وغادروها، فعاد إليها مسرعاً، وأخذ ما تركوا. ثم توجه إلى الخَبْراء، وطلب من أهلها الدخول في طاعته، فأبوا. وراح يقطع نخيلها، ويقذفها بنيران المدافع، لكنها صمدت أياما. وكان لصمودها أثر

---

(١) القاضي، مصدر سبق ذكره، ص ص ١٥ ـ ١٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٧.

في نفوس قادة القوات النظامية وأفرادهـا ، الذين أدركوا عدم صدق ما قاله لهم عن سهولة الاستيلاء على بلدان القصيم . فانصرف عنها إلى الشِّنانة [١] .

معركة الشنانة

لما وصل الأمير عبـد العزيز بن رشيد إلى الشنانة اتخـذها معسكراً له . أمـا الملك عبد العـزيز فاتخـذ الرس مـركزا . وبقي الطـرفان في موقعيهما حوالى شهرين . وكان يحدث بينهما كل يوم تقريباً قليل من تبادلٍ لإطلاق النار بالبنـادق ، وطراد الخيل ، والإغارة على ما بَعُد من إبل وغنم[٢] . وبمـرور الوقت دبَّ الملل في نفـوس أتباع الطـرفين ؛ خاصـة فئات الباديـة التي تميل ، عادة ، إلى حسم الموقف بسـرعة . ولذلك بعث الملك عبد العـزيز فهداً الرشودي ـ أحـد وجهاء بريدة ـ إلى ابن رشيد يعرض عليه الهدنة . لكن الأخير سخر بالعرض ، وهدَّد بأن يبطش بأهل القصيم خاصة . وكانت سخريته وتهديده مما زاد في حماسة أتبـاع خصمه ضده . بل إن تشدده دفع زعمـاء القبائل الذين معه إلى أن يقـولوا له : إن إبلنـا وخيلنا وغنمنـا تنقص يومياً ، وأقـواتنا شحيحة بحيث اضطـر الجنود العثمانيون إلى أكل جُـمَّـار النخيل ، وجلب المؤن من العـراق معرَّض للخطر. أما ابن سعـود فيعتمد على نتاج بلدانه التي هـو فيها . فلا بد من مناجزتـه أو الرحيل (النكوفة) .

---

(١) المصدر نفسه ، ص ص ١٦ ـ ١٧ ؛ البسام ، مصدر سبق ذكره ، ورقة ١٧٤أ .

(٢) يقال عن هـذا الوضع من المـواجهة محلِّياً : منـاخ . ولذلك تـردد القصص المحلِّية أنباءه بمناخ الشنانة .

فاختار الرحيل[1]. وشدَّت باديتـه قبله. ولما بدأ هو وحـاضرة جيشه والقـوات النظاميـة بالتحـرك فـاجأهم الملك عبـد العزيـز وأتبـاعـه بالهجـوم. وتقـاتل الطرفان وجـه النهـار. ثم عـاد الملك عبد العزيز إلى الرس.

وفي اليوم التالي توجه ابن رشيـد إلى قصر ابن عُقيِّل، وراح يضربه بالمدافع. ولما علم الملك عبد العزيز بذلك هبَّ بأتباعه إلى هناك، ودخلـوا القصر ليـلا. واتضح لابن رشيـد أنـه لن يستطيع احتلالـه، فأخذ يشدُّ رحاله عنه. وتركه الملك حتى أكمل تحميل معدَّاته ومؤنه وبدأ يتحـرك من مكانـه، ثم هجم عليـه. ولما حدث ذلـك الهجوم انهزمت قوات ابن رشيد النظامية، ثم لحق بها في الهزيمة باقي جيشه مخلِّفين وراءهم مـدافع وكثيـراً من الأسلحة وصنـاديق الـذهب[2]. (انظر الخريطة رقم ٨).

وهكـذا انتهت المعركـة التي اشتهـرت لـدى بعض الكتاب بـاسم معركة الشنانة، وإن لم تـدر رحاها على أرض تلك البلدة؛ وذلك في الثامن عشر من رجب سنة ١٣٢٢هـ (٢٧/ ١٠/ ١٩٠٤م)[3].

---

(١) القاضي، مصدر سبق ذكره، ص ١٧.

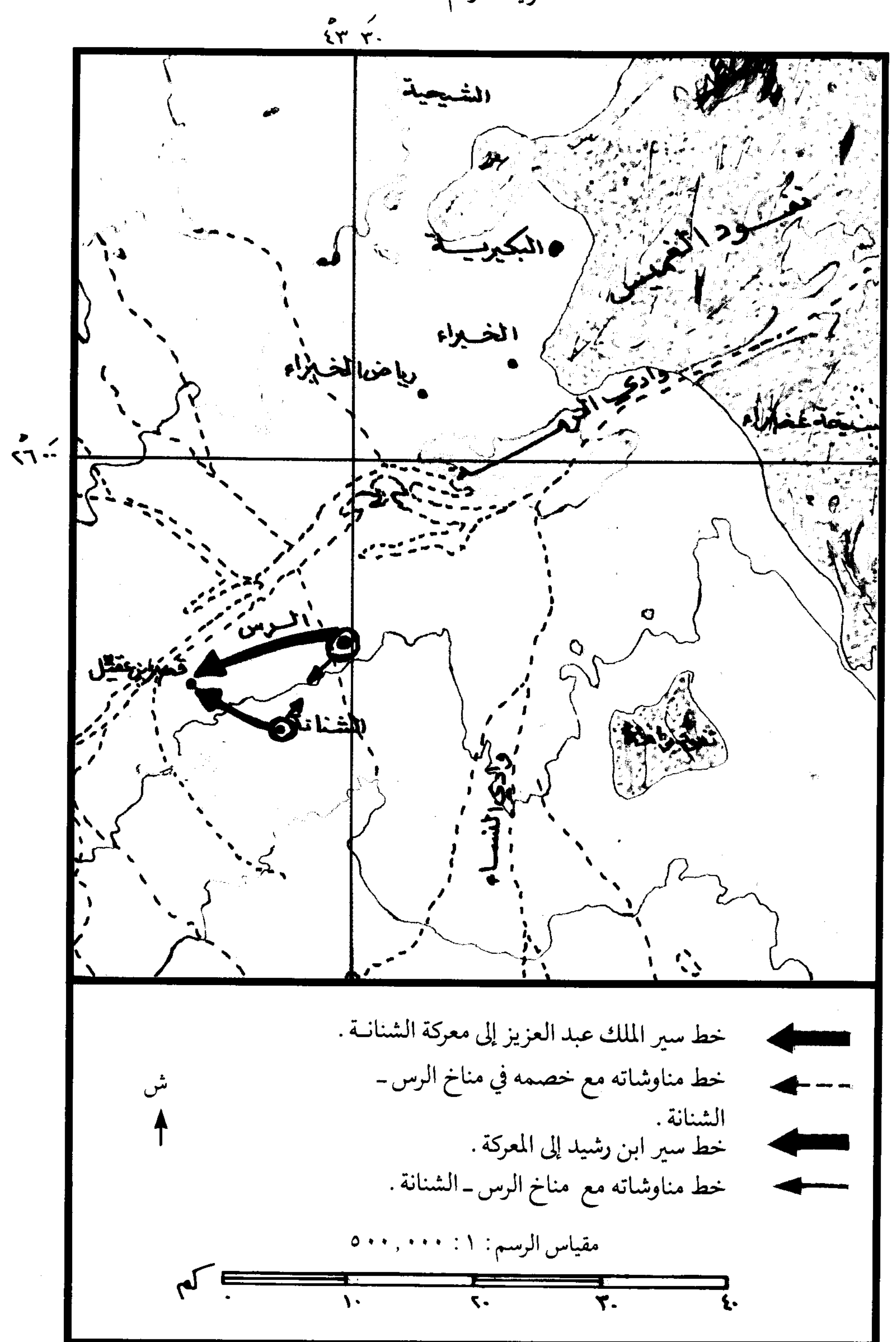
(٢) المصدر نفسه، الصفحة ذاتها.

(٣) ذكر حـدوثها في التـاريخ المشار إليـه القاضي، المصـدر نفسه، الصفحـة ذاتها؛ البسـام، مصدر سبق ذكـره، ورقه ١٧١أ؛ الـزركلي، مصدر سبق ذكـره، ج ١، ص ١٦٤؛ ابن ناصر، مصدر سبق ذكره، ص ٥٣.

وقد أخطأ في تاريخ تلك المعركة كـلٌّ من ابن هذلول وآل عبد المحسن. فجعلها الأول (مصـدر سبق ذكـره، ص ٧٣) في ٢٨ رجب. وجعلهـا الثـاني (مصـدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٣٠) في ١٨ شعبان.

معـركـة الشنانـة

خـريطـة رقم (٨)



ومع أن كثيراً من المراجع وصفت تلك المعركـة بأنها كانت ضارية فإنها لم تشـر إلى أعداد القتلى فيهـا. وذلك يؤيِّـد، إلى حدٍّ مـا، ما يفهم من كـلام القـاضي عنهـا أنهـا كـانـت أقـرب مـا يكـون إلى الانسحاب[1]. على أن أهميتهـا تنبع من نتـائجهـا التي كـان من أعظمهـا: حصـول الملك عبد العـزيـز وأتبـاعه على غنـائم كثيـرة، وتفكك جبهـة خصمه؛ إذ حـدث خـلاف بعدهـا بين ذلك الخصم وقادة القوات العثمانية، ولم تدخل إلى جانبه أية معركة بعدها.

الدروس المستفادة:

يستفاد من معركتي البكيرية والشنانة دروس متعددة أبرزها:

١ ـ أهميَّـة مبادرة القائد في حشد قـواته لمجابهـة الخطر المحتمل. وذلك يتضح في مسارعـة الملك عبد العـزيز إلى طلبه من أتبـاعه مـزيداً من المقـاتلين عنـدما علم بـاقتـراب ابن رشيد بجيشـه من القصيم.

٢ ـ أهميَّة المسـارعـة إلى السيطـرة على المـواقـع المهمَّـة قبل أن يحتلَّهـا الخصم، كمـا فعل الملك عبـد العـزيـز في ذهـابـه إلى البكيرية ليحول دون وقوعها في يد خصمه.

---

(١) مما يؤيد ما ذكـره القاضي قول لوريمر (**دليل الخليج**، ترجمة مكتـب أمير قطر، دون ذكر لسنـة الطباعة، ج ٣، ص ١٧٠٥): «انهزمت القـوات التركية، وفـرَّ ابن رشيد مختفيا».

وقد ذكـر البسام (مصـدر سبق ذكره، ورقـة ١٧٤أ) أنه «قُتل من جيش ابـن رشيد حوالى اثني عشر رجلاً... ومن أتبـاع ابن سعود نحو خمسة رجال». ولعـلَّ ما ذكره أقلُّ من العدد الحقيقي. لكنه ـ على أية حال ـ يرجح أن عدد القتلى لم يكن كبيرا.

٣ ـ أهميَّة تركيز الهجوم، أحياناً، على فرقة من جيش الخصم يُؤمَّل أن تؤدِّي هزيمتها إلى هزيمة الجيش كله، كما فعل ابن رشيد في تركيزه على القسم الذي كان فيه الملك عبدالعزيز وهو المكوَّن من أهل العارض ومن حولهم، مما أدَّى إلى هزيمتهم، وإن فشل في نهاية المطاف بسبب عامل آخر.

٤ ـ أن قوة العُدد وكثرة العَدد ليستا حاسمتين، أحياناً، في كسب المعارك. فجيش ابن رشيد أقوى عدة وأكثر عدداً من أتباع خصمه في البكيرية، ولم ينتصر عليهم.

٥ ـ أن عامل المصادفة قد يخدم طرفاً من المتجابهين، كما وقع بالنسبة لحيلولة تلٍّ رملي دون علم أهل القصيم بانهزام الملك عبد العزيز مما جعلهم يستبسلون في المعركة وينتصرون على الخصم.

٦ـ أن المعونة الخارجية وإن كانت عامل قوة مادياً فإنها ذات أثر سلبي معنويا. ذلك أن النجديين رأوا في استعانة ابن رشيد بالدولة العثمانية اعترافاً ضمنياً بأنه غير قادر بقواته الذاتية على مجابهة الملك عبد العزيز المعتمد على أتباعه المحلِّيين.

٧ ـ أن قتال الفرد على أرض يعرفها، وفي مناخ ليس غريباً عنه، من أسباب نجاحه، وأن قتاله في ظروف طبوغرافية أو مناخية لم يألفها عامل من عوامل فشله. ويظهر هذا وذاك في نجاح أهل القصيم بالذات في البكيرية، وفشل الجنود العثمانيين.

٨ ـ أن إحساس الفرد بعدم صدق قيادته عامل من العوامل التي تثبِّط عزيمته وتحدُّ من إقدامه. ويتجلَّى ذلك فيما لاحظه قادة القوات النظامية وأفرادها من تناقض بين ما كان يقوله لهم ابن رشيد وما اكتشفوه على أرض الواقع.

٩ ـ أن استعلاء القائد عن الاعتراف بالواقع، ورفضه الحلول المفيدة له ولخصمه، من الأمور التي تضعف علاقة قواته به من جهة، وتزيد من حماسة خصومه ضده من جهة أخرى. ويظهر ذلك في رفض ابن رشيد للهدنة مع أنه كان فيها مصلحة له ولخصمه، وردِّ الفعل على ذلك الرفض لدى زعماء جيشه وأتباع الملك عبد العزيز.

١٠ ـ أن طول خطوط إمدادات الجيش عامل ضعف، كما أن قصرها سبب قوة. فقد كان من عوامل ضعف موقف ابن رشيد في مناخ الشنانة طول خطوط إمداداته؛ إذ كانت أكثر الأطعمة تأتيه من العراق. وكان وجود أتباع الملك عبد العزيز في مواطنهم سبباً في جعل موقفه أقوى من موقف خصمه في ذلك المناخ.

١١ ـ أن عدم إتاحة القائد لخصمه أية فرصة لتحقيق مكسب من المكاسب دليل على حسن قيادته، وعامل من عوامل نجاحه. ويتجلَّى ذلك في مسارعة الملك عبد العزيز إلى دخول قصر ابن عُقيِّل ليساعد أهله في مواجهة ابن رشيد مما زاد من يأس هذا الأخير في تحقيق أي فوز.

١٢ ـ أن إحساس المقاتل بأنه يقاتل عن قضيَّة لا ناقة له فيها ولا جمل عامل من العوامل التي تثبِّط عزيمته وتحدُّ من إقدامه . وقد ظهر ذلك في انسحاب القوات النظامية بسرعة في معركة الشنانة ؛ خاصة أنه قد تكوَّن لدى أفرادها اعتقاد بأن خيَّالة ابن رشيد لم يراعوهم في البكيرية .

الفصل الخامس

معركة روضة مهنّا

عام ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م

الموقف العام :

قلقت بريطانيا من تدخُّل الدولـة العثمانية في شؤون وسط الجزيرة العربية بطريقـة مباشرة ؛ وذلك بمساعـدة الأمير عبد العزيـز بن رشيد بجنود نظاميين وأسلحة وذخـائر. وكانت تخشى أن ينجح هذا الأمير بسبب تلك المساعدة في القضـاء على قوة منافسه ، الملك عبـد العزيز، فيغـريـه ذلـك النجـاح بإعـادة محـاولتـه الاستيـلاء على الكـويت أو يشتـد ــ على الأقـل ــ في حصارهـا ومضـايقتهـا . على أن فشـل ابـن رشيـد والقوة العثمانيـة المسـاندة لـه في إحـراز أي نصر على الملك عبد العزيز وأتباعه كان من الأمور التي سرَّتها كثيرا . ومع ذلك فإنها كررت نصائحهـا لأمير الكـويت بألاَّ يتدخَّـل في أمور نجـد لأن تدخُّلـه قد يسبب له مشكلات يصعب حلُّها . والواقـع أن تلك الدولة كانت تودُّ ألاَّ ينتصـر أيٌّ من الفريقين المتنـازعين في نجـد على الآخر انتصـاراً حاسما . فـانتصار ابن رشيد قد يغـريه ـ كمـا سبق أن ذكـر ـ بالعمل ضد الكويت ؛ خاصة أن حاكم هـذه البلاد مؤيِّد لخصمه . وانتصار الملك عبـد العزيـز قد يـؤدِّي مستقبلاً إلى تطلُّعـه إلى الإمارات العـربية الخليجية المرتبطة بمعاهدات حماية بريطانية .

أما الـدولة العثمانيـة فقد خرجت من تجـربتها العسكريـة بجانب الأمير عبدالعـزيز بن رشيـد في القصيم بنتيجتين مهمتين . الأولى أن هذا الأمير لم يكن صادقـاً ـ أو كان غير مدرك لأوضاع نجـد ـ عندما صوَّر لهـا أن النجديين يؤيِّدونـه . بل إنها رأت فيه ، أيضـاً ، زعيماً لا

يهمُّه كثيراً مصير جنودها النظاميين الذين أمدَّته بهم[(١)]. والنتيجة الثانية أن الملك عبد العزيز كان قائداً يتمتَّع بشعبية واسعة في نجد. ولذا فإنه ليس من السهل القضاء عليه. ولقد ساءها كثيراً أن ينهزم المعسكر الذي هي جزء منه أمامه. ولعلَّ هذا كان سبب ما ذكرته بعض المصادر من أنها عزمت على تسيير حملة كبيرة جداً من مختلف ولاياتها لمحاربته[(٢)]. على أن الملك عبد العزيز برهن لقادة تلك الدولة على أنه؛ إضافة إلى تلك الشعبية التي يتمتَّع بها، سياسي بارع. ذلك أنه بعد انتصاره مباشرة على ابن رشيد والقوات العثمانية سارع إلى الاتصال بأولئك القادة مبدياً أسفه لما حصل لقواتهم، وموضحاً أن ما قام به هو وأتباعه كان دفاعاً عن النفس ضد عدوان ابن رشيد، ومعرباً عن حسن نيته تجاههم. وإذا كان إظهار حسن النية لم يؤثِّر فيهم قبل انتصاره على قواتهم فإنه أثَّر بعد هذا الانتصار؛ خاصة بعد أن عرفوا عن حليفهم ما عرفوا. ولذلك دخلوا مع الملك عبد العزيز في مفاوضات، وعدلوا عن إرسال تلك الحملة الكبيرة، واكتفوا بإرسال قوات محدودة العدد نسبياً؛ تعزيزاً لموقفهم التفاوضي. وقد أتى قسم منها من العراق بقيادة المشير أحمد

---

(١) بل أشيع أنه أصرَّ على أن يكون أولئك الجنود في المقدّمة، وأن أتباعه أنفسهم قتلوا أعدادًا منهم. عبدالعزيز عبد الغني إبراهيم، **أمراء وغزاة..**، ط ٢، دار الساقي، لندن، ١٩٩١م، ص ٢٠٠. وقد يكون الأمر صحيحاً، لكن الأمر بعيد الاحتمال.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٩٨.

فيضي، وقسم آخر من المدينـة بقيادة الفريق صدقي بـاشا. وبدأت تلك المفاوضات بين والي البصرة والإمام عبد الرحمن بن فيصل قرب الزبيـر. ثم استؤنفت بين هـذا الإمام والمشير فيضـي في عنيزة حيث اتفقا على أن يكون في كلٍّ من بـريدة وعنيزة مركز عثمـاني مؤقت فيه عدد من الجنود يرفعون العَلَم العثماني[1].

الموقف الخاص:

بعد أن انهزم الأمير عبد العزيز بن رشيـد في معركة الشنانة اتجه مع من التحق به من أتبـاعه شمالاً حتى وصل إلى الكهفـة حيث استقام قـرابـة ثـلاثة شهـور. ثم أخـذ يشنُّ غـارات على فئـات من القبـائل ليحصل على غنائم ويظهـر أمام الآخرين بمظهر القـوي. ولما أقبل المشير فيضي من العراق قـابله وتفاوض معه، لكنـه فشل في إقناعه برأيه. ثم قابل الفريق صدقي الذي أخبره أنه تابع للمشير[2].

ولقد ساء الأمير عبـد العزيز بن رشيد ما توصَّل إليـه العثمانيون مع الملك عبد العزيز حول القصيم. فقرر أن يستأنف نشاطه العسكري ضد هذا الملك وأتباعه منفردا. وبعث سريَّة إلى الرس بقيادة حسين

---

(١) الريحـاني، مصدر سبق ذكـره، ص ١٥٠. وبعد مقتل الأمير عبـد العزيـز بن رشيد تفاوض الملك عبـدالعزيز مع القـائد سامي الفاروقـي، الذي أُرسِل إلى القصيم من المدينة المنورة. وأدَّت الأوضاع المستجـدة إلى رحيل القوات العثمانية عن نجد قبل نهاية عام ١٣٢٤هـ.

(٢) القاضي، مصدر سبق ذكره، ص ص ١٨ ـ ١٩.

ابن عسَّاف، أميـر البلدة سابقا، فاستـولت عليها [١]. ثم أغار على أطراف بريـدة، فخرج محمد بن عبد الرحمن، أخو الملك عبـد العزيز، وأهلها لقتاله، فانسحب شمالا [٢].

أما الملك عبد العـزيز فبعد انتصاره في الشنانـة بقليل غزا بَرْغَش ابن طُـوَالة في ليْنـة، فغنم منـه إبلاً وغنماً، وعـاد إلى الريـاض [٣]. ثم دخل في مفاوضات مع العثمانيين، وتوصَّل معهم إلى حلٍّ مؤقت في القصيم، كما سبق أن ذكر.

ونتيجة لـذلك ظهر بيـن القصيميين ثلاثـة اتجاهـات: الأول يرى التمسُّك بالقيـادة السعودية. وهم أمـراء عنيزة وأهلهـا وكثير من أهل بريـدة والبلدان التابعة لهـا. والثاني يرى الاستقـلال عن تلك القيادة والتبعية المباشرة للدولة العثمانية. وهم أمراء بريدة وقليل من أهلها. والثالث يرى الانضمام إلى ابن رشيد. وهم أمراء الرس السابقون [٤]، الذين كان دافعهم الأكبر، فيما يبـدو، العودة إلى إمارة بلدتهم. وقد تـزامن ذلك مع استنجـاد حـاكم قطـر، قـاسم بن ثـاني، بـالملك

---

(١) المصـدر نفسه، ص ٢٠. وقـد بعث تلك السريَّـة في منتصف جمادى الأولى عـام ١٣٢٣هـ. وكـان ابن عسَّاف قد فقـد إمارة بلدتـه قبل ذلك بعام، واستقـام عند ابن رشيد.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢١.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٨.

(٤) الـريحـاني، مصـدر سبق ذكـره، ص ١٥١؛ ابـن هـذلـول، مصـدر سبق ذكـره، ص ٧٦.

عبدالعزيز لحلِّ مشكلة حدثت في بلده. فذهب الملك إلى هناك. ولما عاد إلى الرياض قدم إليه وفد من أمير بريدة ـ ومعه وفد من أمير عنيزة شافعاً له ـ طالباً العفو عنه لما أظهره من موقف استقلالي. فعفا عنه[1]. ثم أرسل الملك أخاه محمداً إلى القصيم، ولحق هو به فوصل إلى عنيزة في العاشر من شعبان، سنة ١٣٢٣هـ. ثم انتقل إلى بريدة، وأمر أتباعه من وسط نجد وجنوبها أن يتوجهوا إليه بغزاتهم. فلما اقتربوا من القصيم خرج إليهم، وهجم بهم على فئات من القبائل الموالية لابن رشيد. وعلم هذا الأخير بأنه لم يكن معه عدد كبير، فعزم على توجيه هجوم مباغت إليه. لكن أخا الملك، محمد بن عبد الرحمن، بعث إليه ينذره من ذلك الهجوم. وعلم ابن رشيد بوصول أخبار تحرُّكه إلى خصمه، فأدرك أن زمام المفاجأة قد أفلت من يده، فانصرف. وعاد الملك إلى بريدة، ثم غادرها إلى الرياض[2].

سير المعركة:

في الخامس والعشرين من ذي الحجة، عام ١٣٢٣هـ، خرج الملك عبدالعزيز من الرياض غازياً بأتباعه. وتوجه إلى القصيم، فنزل الأسياح، واتخذ منها مركزاً لتجمُّع قواته. وأقام هناك حوالى

(١) المصدر الأخير نفسه، الصفحة ذاتها؛ آل عبد المحسن، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٢.

(٢) القاضي، مصدر سبق ذكره، ص ٢١؛ الذكير، نسخة خاصة، ص ص ٧٢ ـ ٧٣.

عشرين يوماً انضم إليه خلالها غزاة أهل القصيم. وقد وافته الأخبار بأن الأمير عبد العزيز بن رشيد توجه بمن معه إلى سُدَير، فلحق بأثره[١]. وفي أثناء سيره استأذنه أمير بريدة، صالح الحسن المُهنَّا، بالرجوع إلى بلدته، فأذن له[٢]. ولما وصل إلى الزُلفي علم أن ابن رشيد اشترى طعاماً من المجْمَعة، وغادرها متجهاً شمالاً. فمضى الملك في سيره حتى وصل إلى مجْمَع البطنان غرب الدهناء[٣]. ثم قام بمهاجمة فئات من القبائل المؤيِّدة لخصمه. وقام ذلك الخصم، أيضاً، بمهاجمة فئات من القبائل المؤيِّدة لهذا الملك[٤]. (انظر الخريطة رقم ٩).

وفي السادس عشر من صفر، عام ١٣٢٤هـ (١٠/٤/١٩٠٦م) نقل كشَّافة (سبور) الملك عبد العزيز إليه أخبار نزول الأمير عبد العزيز بن رشيد على بُعْد ساعتين منهم في روضة مُهنَّا، التي تحيط بها رمال الثويرات من الشرق[٥]. فانطلق بأتباعه المكوَّنين من ألف مقاتل؛ بينهم أربع مئة خيَّال، لمهاجمة خصمه، الذي كان عدد جيشه يزيد على هؤلاء بمئتي مقاتل[٦]. وفي الثلث الأخير من ليلة

---

(١) القاضي، مصدر سبق ذكره، ص ٢١.

(٢) الريحاني، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٦.

(٣) وفي ذلك يقول الشاعر ابن حصيص في وصفه لمعركة روضة مهنَّا:

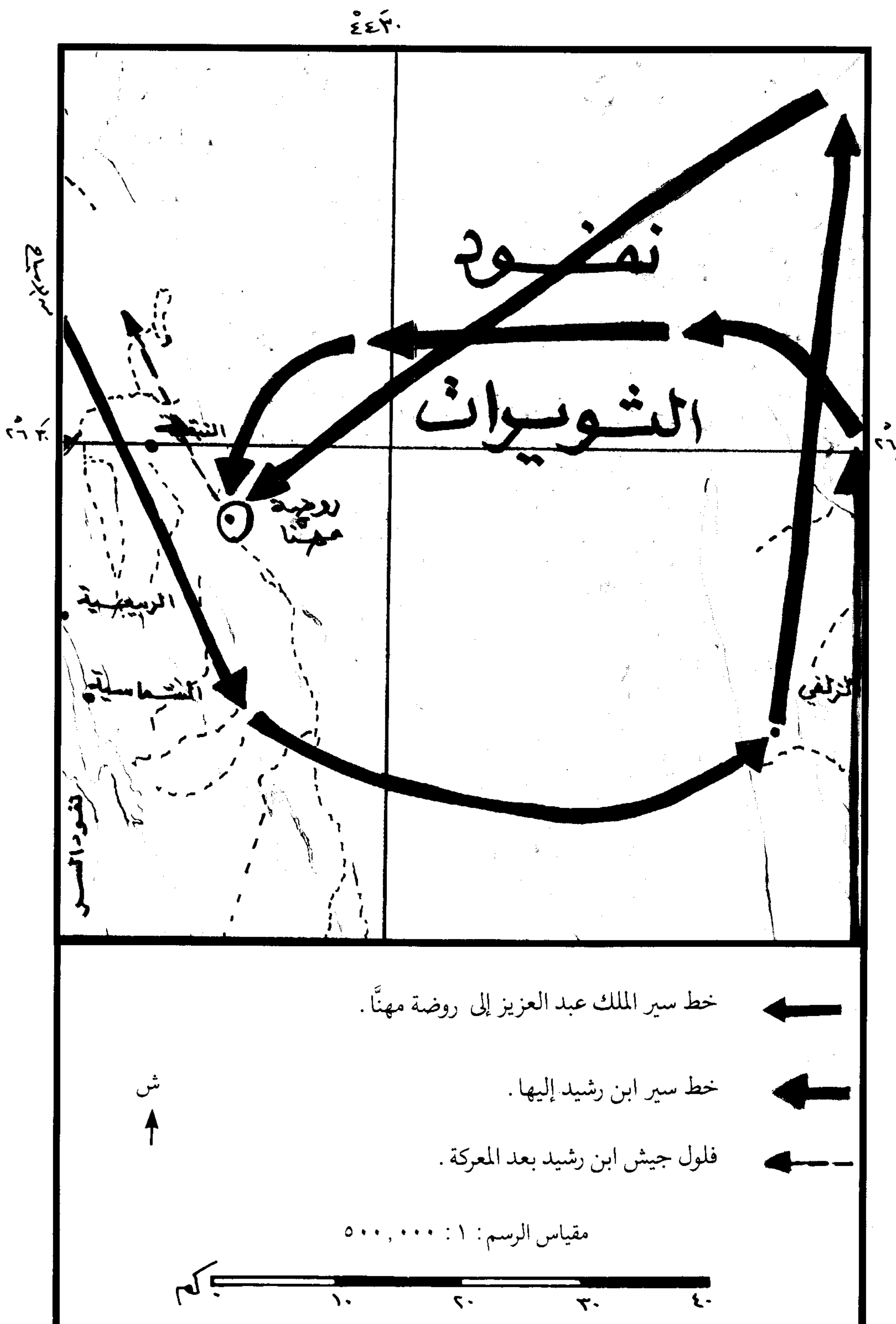
من مجمع البطنان يوم انه عدا فلَّ البيارق والسعد يبرى لها

(٤) القاضي، مصدر سبق ذكره، ص ٢١؛ الذكير، نسخة خاصة، ص ٧٣.

(٥) وهي في شرق القصيم، وتبعد عن بلدة الرُّبَيعية بخمسة عشر كيلا.

(٦) الريحاني، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٧. ويقال: إنه انطلق بأتباعه مشاة وخيَّالة فقط.

خريطه رقم (٦)



٣٠ ٤٤
٣٠ ٢٦
نفود
الثويرات
روضة
مهنا
الربيعية
الشماسية
الزلفي
خط سير الملك عبد العزيز إلى روضة مهنًا.
خط سير ابن رشيد إليها.
فلول جيش ابن رشيد بعد المعركة.
ش
مقياس الرسم : ١ : ٥٠٠,٠٠٠
كم
٠
١٠
٢٠
٣٠
٤٠

السابع عشر من صفر بـدأوا هجومهم على ذلك الخصم. وهبَّ هذا ومن معه لمقاتلتهم. فاقتتل الفريقان، وتقهقر أتباع ابن رشيد، الذين أخذتهم المفـاجأة نوعـاً ما، فـاحتلَّ أتباع الملك عبـد العزيـز موقع شـوكة خصـومهم. وبينمـا كان الأميـر عبد العـزيـز بن رشيد يصـول ويجول على حصانـه محرِّضا أتباعـه على الاستبسال أصبح بين أتباع خصمه دون علمه، وصـاح مخاطباً حامل الـراية السعودية؛ ظـاناً أنه صاحب رايتـه: «من هان يـا الفريخ». فعرفـه عدد من هـؤلاء الأتباع وصاحـوا: «ابن رشيد يـا طلاَّبته» فصـوَّبوا إليـه نيران بنـادقهم، وخرَّ صريعـاً، وانهزم أتباعه. فتعقَّب خصـومهم فلولهم حتى ضحى ذلك اليوم. ثم عـادوا إلى ميدان المعركـة، وأخذوا خاتم ابن رشيـد وسيفه إلى الملك عبد العزيز[1].

وهكذا كـان مصير الأمير عبد العزيـز بن رشيد، الـذي قاوم الملك عبد العزيز بشدة ليحول دون انتـزاعه حكـم نجد منه. وبمقتله أصبح مركز الملك أكثر قوة وثباتا.

---

(١) المصـدر نفسـه، ص ص ١٥٧ـ١٥٨؛ القـاضي، مصـدر سبق ذكـره، ص ٢١ـ ٢٢؛ ابن هذلـول، مصدر سبق ذكره، ص ص ٧٨ـ ٧٩؛ الذكير، نسخة خـاصة، ص ٧٤؛ ضاري بن فهيـد الرشيد، **نبذة تاريخية عن نجد**، أملاها ضـاري بن فهيد الرشيد، وكتبها وديع البستاني، دار اليمامة، ١٣٨٦هـ، ص ص ١٢١ـ١٢٣.
وتختلف الـروايات في عدد القتلـى من الطرفين. فمنهـا ما ذكر أن قتلى أتبـاع ابن رشيد ٤٠٠، ومنها ما ذكر أنهم ٢٥٠، وأن قتلى أتباع الملك عبـد العزيز ١٩ رجلا. عبد العزيـز عبد الغني إبراهيم، مصدر سبق ذكـره، ص ص ٢١٠ـ٢١١. على أن الذكيـر يقول: إن قتلى أتبـاع الطرف الأول حـوالى ٢٠٠، وقتلى أتباع الطـرف الثاني حوالى نصف هذا العدد.

الدروس المستفادة:

١ ـ أهميَّة براعة القائد في تقديره لجميع الظروف المحيطة به واستفادته من كل الوسائل التي تُحقِّق هدفه. وتتضح تلك البراعة في تعامل الملك عبد العزيز مع العثمانيين؛ إذ لم تتحكم في نفسه نشوة الانتصار عليهم فتحول دون قيامه بجهود مكثفة للتوصل معهم إلى حلٍّ سلمي. وكان لاتخاذه هذا الموقف السياسي المرن أثر واضح في تعميق الخلاف بينهم وبين خصمه الأكبر في المنطقة حينذاك، الأمير عبد العزيز بن رشيد، مما ساهم في إضعاف هذا الخصم بدرجة كبيرة.

٢ ـ أهمَّية العفو عن هفوات بعض الأتباع؛ خاصة إذا أظهروا الندم وشفع فيهم من لا يُشَك في إخلاصهم. ويتجلَّى ذلك في تعامل الملك عبد العزيز مع أمير بريدة، صالح الحسن المهنا، الذي طلب العفو منه بشفاعة كبار أهل بلدته وأمير عنيزة. فقد كسب بهذا التعامل مزيداً من تقدير الشافعين لذلك الأمير، وضمن عدم انضمامه إلى خصمه، الذي كان يتطلَّع إلى هذا الانضمام.

٣ ـ أهميَّة استخدام الاستخبارات في رصد حركات الخصم. ويبدو ذلك في مسارعة الأمير محمد بن عبد الرحمن إلى إنذار أخيه الملك عبد العزيز باحتمال هجوم ابن رشيد عليه، وانصراف هذا الأخير عن القيام بذلك الهجوم بناء على ما ورده من معلومات تفيد بأن الملك المذكور قد علم بتحرُّكه صوبه مما سيفقده عنصر

المفاجأة، ويبدو، أيضا، في إمداد كشَّافة الملك عبد العزيز إيَّاه بمكان نزول ابن رشيد في روضة مهنَّا.

٤ ـ أهميَّة اختيار القائد لـزمن الهجوم على الخصم، واختيار الطريقة المناسبة لهذا الهجوم. ويظهـر ذلك في اختيار الملك عبد العزيز ثلث الليل الأخيـر زمناً لهجـومـه على خصمه؛ إذ من المـرجح أن قسماً مـن أتباع هذا الخصـم قد نامـوا في ذلك الوقـت، واختياره المهاجمة مشاة وفرساناً. فالمشـاة لا يحدثون في سيرهم ما يحدثه راكبو الإبل من ضوضاء، والفرسـان من الضروري وجودهم لوجود خيَّالة كثيرين مع الخصم.

٥ ـ أن عدم اتخاذ القائد الحيطة قد يؤدِّي إلى الارتباك وتعريض حياته للخطـر. وهذا مـا حدث عنـدما راح الأميـر عبد العـزيز بن رشيـد يصول ويجول غير مكترث مما جعلـه يظن أتباع خصمه أتباعاً له، فعرفوه، وقتلوه.

٦ ـ أن عنصـر المفاجـأة ـ وإن كانـت غير كـاملة تمامـاً ـ مفيـد لمن يمسك به. وذلك لأن بعض أتباع ابن رشيـد، على الأقل، فوجئوا بهجوم أتباع الملك عبدالعزيـز عليهم، فكان هذا سبباً من أسباب تقهقرهم.

الفصل السادس

معركة الطرفية

سنة ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م

كان لمعركة الطُّرْفية، سنة ١٣٢٥هـ، أهميَّة خاصة لما واكبها من أحداث سياسية، وما نتج عنها من أوضاع ذات أثر واضح في مسيرة الملك عبد العزيز التوحيدية للبلاد؛ خاصة في القصيم.

كانت الدولة العثمانية، كما سبق أن ذكر، قد اقتنعت بخطأ سياستها في الاندفاع مع الأمير عبد العزيز بن رشيد؛ إذ تبيّن لها أن خصمه، الملك عبدالعزيز، يحظى بتأييد كثير من النجديين مما يجعل من الأفضل لها أن تعيد النظر في سياستها تجاهه. وكان ما أبداه هذا الملك من موقف مرن ـ بعد انتصاره على قواتها وأتباع حليفها ابن رشيد ـ عاملاً إضافياً لزيادة اقتناعها بالتفاوض معه. ونتج عن هذا التفاوض اتفاق مؤقت بشأن القصيم. ولما قُتِل الأمير عبدالعزيز بن رشيد في معركة روضة مهنَّا أرسلت قائداً جديداً لقواتها في هذا الإقليم اسمه سامي الفاروقي، فأجرى محادثات مع الملك عبد العزيز. لكنه لم يكن موفقاً في تخاطبه معه. فغضب الملك عليه، وأظهر أنه عازم على مهاجمته. فسارع ذلك القائد إلى إظهار حسن نيَّته[1]. على أن مخاوف الملك عبد العزيز وأنصاره في القصيم من قيام المذكور بعملٍ ما ضدهم جعلتهم يرون وجوب رحيله بقواته من هناك سلماً أو حرباً. ولذلك خيَّره بين أن يرحل من معسكره في الشيحية إلى السِّر لئلا يبقى قريباً نوعاً ما من

---

(١) القاضي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢؛ الريحاني، مصدر سبق ذكره، ص ص ٢٦١ـ٢٦٢.

جبل شمَّر فينسِّق مع أميره الجديد، أو يُرَحِّل الملك تلك القوات إلى الجبهتين اللتين أتت منهما؛ وهما العراق والمدينة المنورة. فإن رفض هذا وذاك فإنه سيهاجمه. وقد ألَحَّ ضباط القوات العثمانية وجنودها على الفاروقي ليقبل الرحيل من نجد، فقبل ذلك[1]. وغادرت تلك القوات القصيم؛ بعضها إلى المدينة المنورة، وبعضها الآخر إلى العراق، بسلام وأمان. وكان ذلك قبل نهاية عام ١٣٢٤هـ[2].

على أن مشكلة القوات العثمانية في القصيم لم تكن المشكلة الوحيدة بالنسبة للملك عبد العزيز. ذلك أنه قد أحس بتغيُّر موقف أمير بريدة، صالح الحسن المهنَّا، قبل مقتل الأمير عبد العزيز بن رشيد. ومع أنه عفا عنه بعد أن وصل إليه وفده مع كبار أهل بلدته ووفد من أمير عنيزة يشفع له، فإن ذلك العفو كان، فيما يبدو، مراعاة لظروف معيَّنة؛ منها خوفه من أن يؤدِّي رفضه له إلى انضمامه إلى خصمه ابن رشيد. وكان مقتل هذا الأخير في معركة روضة مهنًّا من أهم العوامل التي هيَّأت للملك عبد العزيز الوقت المناسب لإبعاد الأمير صالح الحسن المهنَّا عن إمارة بريدة. وتمكَّن الملك بخطة ذكية من القبض على هذا الأمير وإخوانه في قصر الإمارة. ثم أرسلهم

---

(١) المصدر الأخير نفسه، ص ١٦٢.

(٢) القاضي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥.

إلى الرياض، فسجنوا فيها [١]. وعيَّن في إمـارة تلك البلــدة محمد بن عبد الله أبا الخيل [٢].

وكان متعب بـن رشيد قد خلف أبـاه عبد العـزيز في الإمـارة. وقد حاول هذا الأمير الجديد أن يحسِّن علاقته بالملك عبد العزيز. فاتفق معه على أن تكون المنـاطق الواقعة شمال القصيم تحت إمـارته، وما عداها من أقاليم نجـد تحت حكـم الملك عبد العزيز [٣]. لكن ذلك الأمير لم يستمر في الإمـارة أكثر من شهور؛ إذ قام أبنـاء حمود العبيد بن رشيد: سلطان وسعود وفيصل، باغتياله. وتولَّى سلطان مقاليد الإمارة في جبل شمَّر [٤].

وفي شهـر ذي الحجة خـرج سلطـان بن رشيـد بأتباعـه من حـائل منتظراً الفـرصة لمهاجمـة القبائل التابعـة للملك عبد العزيـز. وما إن علم هـذا الملك بخـروجـه حتى تـوجــه إلى القصيم. وقـام كلٌّ من

(١) المصـدر نفسـه، ص ٢٢؛ الذكيـر، نسخـة خـاصـة، ص ٧٤، بعد بقـاء صـالح وإخـوانه فتـرة في السجن تمكَّنـوا من الهـروب. فألقي القبض عليهم. وقتل صـالح وأخوه مهنَّـا، أما أخـواهما عبد العـزيز وعبدالـرحمن فعفي عنهما. البسـام، مصدر سبق ذكره، ورقة ١٧٩ب. ويقال: إن التمكُّن من الهـروب كان نتيجة قتل الحارس، وإن قتل صـالح ومهنًّا كـان جـزاء على هذا القتل. انظـر ابن هـذلول، مصـدر سبق ذكـره، ص ٨٠. لكن روايات شعبيـة تقول: إنهـم هربـوا من السجن بعمل ثقب في جداره.

(٢) القاضي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢؛ الريحاني، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٩.

(٣) المصدر الأخير نفسـه، ص ص ١٥٩ ـ ١٦٠؛ ابن هـذلـول، مصدر سبـق ذكـره، ص ٨٠.

(٤) القاضي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥؛ البسام، مصدر سبق ذكره، ورقة ١٧٧ب.

الطرفين بتحركات أشبه ما تكون بمناورات خفيفة. ثم عاد سلطان إلى حائل[1].

وبينما كان الملك عبد العزيز قرب بريدة أمسك أتباعه برسول من أميرها، محمد أبا الخيل، يحمل مكاتيب إلى سلطان بن رشيد متضمِّنة استعداده للوقوف معه[2]. فدخل الملك هذه البلدة، واجتمع بأميرها وكبار أهلها. ومع عدم ثقته بذلك الأمير، فيما يبدو، فإنه لم ير الوقت مناسباً للتخلُّص منه. فاكتفى بأخذ البيعة منه مجدَّدا[3].

لكن ذلك الأمير نكث عهده، واتفق مع الأمير سلطان الحمود بن رشيد ضد الملك عبد العزيز[4]، وحاول إقناع أمير عنيزة أن يقف معهما، فرفض[5]. وقدم سلطان إلى القصيم، فوفد إليه زعيم قبيلة مطير، فيصل الدويش، وعاهده. ولما علم الملك عبدالعزيز بما حدث قدم إلى عنيزة بأتباعه من الحاضرة والبادية في منتصف شعبان سنة ١٣٢٥هـ، وانضم إليه من أهل هذه البلدة أربع مئة مقاتل بقيادة

---

(١) القاضي، مصدر سبق ذكره، ص ص ٢٦ ـ ٢٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٧؛ الريحاني، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٩؛ آل عبد المحسن، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٧٣.

(٣) القاضي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٧؛ الريحاني، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٩. ولعل من أسباب اكتفائه بذلك أنه كان يريد التفرُّغ لتأديب زعيم قبيلة مطير، فيصل الدويش، الذي خرج عن طاعته.

(٤) القاضي، مصدر سبق ذكره، . ص ٢٧؛ الريحاني، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٠.

(٥) القاضي، مصدر سبق ذكره، ص ص ٢٧ ـ ٢٨؛ الذكير، نسخة خاصة، ص ٨١.

صالح الـزامل آل سُلَيْم . وخرج الجميع ليلاً لمهاجمة سلطـان بن رشيد حول بـريدة ، فعلم هذا بخـروجهم ، ودخل البلدة . وفي صبـاح اليوم التـالي حـدثت مناوشـات قليلة بين الطـرفين خـارج أسـوارهـا[1] .

وبينما كـانت تلك المناوشـات تجري أقبل الـدويش مناصراً لابن رشيـد وأبا الخيل ، فتصدَّى له الملك عبد العزيز بأتباعه وهزموه ، وتتبَّعوا فلوله حتى لجأت إلى بريدة . ثم اتجهوا إلى مخيمه في الطُّـرْفية ، واستولوا عليه . واتَّفق كلٌّ من ابن رشيد وأبا الخيل والـدويش على مهاجمة الملك ليلاً في الطُّرْفية . وكانوا يأملون أن يفاجئوه فينـزلوا به خسارة فادحة ، لكنه كان متـوقعاً لهجـومهم . ولـذلك هبَّ هو وأتبـاعـه لمقاتلتهم ، وتمكَّنـوا من هزيمتهم[2] . (انظر الخريطة رقم ١٠) .

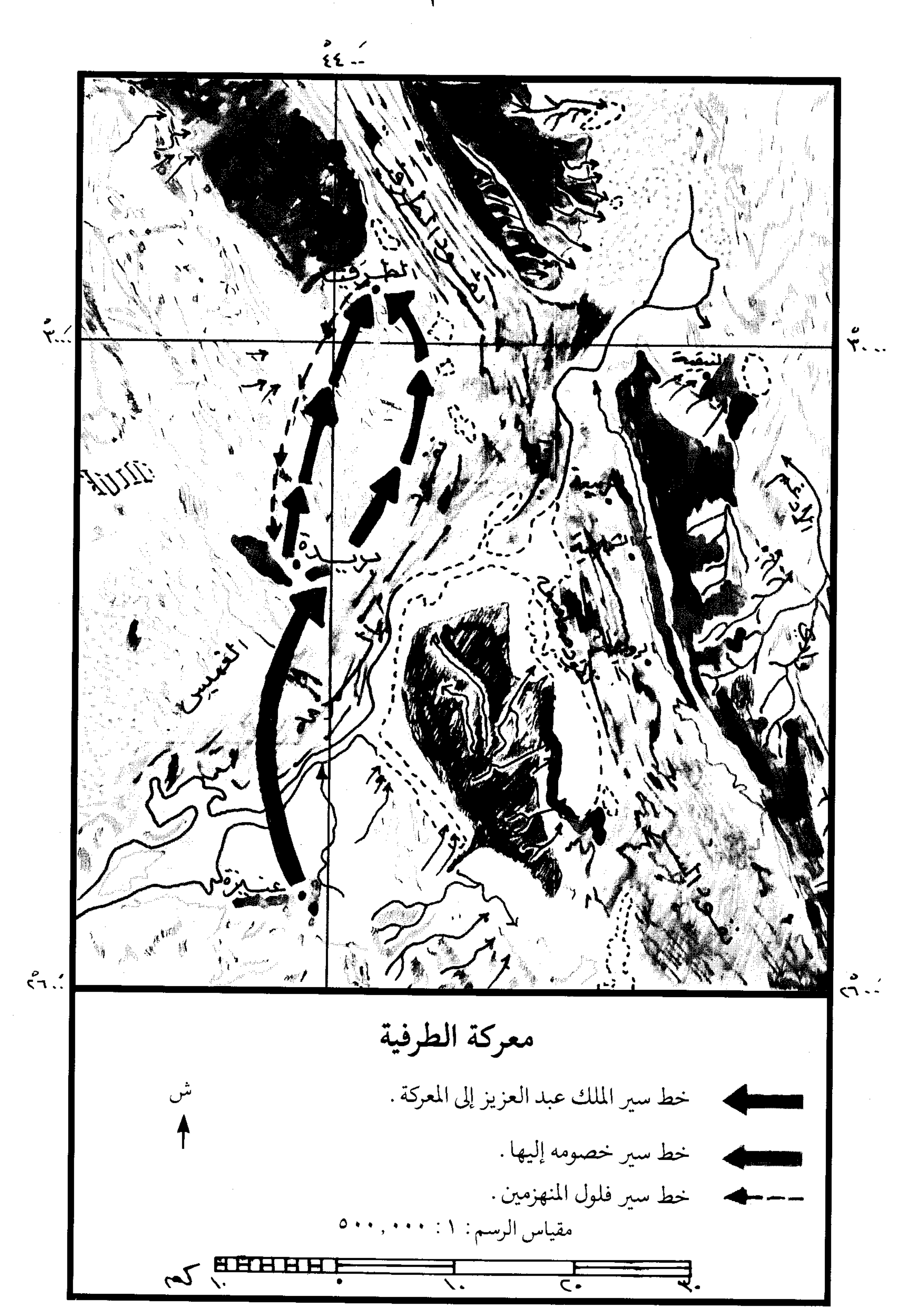
---

(١) القاضي ، مصدر سبق ذكره ، ص ٣٠ .

(٢) المصدر نفسـه ، ص ص ٣٠ ـ ٣١ ؛ الـذكير ، نسخـة خاصـة ، ص ص ٨٢ ـ ٨٣ ؛ الريحـاني ، مصدر سبق ذكره ص ١٧١ ــ ١٧٢ ؛ ابن هذلول ، مصـدر سبق ذكـره ، ص ص ٨٦ ـ ٨٧ . وقد اختلفت هذه المصادر في تاريخ المعركة وعدد القتلى فيها . فالقـاضي والذكير يقـولان : إنها حدثت ليلـة ١٨/ ٨/ ١٣٢٥هـ (٢٥/ ٩/ ١٩٠٧م) وأن قتلى أتباع الملك عبد العزيز ٣٠ رجـلا ، وقتلى خصومه ١٠٠ رجل . والريحاني وابن هـذلول يـذكـران أنها وقعت فـي ٥/ ٨/ ١٣٢٥هـ ، وأن قتلى أتبـاع الملك ٣٠ رجلا ، وقتلى خصومه ٣٠٠ رجل .

ومما ذكـرته المصادر أن الملك عبـد العزيز قد كبـا به جواده في المنـاوشات التي دارت حول بريـدة ، فكُسِـر عظم كتفه اليسـرى ، وأنـه قاد المعـركة في الطُّـرْفية ويـده معلَّقة في عنقه . الزركلي ، مصدر سبق ذكره ، ج ١ ، ص١٩١ .

خريطة رقم (١٠)



٤٤ ..
٣٠..
٢٦..
بريدة
عنيزة
معركة الطرفية
خط سير الملك عبد العزيز إلى المعركة.
خط سير خصومه إليها.
خط سير فلول المنهزمين.
ش
مقياس الرسم : ١ : ٥٠٠,٠٠٠
١٠ كم
٠
١٠
٢٠
٣٠

وبعـد انهزام المتحالفين في الطُّـرْفية عـادت أكثر فلـولهم إلى بريـدة . أما الملك عبـد العزيز فنـزل قريباً منهـا وسمح لأتباعه بـالإغارة على قراها وأخـذ ما يقدرون عليه من ممتلكاتها . فقـاموا بذلك حتى طلب أهل تلك القـرى العفو منـه ، فعفـا عنهم ، ومنع أتبـاعه من التعـرُّض لهم[1] . وحاول الملك عبـد العزيـز استخراج الأمير سلطـان الحمود ابن رشيد من بريدة لمنازلتـه ، لكن سلطان لم يخرج منها . فابتعد الملك عنهـا قليلا . فخـرج سلطان منهـا متجهـاً إلى حائل ، وعـاد الملك إلى الرياض[2] .

بعد عـودة الأمير سلطان الحمود بن رشيد إلى جبل شمَّـر بقليل أخذ قافلة تجارية لأهل بريدة وهي في طريقها إلى الشـام . فكان هذا مما أثار غضبهم عليه وعلى أميرهـم المتحالف معـه[3] . فكتبـوا إلى الملك عبـد العـزيز يحثُّونـه على التوجـه إليهم . فخرج من الريـاض . ولما وصل إلى عنيزة قدم إليه مندوب من أهل بريدة يخبره بأنهم لم يمهِّدوا الطريق بعـد لدخوله بلـدتهم . ثم بلغ الملك عبد العزيـز أن سلطان الحمود بن رشيد قـد توجه لنجدة أمير هذه البلـدة . فاتجه شمالاً لصدِّه عن القصيم . ولما وصل إلى الكهفة اتَّضح لـه عدم صحة مـا بلغه عن توجـه ابن رشيد . فعـاد من هناك . وأرسل إليـه أنصاره في بـريدة أنهم

---

(١) القاضي . مصدر سبق ذكره ، ص ٣١ .

(٢) الذكير ، نسخة خاصة ، ص ٨٣ .

(٣) المصـدر نفسه ، ص ٨٥ . وكـان من أهم أسبـاب اتفاقهم مع ابن رشيـد رغبتهم في سلوك تجارتهم مع الشام .

سيكونون في انتظاره مع أذان العشاء ليلة العشرين من ربيع الآخر عام ١٣٢٦هـ (٢١/ ٥/ ١٩٠٨م) عند البوَّابة الشمالية من البلدة. ولما وصل إليها في الموعد المحدَّد فتحوها له، ودخل بأتباعه البلدة، ثم حاصر أميرها ومن معه في قصرها حتى طلب الأمان، فمُنِح إيَّاه، واستسلم للملك عبد العزيز.

وقد استأذن محمد أبا الخيل هذا الملك في الذهاب إلى العراق، فأذن له، ورحَّله إلى هناك[1]. وعيَّن مكانه في الإمارة أحمد السديري[2]. ومنذ ذلك التاريخ استقرت أوضاع بريدة وتوابعها تحت راية الملك عبد العزيز.

الدروس المستفادة:

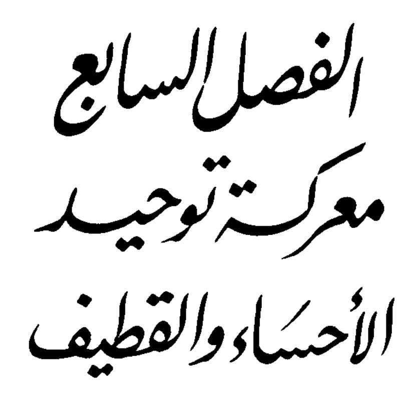
تجلَّت صفات الملك عبد العزيز القيادية خلال تلك الأحداث في عدة أمور أهمها:

١ ـ قدرته على فهم الأوضاع السياسية المحيطة به، ومهارته في الاستفادة منها لتحقيق أهدافه المرجوَّة. فقد أدرك قوة الدولة العثمانية بالنسبة له رغم انتصاره على قواتها وأتباع حليفها، الأمير عبد العزيز بن رشيد، عام ١٣٢٢هـ. ولذلك اتَّخذ موقفاً مرناً

---

(١) القاضي، مصدر سبق ذكره، ص ص ٣٢ ـ ٣٣؛ الذكير، نسخة خاصة، ص ٨٥؛ الريحاني، مصدر سبق ذكره، ص ص ١٧٥ ـ ١٧٧.

(٢) الذكير، نسخة خاصة، ص ٨٦. على أن السديري نُقِل عن الإمارة بعد عام من تولِّيه إيَّاها. وعُيِّن محلَّه الأمير عبد الله بن جلوي.



سنة ١٣٣١هـ/ ١٩١٣م

الموقف العام:

تنبع أهميَّة منطقة الأحساء والقطيف من وجوه متعددة في مقدمتها كونها منطقة واسعة الأرجاء، وفيرة المياه، غنية بثروتها الزراعية؛ خاصة النخيل، ولها ساحل طويل الامتداد على الخليج يشتمل على موانئ جيدة. وكان هذا الساحل كغيره من سواحل شرقي الجزيرة العربية محط أنظار الدول الأوربية المتنافسة في القرن العاشر الهجري. وقد احتلت بريطانيا مركز الصدارة بين تلك الدول في نهاية المطاف، فأصبح لها نفوذ كبير على حكام عمان، وما أصبح الآن دولة الإمارات العربية المتحدة، والبحرين، والكويت. وكانت سياستها المتَّبعة منذ بداية نفوذها في هذه الأماكن أن تركِّز اهتمامها على المناطق الساحلية، ولا تشغل نفسها بالمناطق الداخلية. ولذلك لم يكن غريباً أن تمتنع عن إقامة علاقات رسمية مع الملك عبد العزيز قبل أن يصل نفوذه إلى ساحل الخليج رغم طلباته المتكررة لها، وألَّا تعده بأية مساعدة ضد العثمانيين إن هو قام بانتزاع منطقة الأحساء والقطيف منهم، ثم أرادوا استعادتها منه.

وكانت الدولة العثمانية قد تمكنت من الاستيلاء على منطقة الأحساء والقطيف في العقد السادس من القرن العاشر الهجري. ثم انتزع هذه المنطقة منها زعماء بني خالد عام ١٠٨٠هـ. وبعد ذلك دخلت تحت حكم الدولة السعودية الأولى، ثم تحت حكم الدولة السعودية الثانية. وفي عام ١٢٨٨هـ استولى عليها العثمانيون إثر

استنجاد الإمام عبد الله بن فيصل بهم ضد أخيه سعود. على أن سيطرتهم على مقاليد الأمور في شرقي الجزيرة العربية، بصفة عامة، أخذت تضعف مع مرور الأيام بدليل عجزهم عن معونة الأمير عبدالعزيز بن رشيد في محاولته الاستيلاء على الكويت بعد معركة الصريف عام ١٣١٨هـ رغم أن حاكم هذه البلاد تابع لهم من الناحية الرسمية. وكان من أسباب ذلك العجز وقوف بريطانيا، التي أعلنت حمايتها لذلك الحاكم في العام المذكور ضدهم. وبعد ذلك بست سنوات تدهورت أوضاع السلطات العثمانية في الأحساء والقطيف بحيث لم تعد قادرة على السيطرة على ما هو خارج أسوار مدنها. بل إن فئات من البادية أغارت على قاعدة الأحساء ذاتها ـ الهفوف ـ ونهبت أموالاً وفتكت بجنود عثمانيين[١].

وفي عام ١٣٣٠هـ كانت القوات العثمانية قد انهزمت أمام إيطاليا في ليبيا، وانشغلت بالحرب في البلقان. فضعفت مراكز سلطاتها في المناطق البعيدة نسبياً عن عاصمتها. ونتيجة لذلك ازداد ضعف سلطاتها في الأحساء والقطيف بدرجة كبيرة.

وهكذا كان وضع كلٍ من بريطانيا والدولة العثمانية في شرقي الجزيرة العربية عندما كانت بوادر الحرب العالمية الأولى توشك أن تلوح في الأفق. ومن المعلوم أن هاتين الدولتين قد دخلتا تلك الحرب متعاديتين.

---

(١) محمد بن عبد الله آل عبد القادر، **تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء في القديم والجديد**، الرياض، ١٣٧٩هـ، ج ١، ص ١٨٩.

الموقف الخاص:

كان الملك عبد العزيز قد استنفر أتباعه، عام ١٣٢٨هـ، محاولاً فك أسر أخيه سعد من الشريف حسين، حاكم مكة، الذي خرج إلى نجد غازياً ذلك العام. وتوصل الطرفان إلى اتفاق أطلق بموجبه سعد واعترف الملك بتبعيته للدولة العثمانية. لكن الحسين ضايق التجار النجديين في الحجاز، ومنع الاتصال التجاري بين بلاده ونجد بعد عامين من ذلك الاتفاق. وكان الملك عبد العزيز، أيضاً، قد اضطر إلى التوجه صوب الأحساء لقتال فئات من العجمان قامت مع أحد أحفاد عمِّه سعود بن فيصل ضده. فلما هاجمها التجأت إلى داخل المدن في تلك المنطقة. على أن علاقته بإمارة جبل شمَّر كانت هادئة خلال عامي ١٣٢٩ و١٣٣٠هـ.

وكان الملك عبد العزيز يتطلع إلى توحيد منطقة الأحساء والقطيف مع ما وحَّده من أقاليم نجد. وقد ظهر ذلك التطلع منذ السنوات الأولى لبدئه توحيد هذه الأقاليم. وكان لتطلعه أسباب متعددة أهمها:

١ ـ أن تلك المنطقة كانت جزءاً من أراضي الدولتين السعوديتين الأولى والثانية.

٢ ـ أن استيلاء العثمانيين عليها، عام ١٢٨٨هـ، كان خدعة؛ إذ استغلوا استنجاد الإمام عبد الله بن فيصل بهم، فاحتلوها لصالحهم.

٣ ـ أن العثمانيين وقفوا مع الأمير عبد العزيز بن رشيد، خصم الملك عبد العزيز؛ خاصة عامي ١٣١٩هـ و١٣٢٢هـ.

٤ ـ أن المنطقة مهمَّة جداً ـ بل ضرورية ـ لأية دولة تقوم في نجد لأنها المنفذ البحري القريب لتجارتها.

٥ ـ أنها غنية بمواردها الزراعية وثروتها السمكية، كما أن موقعها مهم استراتيجياً لطول ساحلها على الخليج.

٦ ـ أن دخولها تحت راية الملك عبد العزيز تعزيز لقوته مادياً ومعنوياً أمام خصومه في جبل شمَّر والحجاز وغيرهم.

وقد رأى ذلك الملك في بداية عام ١٣٣١هـ أن الظروف مناسبة ليوحِّد المنطقة المذكورة لأسباب منها:

١ ـ أن سلطة الدولة العثمانية قد أصبحت ضعيفة؛ لا سيما بعد انهزام قواتها أمام إيطاليا في ليبيا، وانشغالها بالحرب في البلقان.

٢ ـ أن تلك السلطة قد أرهقت السكان المحلِّيين بالضرائب[1]، وعجزت عن حفظ الأمن خارج أسوار مدنهم مما أتاح الفرصة لفئات من البادية أن تعتدي عليهم وتنهب ممتلكاتهم. فأصبحوا يتطلعون إلى من ينقذهم من الوضع الذي هم فيه. وكان الملك عبد العزيز يدرك أن أولئك السكان، الذين عرف آباؤهم ما حقَّقه أسلافه من حزم وعدل، وما رأوه من صفات قيادية في شخصيته، سيرون فيه القائد الذي يتطلعون إليه.

---

(١) فاسيلييف، **تاريخ العربية السعودية**، ترجمة خيري الضامن وجلال الماشطة، موسكو، ١٩٨٦م، ص ٢٧٤.

٣ ـ أن فئات من بادية الأحساء كانت تقف مع خصومه، ثم تلجأ إلى داخل مدنها عندما يهاجمها.

٤ ـ أن الحسين بن علي التابع للعثمانيين قد ضايق التجار النجديين في الحجاز، ومنع الاتجار بين بلاده ونجد رغم اعتراف الملك عبد العزيز بتبعيته للدولة العثمانية.

٥ ـ أن البوادر توحي بأن بريطانيا ستنجح في إبعاد العثمانيين عن شرقي الجزيرة العربية إن حدثت بينهما مجابهة. فإن أبعدتها عن الأحساء والقطيف فإن من الصعب على الملك عبد العزيز إخراجها منهما.

التخطيط للتوحيد وتنفيذه:

كان الملك عبد العزيز يدرك أهمية منطقة الأحساء والقطيف بالنسبة للدولة العثمانية؛ خاصة أنها تقع في جهات تنافس بينها وبين بريطانيا، وأنها قريبة جدًّا من ولاية العراق. ومع أن تلك الدولة قد مُنيت بهزائم عسكرية، خلال عامي ١٣٢٩ و١٣٣٠هـ، فإنها ما تزال قوة ذات شأن مقارنة بالقوى الإقليمية في الجزيرة العربية، ومجابهتها ليست بالأمر اليسير. وبالإضافة إلى ذلك فإن قواتها في هذه المنطقة توجد داخل بلدان وقلاع محكمة الأسوار جيدة التحصين. أما فئات البادية هناك فكانت مستفيدة من الوضع الذي آل إليه وجود تلك القوات؛ وهو عدم مقدرتها على حفظ الأمن خارج أسوار مدن المنطقة، بحيث أصبحت تلك الفئات تعتدي وتنهب دون رادع. وهي لذلك ستعارض تغيير ذلك الوضع لئلا تفقد ما بدأت

تحصل عليه من مكاسب. ولكل ما سبق فإنه كان لا بد للملك عبد العزيز من تخطيط بارع لتحقيق هدفه المنشود في انتزاع تلك المنطقة من العثمانيين وتوحيدها مع ما وحَّده من أقاليم نجد.

لقد أدرك الملك عبد العزيز أن من الأفضل له أن تكون مدينة الهفوف في الأحساء الهدف الأول في محاولة انتزاع المنطقة من القوات العثمانية. ذلك أنها قاعدة تلك المنطقة ومركز الثقل لهذه القوات، ومتى انتزعها سهل عليه انتزاع ما سواها. ثم إنها بعيدة نسبياً عن الساحل بعكس القطيف التي هي ساحلية. ولذلك لن يكون من السهل إمداد تلك القوات، بحراً إن حاولت المقاومة. ولكنه أدرك، أيضاً، أنه لن يتمكن من دخول تلك المدينة عن طريق مجابهة مكشوفة بينه وبين قوات العثمانيين، التي تملك من أسلحة الدفاع ما لا قِبَل له به. ولهذا فإنه لا بد من التخطيط لدخولها بعملية خاطفة جريئة، غاية في سرِّية الحركة، ودقة التنظيم والانضباط، وبراعة التنفيذ، حتى تحقق المفاجأة الكاملة لتلك القوات وتصيبها بالشلل التام عن القيام بأي عمل جدي في المقاومة. وبالإضافة إلى ذلك فقد أدرك أن نجاح أية محاولة لتحقيق هدفه مرهونة، بدرجة كبيرة، بحلِّه مشكلة فئات بادية تلك المنطقة التي سبقت الإشارة إلى استفادتها من أوضاعها القائمة حينذاك. فكيف تعامل الملك عبد العزيز مع كل ما سبق؟

مهَّد لعملية توحيده المنطقة المذكورة بعدة خطوات ذكية. منها أنه اتصل بمن يثق بهم من أهل الأحساء ليمدُّوه بالمعلومات الدقيقة عن

وضع القوات العثمانية؛ عدداً، وعدَّة، وتحصيناً، وحركاتٍ يومية؛ إضافة إلى معنويات أفرادها، وليهيئوا له ما يمكن أن يحتاج إليه من الوسائل الميسِّرة لدخوله البلدة عندما يقرر دخولها [١]. ومن تلك الخطوات أنه استعمل وسيلة التعمية للمسؤولين العثمانيين في المنطقة. فقد ذهب إليها بأتباعه. ولما اقترب من أسوار الهفوف سأله أولئك المسؤولون عن هدفه من اقترابه، فقال: إنه قدم إلى المنطقة لمعاقبة بعض فئات من البادية اعتدت على قوافل تجارية تابعة لأنصاره. وما دام قد أتى لهذا الغرض فإنه يودُّ أن يدخل أتباعه البلدة ليتزوَّدوا بما هم في حاجة إليه من أطعمة وغيرها. وقد دخل أولئك الأتباع تلك البلدة، واشتروا ما أرادوا شراءه. ومن المرجَّح أن الملك عبد العزيز قد كلَّف عدداً منهم بدراسة الأوضاع هناك على الطبيعة إضافة إلى ماكان لديه عنها من معلومات أمدَّه بها من هم أهل ثقته من أبنائها. ثم عاد إلى الرياض تاركاً أكثر أتباعه في الخَفْس [٢]. وهو في تلك الخطوة قد أعطى نوعاً من الطمأنينة للمسؤولين العثمانيين في المنطقة بأنه يتعامل معهم تعاملاً سلميا.

ومن تلك الخطوات الذكية، أيضاً، أنه أغرى زعماء قبيلة العجمان بالغزو معه ضد قبيلة مُطَيْر، التي كانت حينذاك على غير وفاق معهم، وواعدهم في مكان معيَّن بعيد نسبياً عن الأحساء؛ وذلك

---

(١) الريحاني، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٨؛ الذكير، نسخة خاصة، ص ١٠٠.

(١) الريحاني، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٥؛ الذكير، نسخة خاصة، ص ٩٩.

محاولـة منه لإبعاد أولئك الزعمـاء عن منطقة ميدان العمليـة التي هو مقدم عليها لئلا يكونوا حجر عثرة في سبيله[١] .

وبعد أن تلقَّى الملك عبد العـزيز ما أمدَّه بـه أهل ثقته في الأحساء من معلومـات وافية عن أوضـاع القوات العثمانيـة فيها ، وهيَّأوا لـه ما طلبه منهم من وسـائل ميسِّرة لدخولـه الهفوف[٢] ، وتيقَّن من ذهـاب زعماء قبيلـة العجمان إلى المكـان الذي واعـدهم فيه خـارج منطقة الأحسـاء ، اطمأن إلى أنه قـد أعدَّ كـل عوامل النجـاح لتنفيذ عمليـة تـوحيده تلك المنطقـة . وبناء علـى ذلك انطلق بأتباعـه من الخفس مسرعـاً حتى وصل فجأة أمام أسوار مـدينة الهفوف ، (انظر الخـريطة رقم ١١) . هـدفه الأول في تلك العمليـة التوحيـدية . وكـان ذلك في جمـادى الأولى عـام ١٣٣١هـ (١١/ ٤/ ١٩١٣م) [٣] ، ولم يكـن أولئـك الأتباع كثيـري العدد[٤] . لكن أغلبهم كـانوا من الحـاضرة ؛

---

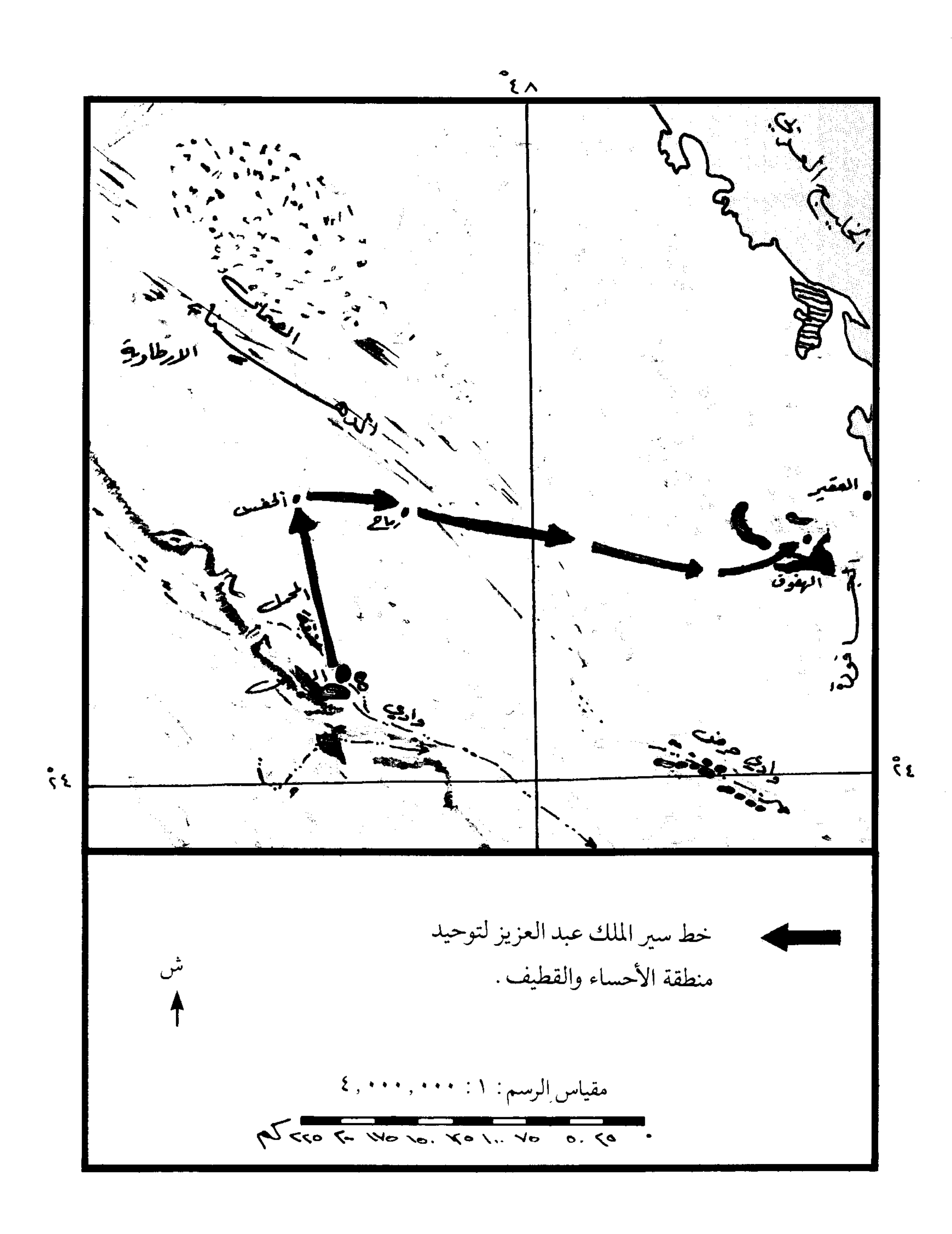
(١) ابن هذلول ، مصدر سبق ذكره ، ص ٩٨ .

(٢) وضعوا لـه تلك الوسائل في إحدى مـزارع النخيل خارج سور البلدة . الـذكير ، نسخة خاصة ، ص ١٠٠ .

(٣) ذكر كـلٌّ من الريحانـي (مصدر سبق ذكـره ، ص ٢٠٨) وابن هذلول (مصـدر سبق ذكره ، ص ٩٩) وآل عبـد القادر (مصدر سبق ذكـره ، ج١ ، ص ٢٠٨) أن ذلك كان ليلـة الخـامس من الشهـر المذكـور. وقـال كلٌّ من القـاضي (مصـدر سبق ذكـره ، ص ٤٣) والـذكير (نسخـة خـاصـة ، ص ١٠٠) وفاسيلييف (مصـدر سبق ذكـره ، ص ٢٧٥) وترولر (وترجمة عنوان كتابه **مولد العربية السعودية** ، لندن ، ١٩٧٦م ، ص ٤٣) : إن ذلك حدث ليلة الثامن والعشرين من ذلك الشهر.

(٤) قدَّرهم ابن هذلول (مصدر سبـق ذكره ، ص ص ٩٩ ـ ١٠٠) بست مئة من الحضر ، وأربع مئة من البادية .

خريطة رقم (١١)



٤٨°
٢٤°
٢٤°
الخليج العربي
الصمان
الأرطاوية
الدهناء
الحفس
رماح
العقير
الهفوف
خط سير الملك عبد العزيز لتوحيد
منطقة الأحساء والقطيف.
ش
مقياس الرسم : ١ : ٤,٠٠٠,٠٠٠
كم

خاصة أهل العارض والخرج. وتختلف المصادر في تفصيلات ديفيه دخوله بهم تلك المدينة وسيطرته على مقاليد الأمور فيها، لكنها تكاد تتفق على أنه قسمهم إلى قسمين: الأول يدخل المدينة بقيادته؛ وعماده الحاضرة. والثاني يبقي خارجها بقيادة الأمير عبدالله بن جلوي - ويتكوَّن من البادية - وذلك لحماية ظهور الداخلين إلى المدينة من أي هجوم قد تحاول القيام به عناصر ترى من مصلحتها ألاَّ يحدث أي تغيير في المنطقة.

بعد غروب الشمس بثلاث ساعات أعطى الملك عبد العزيز أتباعه الأوامر التي يجب عليهم أن ينفِّذوها خلال عملية دخول المدينة والاستيلاء على مقاليد الأمور فيها. وكان مما أمرهم به ألاَّ يجيبوا من يكلِّمهم مستفسراً عن شأنهم؛ حرصاً منه على استمرار عدم معرفة خصومه بما يحدث، وأن عليهم أن يحاربوا من حاربهم فقط، ولا يدخلوا البيوت[1]. ثم تقدَّم بأولئك الأتباع سيراً على الأقدام يحملون أسلحتهم وما يحتاجون إليه من حبال وسلالم وغيرهما. وقد قسمهم إلى ثلاث مجموعات تقوم كل واحدة منها بمهمَّة معيَّنة:

الأولى: تتوجه إلى البوَّابة الجنوبية لتستولي عليها من حراسها.

والثانية: تتفرق لتستولي على أبراج السور.

والثالثة: تتجه إلى السرايا، أو قصر المتصرف، لتحاول القبض عليه إن كان فيه[2].

---

(١) الريحاني، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ص ٢٠٨ - ٢٠٩؛ ابن هذلول، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٠.

وبعد ذلك وضعت السلالم على سور المدينة، فصعد بها عدة أفراد، وأدلوا الحبال إلى الآخرين، فصعد بها عدد منهم، وتكاثر الداخلون إلى الكُوْت - قلب تلك المدينة - ثم عُمِلت فتحة مناسبة في ذلك السور، ودخل عبرها الملك عبدالعزيز وباقي أتباعه. وراحت المجموعات الثلاث تنفِّذ المهمَّة الموكولة إليها بدقة وانضباط. واستولت على بعض حصون السور الجنوبية والشمالية الغربية. لكن الحصون الأخرى بقيت في أيدي العثمانيين، الذين أدهشتهم المفاجأة، فأخذ بعضهم يطلق النار على غير هدى. أما أكثر الجنود فقد سارعوا إلى الاعتصام بقصر إبراهيم[1]، الذي كان فيه المتصرف نفسه. وقد أمر الملك عبد العزيز رجاله أن ينادوا من أعلى سور المدينة وفي طرقاتها: أن «الملك لله ثم لعبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل. فمن أراد العافية يلزم مكانه»[2].

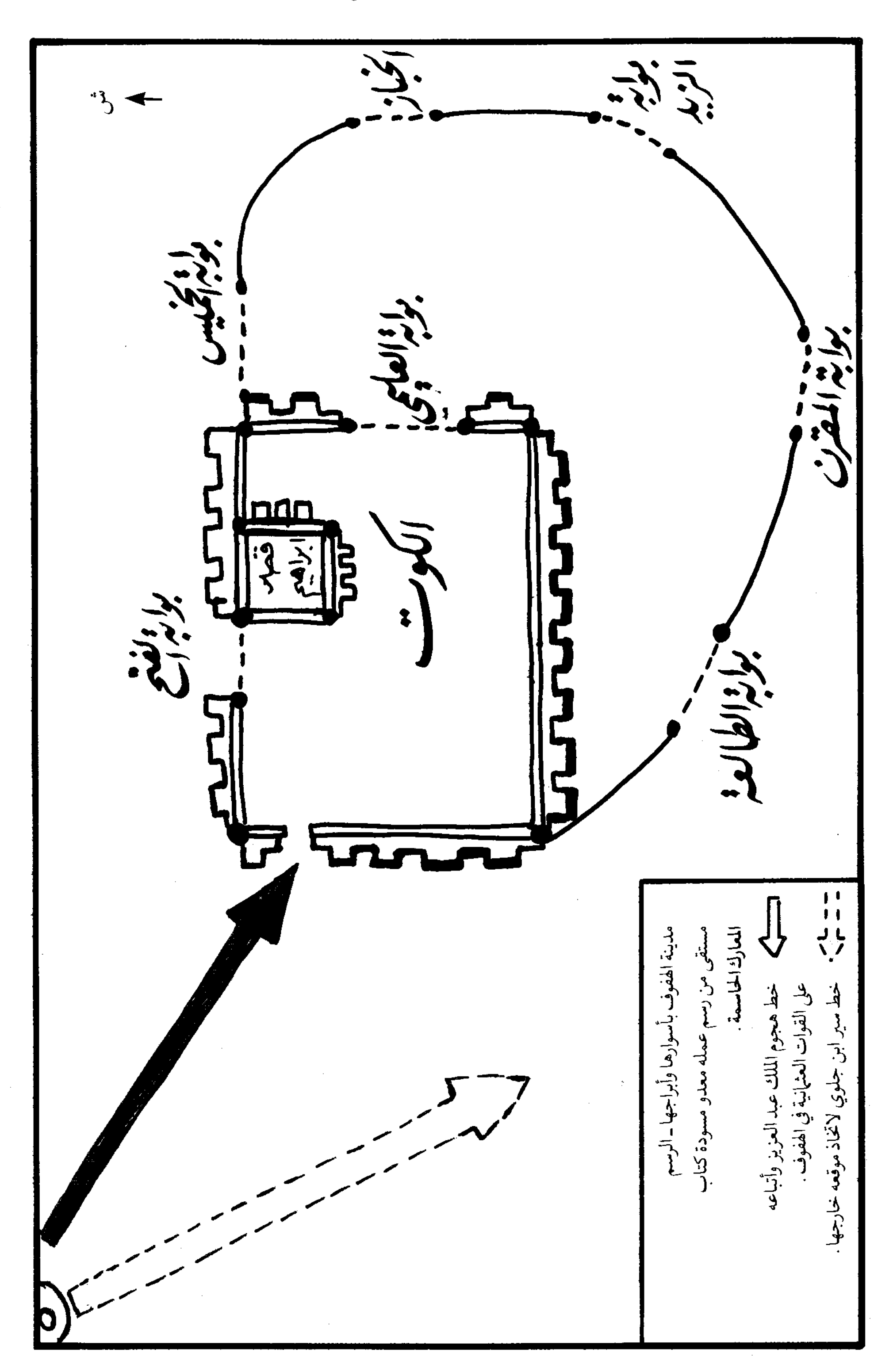
وكان الملك عبد العزيز قد مضى، فور دخوله الكوت، إلى منزل الشيخ عبداللطيف الملاَّ. ولما علم أعيان المدينة بوجوده هناك

---

(١) من المرجَّح أن المراد بإبراهيم إبراهيم بن عفيصان، الذي كان أميراً للأحساء في عهد الدولة السعودية الأولى. وكان له جهود موفَّقة في شرقي الجزيرة العربية، ثم عُيِّن آخر حياته أميراً لعنيزة، فتوفي فيها عام ١٢٢٩هـ. ولا تعني تسمية القصر بقصر إبراهيم أن ذلك الأمير قد بناه. بل الأرجح أنه سُمِّي به لأنه كان على رأس الذين صمدوا فيه أمام حصار علي باشا، مساعد والي بغداد، عام ١٢١٣هـ. انظر ابن بشر، مصدر سبق ذكره، ج١، ص ١٥٩.

(٢) الريحاني، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٩.

صورة مدينة (الهفوف)



سارعوا إليه، وبايعوه بالحكم[1]. ثم أرسل مندوباً من قبله إلى المتصرف يخبره بأن عليه أن يستسلم وإلا فإنه سيهاجمه[2]. فقبل المتصرف أن يستسلم بشرطين: أولهما: الأمان على أنفس رجاله وأموالهم وجميع ما لديهم من سلاح وذخائر. وثانيهما: أن يكتب أعيان البلاد كتاباً بأنهم لا يريدون بقاء عسكر الدولة لديهم. فقبل الملك عبدالعزيز الشرط الثاني، كما قبل أن يخرج رجال الحامية بسلاحهم الشخصي فقط. فرضي المتصرف بذلك، واستسلم هو ورجاله[3]. ثم قام الملك عبدالعزيز بترحيلهم إلى العُقَير، فالبحرين. وبعد ذلك بعث سريَّة، بقيادة عبدالرحمن بن سويلم، إلى القطيف، فتمكنت من دخولها دون صعوبة[4]. وبذلك تمَّ توحيد منطقة الأحساء والقطيف تحت راية الملك عبد العزيز.

---

(١) الذكير، نسخة خاصة، ص ١٠٠؛ آل عبد القادر، مصدر سبق ذكره، ج١، ص ٢٠٨.

(٢) اختلفت المصادر في ذلك المندوب. فالريحاني (مصدر سبق ذكره، ص ٢١٠) يقول: إنه ضابط تركي أسره أتباع الملك. وتابعه في ذلك ابن هذلول، (مصدر سبق ذكره، ص ١٠١). وآل عبد القادر (مصدر سبق ذكره؛ ج١، ص ٢٠٨) يذكر أنه الشيخ أبو بكر الملاَّ. أما الذكير (نسخة خاصة، ص ١٠٠) فيقول: إنه محمد أفندي، الذي كان أميناً للصندوق عند العثمانيين، والذي أتى إلى الملك وبايعه وسلَّمه مفاتيح ذلك الصندوق.

(٣) الذكير، نسخة خاصة، ص ١٠٠. ومن المرجح أن المتصرف أراد باشتراطه كتابة الأعيان بأنهم لا يريدون بقاء عسكر الدولة لديهم أن تعذره السلطات العثمانية العليا. على أن آل عبد القادر (مصدر سبق ذكره، ج١، ص ٢٠٨) يذكر أن المتصرِّف استشار المندوب الذي بُعِث إليه، فأشار عليه بالتسليم معلِّلاً ذلك بأن السكان لا يرغبون في بقاء قواته.

(٤) الذكير، نسخة خاصة، ص ١٠١.

الهجوم العثماني المضاد وفشله:

كانت العملية الجريئة المتقنة التي قام بها الملك عبد العزيز، واستولى بها على مدينة الهفوف، مفاجأة مدهشة للقوات العثمانية في هذه المدينة. ولم يكن أمام قادتها إلا قبول الاستسلام للأمر الواقع؛ إذ إن أية محاولة لتغييره في ظل تلك الظروف محاولة محكوم عليها بالفشل الذريع. غير أن ما حدث قد ساءهم بدرجة كبيرة. ولذلك راودتهم فكرة العودة من البحرين إلى الأحساء لاستعادتها. ومن المحتمل جداً أن هناك من أغراهم بتلك العودة[1]. فتوجهوا إلى العُقَيْر، الميناء الذي كان الملك عبد العزيز قد وضع فيه سريَّة من خيرة أتباعه. فلما وصل الجنود العثمانيون إلى ذلك الميناء بعث قائد السريَّة إلى الملك من أخبره بما حدث، وصمد مع رجاله أمام المهاجمين. بل إنهم تمكنوا من أسر أعداد منهم. وسارع الملك متوجهاً إلى هناك نجدة لتلك السريَّة. فلما رأى المهاجمون العثمانيون طليعة خيل هذه النجدة وثبوا إلى سفنهم عائدين إلى البحرين[2].

---

(١) القاضي، مصدر سبق ذكره، ص ٤٤. وقد اتَّهم هذا المؤلف القنصل البريطاني بذلك. ومن المرجح أن ذلك القنصل لم يكن الوحيد في الإغراء والتشجيع.

(٢) المصدر نفسه، الصفحة ذاتها؛ الذكير، نسخة خاصة، ص ١٠١؛ ابن هذلول، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٢.

ومكث الملك عبد العزيز فترة في الأحساء حتى اطمأن إلى استتباب الأمور فيها. ثم عيَّن الأمير عبد الله بن جلوي أميراً عليها، وعاد إلى الرياض في العشر الأواخر من رمضان[1].

ولقد أدرك القادة العثمانيون بعد نجاح الملك عبد العزيز في منطقة الأحساء والقطيف، ثم فشل قواتهم في محاولة العودة إليها، أن من الأفضل لهم أن يغيِّروا سياستهم تجاهه. ولعلَّ مما شجعهم على ذلك، أيضاً، أن الوكيل السياسي البريطاني في البحرين قد اجتمع به في العقير أوائل عام ١٣٣٢هـ[2]، فخافوا من توثُّق علاقة البريطانيين به. فأرسلوا إليه وفداً برئاسة طالب النقيب، واجتمع به في الصُّبَيحية، واتفق معه على أمور من أهمها: اعترافه بالسيادة العثمانية مقابل مساعدته بالمال والسلاح. وقد صدَّق الباب العالي على ذلك الاتفاق، وشكر الملك عبد العزيز على حسن تصرفه تجاه العثمانيين، ومنحه نيشاناً عثمانياً من الدرجة الأولى[3]. على أن قيام الحرب العالمية الأولى حال دون تنفيذ ما اتُّفِق عليه على أية حال.

---

(١) القاضي، مصدر سبق ذكره، ص ٤٤.

(٢) المصدر نفسه، الصفحة ذاتها؛ فاسيلييف، مصدر سبق ذكره، ص ٢٧٦.

(٣) الذكير، نسخة خاصة، ص ١٠٤. ولمزيد من التفصيلات عن اجتماع الصُّبَيحية وما نتج عنه يمكن الرجوع إلى خالد السعدون، **العلاقات بين نجد والكويت: ١٣١٩ ـ ١٣٤١هـ**، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٠٣هـ، ص ص ١٤٥ ـ ١٥٠، وحسين خزعل، **تاريخ الكويت السياسي**، بيروت، ١٩٦٢ ـ ١٩٦٥م، ج ٢، ص ص ١٩٦ ـ ٢١٢.

الدروس المستفادة:

١ ـ أهميَّة معـرفة القائد بالظروف المحيطـة به سياسياً وعسكـرياً ليكون تخطيطه للمعركة التي يريد خـوضها سليماً، ويكون تنفيذه لما يخطِّطه ناجحا. وقد ظهرت تلك المعرفة في فهم الملك عبد العزيز لمجريات الأمور السياسية في منطقة الخليج وخارجها، ومعرفته بمقدرة القوى المتنـافسة في هـذه المنطقـة وعلى مستوى أوسـع منها. فقـد علم أن بـريطانيـا والـدولة العثمانيـة هما الـدولتان اللتـان لهما ثقل واضح في الخليج وما يجاوره شمالاً وغربـاً من أقطار. وعلم، أيضاً، أن الأولى قـد أصبحت أقـوى من الثـانيـة؛ خـاصـة في المجـال العسكـري البحـري. ومن هنا حـرص على كسب ثقتهـا بما رآه محققا لمصلحتـه الـوطنية في نهايـة المطاف. وقـد أدرك أن سلطة العثمانيين في منطقـة الأحساء والقطيف قد باتت ضعيفة قبـل إصابة دولتهم بهزيمة أمام إيطاليـا وانشغالها بالحرب في البلقـان بحيث أظهر أن في استطـاعته انتـزاع تلك المنطقـة منهم لـو ضمنت لـه بـريطـانيـا أن تقف ضـد محاولتهم استعادتها عن طريق البحـر. لكن عدم حصوله على ذلك الضمان جعله ينتظـر فرصـة مناسبـة يتمكن فيها بقـواته الـذاتية من انتـزاع المنطقـة منهم والتصدِّي لمحـاولتهم استعـادتها. وأتتـه تلك الفرصـة بعد أن حـدث ما حدث لهم في ليبيـا والبلقان؛ إضـافة إلى احتدام تمرُد فئات البادية المحلِّية عليهم.

٢ ـ أهميَّـة اختيـار القـائد لزمن المعـركة لتحقيق النصر على الخصم. وقد اتضح ذلك في اختيار الملك عبـد العزيز عام ١٣٣١هـ لتنفيذ

هـدفه المتمثِّـل في توحيـد المنطقـة المذكـورة لأن وضع القـوات العثمانية المـوجودة فيها قد أصبح ضعيفاً بـدرجة كبيرة. واتّضح، أيضاً، في اختيـاره الليل وقتاً للهجـوم على تلك القوات. ذلك أن الليل أفضل ستـار للحركـة وأحرى وقت تـؤخذ فيه قـوات الخصم على غرَّة؛ إذ سيكون أغلب أفرادها نائمين(١).

٣ ـ أهميَّـة التمـويـه على الخصـم إخفاء للـهدف الحقيقـي. وذلك لإحداث المفاجأة الكـاملة له، وبالتالي إرباكه وشـلِّ حركته. وقد تجلَّى ذلك التمويـه في أمرين: أولهما ذهاب الملك عبـد العزيز إلى منطقة الأحسـاء مؤدبـاً لفئات من باديتهـا قامت بـاعتداء على قوافل تجـارية تابعـة له. ومع أن هـذا كان مهماً في حـد ذاته فإن ذهابه استهدف أمراً آخر وهو أن يظهر للمسؤولين العثمانيين هناك أن أية حركـة يقوم بها صوب تلك المنطقة هـدفها تأديب المعتدين من البـادية لا الـوجـود العثمـاني. ولكي يزيـد أولئك المسـؤولين طمأنة أدخل بعض أتباعه إلى مـدينـة الهفوف للتـزوُّد بـالأطعمة وما يحتاجون إليه. وثانيهما: أنه أوهم زعماء العجمان بأنه سيتَّجه إلى قتال خصـومهم من قبيلة مطير، وعيَّن لهم مكـاناً يجتمعون بـه فيه كي ينطلقوا للهجوم على أولئك الخصوم.

---

(١) المتأمل في تـاريخ الجـزيـرة العربيـة خـلال تلك الفتـرة يرى أن كثيـراً من المعـارك الناجحة قد نفِّذت ليلاً؛ أي أنها ـ كما يقـال محلِّيا ـ هجاد. ومن أمثلة تلك المعارك معـارك الملك عبد العـزيز النـاجحة فـي الريـاض عام ١٣١٩هـ، وفي عنيزة عـام ١٣٢٢هـ، وفي روضة مهنَّا عام ١٣٢٤هـ.

٤ ـ أهميَّة الاستخبارات العسكرية، أو حصول القائد على المعلومات الدقيقة عن خصمه، في اتخاذ الاستعدادات اللازمة لبلوغ الهدف. وقد ظهرت تلك الأهميَّة في حرص الملك عبد العزيز على الاتصال بمن يثق بهم من أهل الأحساء ليبيِّنوا له أوضاع القوات العثمانية هناك من جميع الوجوه المادية والمعنوية والتسليحية والحركية. فكان لتلك المعلومات أثر كبير في سلامة تخطيطه ونجاح تنفيذه.

٥ ـ أهميَّة مشاعر السكان المحلِّيين إيجاباً أو سلباً في سير المعارك. وقد ظهرت تلك الأهميَّة إيجاباً في تعاون حاضرة سكان منطقة الأحساء والقطيف، بصفة عامة، مع الملك عبد العزيز؛ إمداداً له بالمعلومات، وتهيئة لما يساعده في تنفيذ هدفه، ثم في لزومهم الهدوء بعد دخوله الهفوف استجابة لأوامره، وفي مسارعتهم إلى مبايعته. وظهرت تلك الأهميَّة سلباً بالنسبة للقوات العثمانية بتعاونهم مع خصمها؛ أملاً في أن يتحقق على يديه ما فقدوه في ظل تلك القوات من حزم وعدل.

٦ ـ أهميَّة مفاجأة الخصم في تحقيق الانتصار عليه، وبلوغ الهدف المنشود بأقلِّ ما يمكن من خسائر. وقد تجلَّت تلك الأهميَّة في مقدرة الملك عبدالعزيز على دخول الكُوْت في وقت لم يدر في خَلَد قادة القوات العثمانية أن هجوماً ما سيُشَن عليهم، وبطريقة لم يفكروا في إمكانيتها. وبذلك حدثت المفاجأة الكاملة لهم، وتحقق النصر التام عليهم. ثم إن تحقيق هذا النصر تمَّ بخسائر

مادية قليلة جداً لا من أفـراد القوات المهاجِمـة فحسب، بل ومن المهاجَمين أيضا [1].

٧ ـ أن القـوة المـاديـة ليست العامل الأهم في كسب المعارك، وإنما الأهم الإيمان بالهدف من القتال، والمقدرة على استخدام ما توفَّر من إمكـانات استخـدامـاً جيدا. وقـد بـدا ذلك جلياً في انتصـار الملك عبد العزيز، الذي كانت قوته المادية أقلَّ من قوة العثمانيين في الأحساء عدداً وعدة؛ إضافـة إلى كون القوات العثمانية تحتمي بأسوار منيعة. لكن استخدامه الجيد لإمكاناته كان عاملاً كبيراً في تحقيق ذلك الانتصار.

٨ ـ أن العـامـل النفسـي مهمٌّ في المعـارك. وقـد استخـدمـه الملك عبد العزيز فـي معركة الأحساء استخداماً رائعا. من ذلـك ما ذكرته الروايـات الشفهية من محاولتـه أن يكون أول رجل يصعـد السلالم لتسلُّق سـور المدينـة. فكانت تلك المحـاولة ممـا أجَّج حماسـة أتبـاعه، فـدفعـه أحـدهم قائلا: «مـوتك مـوت للمسلمين»[2]، وصعد السُّلَّم ثم تبعه الآخرون باندفاع عظيم.

---

(١) قُدِّر عـدد الذين قُتِلوا من الجنـود العثمانيين بخمسة وعشرين. الـزركلي، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ٢٠٦. وكان من قُتِل من أتباع الملك أقلَّ من ذلك العدد.

(٢) يقـال: إن ذلك الرجل هـو الشجـاع عبد الله النفيسـة، الملقَّب بعـد تلك الحادثـة «عمعوم»؛ إشارة إلى إقدامه دون اكتراث أو تردُّد.

الفصل الثامن

معركة جراب

سنة ١٣٣٣هـ/ ١٩١٥م

الموقف العام :

بدأت الحرب العالمية الأولى عام ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م . وكانت بريطانيا ضد الدولة العثمانية في تلك الحرب التي شملت دولاً أخرى[١] . وقد سبقت الإشارة إلى ظهور بوادر ضعف سلطات الدولة الأخيرة في ولاياتها النائية عن عاصمتها ؛ ومنها شرقي الجزيرة العربية ، قبل بداية تلك الحرب ، وكيف كان هذا الضعف عاملاً من عوامل تدهور وضع سلطتها في منطقة الأحساء والقطيف أمنياً ومعنوياً ، كما كان عاملاً من عوامل عزم الملك عبدالعزيز على انتزاعها من تلك السلطة ، وسبباً من أسباب نجاحه في ذلك . على أن قادتها أدركوا عدم فائدة محاولة استعادة تلك المنطقة منه ، ورأوا ما أبداه تجاههم من سياسة مرنة من حيث تعامله الحسن مع جنودهم ، ومن حيث استعداده للاعتراف بالتبعية الاسمية لهم ، فتوصلوا معه إلى اتفاق الصُّبَيحية المشار إليه سابقاً . وعلى أية حال فإن قيام الحرب العالمية حال دون تنفيذ ذلك الاتفاق ، وأدَّى إلى عودة مساعدة تلك الدولة لإمارة آل رشيد ، التي رمت بثقلها معها .

أما بريطانيا فراحت تعمل جاهدة لتكييف سياستها في الجزيرة العربية وما حولها مع الظروف المستجدة . كانت ترفض إقامة

---

(١) كانت تلك الحرب بين ألمانيا وحلفائها النمسا والمجر وبلغاريا والدولة العثمانية ، وبين دول التحالف : بريطانيا وفرنسا وبلجيكا و إيطاليا وروسيا والبرتغال وصربيا ورومانيا ، ثم انضمَّت إلى هذه الدول الولايات المتحدة الأمريكية .

علاقات رسميـة مع الملك عبدالعزيز رغم طلباتـه المتكررة قبل عام ١٣٣٠هـ؛ تمشياً مع سيـاستها المتبعة عقوداً متتـالية، وهي الابتعاد بقدر ما يمكن عما يجري في المناطق الداخلية للجزيرة. لكن توحيد ذلك الملك لمنطقـة الأحسـاء والقطيف أوصل حكمـه إلى سـواحل الخليج المهم جداً بـالنسبة لبريطانيـا. وبات لزاماً عليهـا أن تتعامل معه وفقاً لما فرضه من واقع. بل إنها خشيت أن يكون وصوله إلى هذه السواحـل منطلقاً لمحاولتـه توحيـد ما كـان تحت حكم أسلافـه من مناطق أصبح أكثر حكامها مرتبطاً بها بمعاهدات حماية. ولهذا وذاك راح ممثِّلوهـا في الخليج يتصلـون به تمهيـداً لإقامـة علاقـات معه؛ اعترافاً بالواقع الذي أصبح فيه، ومحاولة لكبح جماحه عن أن يحاول مدَّ حكمه إلى المناطق المشار إليها. وبالإضافة إلى ذلك فإن اندلاع الحـرب العالميـة أملى عليهـا أن تحاول كسبـه هـو وغيره من حكـام الجزيرة العـربية ليكـونوا في صفهـا ضد العثمانيين، أو يتخـذوا مواقف حياديـة على الأقل. وكان في مقدمـة من وكلت إليه مهمة مفـاوضة ذلك الملك الكـابتن شكسبيـر، الـذي أصـرَّ على حضـور معـركـة جُرَاب. وقـد اتخـذ الملك عبـدالعزيز مـوقفاً حيادياً، إلى حـدٍّ كبيـر، بين هـذه الـدولة والعثمانيين. ولكنهـا نجحت نجـاحـاً كبيراً في كسب حاكم الحجـاز، الحسين بن علي، الذي قام بما عُـرِف بالثورة العـربية، وحـارب العثمانيين بجـانبهـا، كما نجحت في كسب حـاكم منطقـة جازان، السيـد محمد بـن علي الإدريسي، الذي عقـد معها معـاهدة،

وحارب العثمانيين أيضا[1]. ولقد تمكنت من الاستيلاء على البصرة في بداية عام ١٣٣٣هـ، ومضت تزحف على مدن العراق الأخرى حتى احتلتها كلها.

الموقف الخاص:

حقق الملك عبد العزيز مكاسب متعددة الجوانب؛ مادياً واستراتيجياً وسياسياً، من توحيده منطقة الأحساء والقطيف مع ما وحَّده من أقاليم نجد. أما المكاسب المادية فمنها زيادة دخل خزينته بدرجة كبيرة نتيجة زكوات محصولاتها الزراعية الوفيرة؛ إضافة إلى زكوات ثروتها الحيوانية لدى باديتها، وما تدرُّه موانئها من جمارك وفوائد. وأما المكاسب الاستراتيجية فمنها زيادة مساحة حكمه وأتباعه زيادة عظيمة، ووصول ذلك الحكم إلى مناطق ساحلية يستطيع من خلالها أن يتعامل مع دول بعيدة وقريبة بدلاً من كونه، قبل ذلك، يحكم أقاليم داخلية فقط. وأما المكاسب السياسية فمن أوضحها اعتراف الدولة العثمانية به حاكماً لنجد ـ ويدخل في مسمَّى ذلك الأحساء والقطيف لديها ـ، ومسارعة بريطانيا إلى الاتصال به لإقامة علاقات رسمية معه. وبالإضافة إلى ذلك فقد أصبح في وضع أفضل من ذي قبل أمام منافسيه، أو خصومه، المحلِّيين كآل رشيد وحاكم الحجاز.

---

(١) كان عقد تلك المعاهدة سنة ١٣٣٣هـ/ ١٩١٥م. الزركلي، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ٢١٩.

وكان متعب بن عبـد العزيز بن رشيد قد خلـف أباه، الذي قُتِل في روضة مهنًّا سنـة ١٣٢٤هـ، في إمارة جبل شمَّر. وقـد مال إلى الصلح مع الملك عبدالعزيز، لكنه لم يستمـر في الإمارة أكثر من بضعة شهور؛ إذ قتله مع أخـويه مشعل ومحمـد أبناء حمود العبيد بن رشيـد: سلطان وسعود وفيصل. أمـا أخوه سعود، الذي كان صغير السـن، فهرب به أخواله آل سبهان إلى المدينة المنورة. وتولَّى سلطان الحمود إمارة الجبل، لكن أخاه سعوداً انتزعها منه عام ١٣٢٦هـ. وفي هذا العام نفسه تمكَّن آل سبهـان، بـالتعاون مع بعض كبـار أهل حـائل، من القضـاء على سعود الحمود وإخـوته، وتولَّى الإمارة سعود بن عبـد العزيز بن متعب تحت رعايتهم. وقـد قام حمود بن سبهان بتصريف شـؤون الإمارة حتى وفاته أواخـر سنة ١٣٢٦هـ. ثم قـام بتصريفهـا زامل بن سبهان حتى سنـة ١٣٣٢هـ. وفي السنـة الأخيرة دبَّـر اغتيـاله سعـود الصـالح بن سبهان، ولم يكن هذا الأخير مثل زامل في رجاحـة عقله، فرمى بثقله ـ نيابة عن الأمير سعـود بن عبد العزيز بن متعب ـ مع الـدولة العثمانية، وأمدَّتـه هذه الدولـة بالمـال والسـلاح. وتوتَّـرت العلاقـات بين الملك عبد العزيز والأمير سعود بن رشيـد حتى أخذ كلٌّ منهما يستعد لمجابهة الآخر.

سير المعـركـة:

كـان للأسلحـة التي أمدَّت الـدولـة العثمـانية بها الأمير سعـود بن رشيـد، وانضمام كثير من فئـات قبيلـة شمَّـر إليـه من داخل الجزيـرة العـربيـة والعراق، أثـر كبير في حماستـه لمقـاتلـة الملك عبد العـزيـز.

فسار بمن انضم إليه من الحاضرة والبادية حتى وصل إلى قُبَة [١] . وما إن علم ذلك الملك ببداية تحركه حتى استنفر أتباعه من الحاضرة والبادية، وتوجه بهم حتى وصل إلى جُرَاب في شهر صفر عام ١٣٣٣هـ[٢]. ثم تحرَّك من هذا الموضع ليهاجم ابن رشيد في قُبَة. لكن هذا الأخير كان، أيضاً، قد تحرَّك من موضعه يريد مهاجمته. ولأن الملك عبد العزيز لم يكن على علم بتحرُّك هذا الخصم عند بداية تحركه هو من جُرَاب كان بعض البادية الذين معه متفرقين نوعاً ما. ففوجيء، بعد بداية سيره بقليل، بوجود ابن رشيد أمامه مستعداً لقتاله؛ وذلك ضحى اليوم الثامن من ربيع الأول (٢٣/ ١/ ١٩١٥م). وسرعان ما بدأت المعركة بينهما [٣]. وكان من الأسلحة التي تلقَّاها ابن رشيد من العثمانيين بنادق حديثة الصنع طلقاتها بعيدة المدى مقارنة بما كان متداولاً من البنادق حينذاك في نجد[٤]. فأحدثت نوعاً من المفاجأة لأتباع الملك عبد العزيز، الذين أصبح رصاص خصومهم يصل إليهم ورصاصهم لا يصل إلى

---

(١) قبة: تقع شرق الأسياح. وقد أصبحت، فيما بعد، مقراً لعبد المحسن الفِرْم من حرب.

(٢) جراب: شمال شرقي الزلفي.

(٣) يذكر الريحاني (مصدر سبق ذكره، ص ٢٢٠) أنه كان مع ابن رشيد ٦٠٠ من الحضر و ١٠٠٠ فارس، ومع الملك عبدالعزيز ١٠٠٠ من الحضر و٣٠٠ فارس. ومن الواضح أن هذا غير دقيق. فعبارته توحي بأن الحاضرة قسم ليس بينهم خيَّالة. وهذا غير صحيح؛ إذ من المؤكد وجود خيَّالة من حاضرة الطرفين. ثم إنه من المرجح أن البادية من العجمان الذين كانوا مع الملك عبد العزيز وحدهم كانوا مئات.

(٤) يقال: إن تلك البنادق الحديثة هي ما يعرف محلياً باسم أم خمس. ومن المحتمل جداً أن ألمانيا زوَّدت بها العثمانيين.

هؤلاء الخصوم. وكان الملك عبد العزيز ومن معه من أقاليم نجد الجنوبية والوسطى أمام ابن رشيد، وأهل لُبْدة [1]، وفئات من شمَّر. فرجحت كفَّتهم على كفَّة من أمامهم. أما أهل القصيم فكان أمامهم أهل القصر[2]، وأهل مغيضة[3]، وفئات من شمَّر. فرجحت كفَّة من أمامهم عليهم، وتقهقروا. ثم تقهقر معهم بقية أتباع الملك عبد العزيز[4].

وفي أثناء التحام المعركة بين الطرفين أغارت فئات من شمَّر على إبل الملك عبد العزيز، وأخذت منها ما استطاعت أخذه. لكن الأكثر إيلاماً بالنسبة إليه أن فئات من البادية التي كانت معه - وفي مقدمتها العجمان - أخذوا ما تمكَّنوا من أخذه من تلك الإبل، ومضوا بها [5]. وكانت قبيلة مطير المتحالفة معه لم تصل إلى ميدان المعركة إلا بعد أن بدأت نتائجها تتضح. فانتهزت الفرصة بالإغارة على إبل ابن رشيد والاستيلاء على أعداد كبيرة منها [6]. (انظر الخريطة رقم ١٢).

---

(١) لُبدة: حي من أحياء حائل.

(٢) القصر: حي من أحياء حائل.

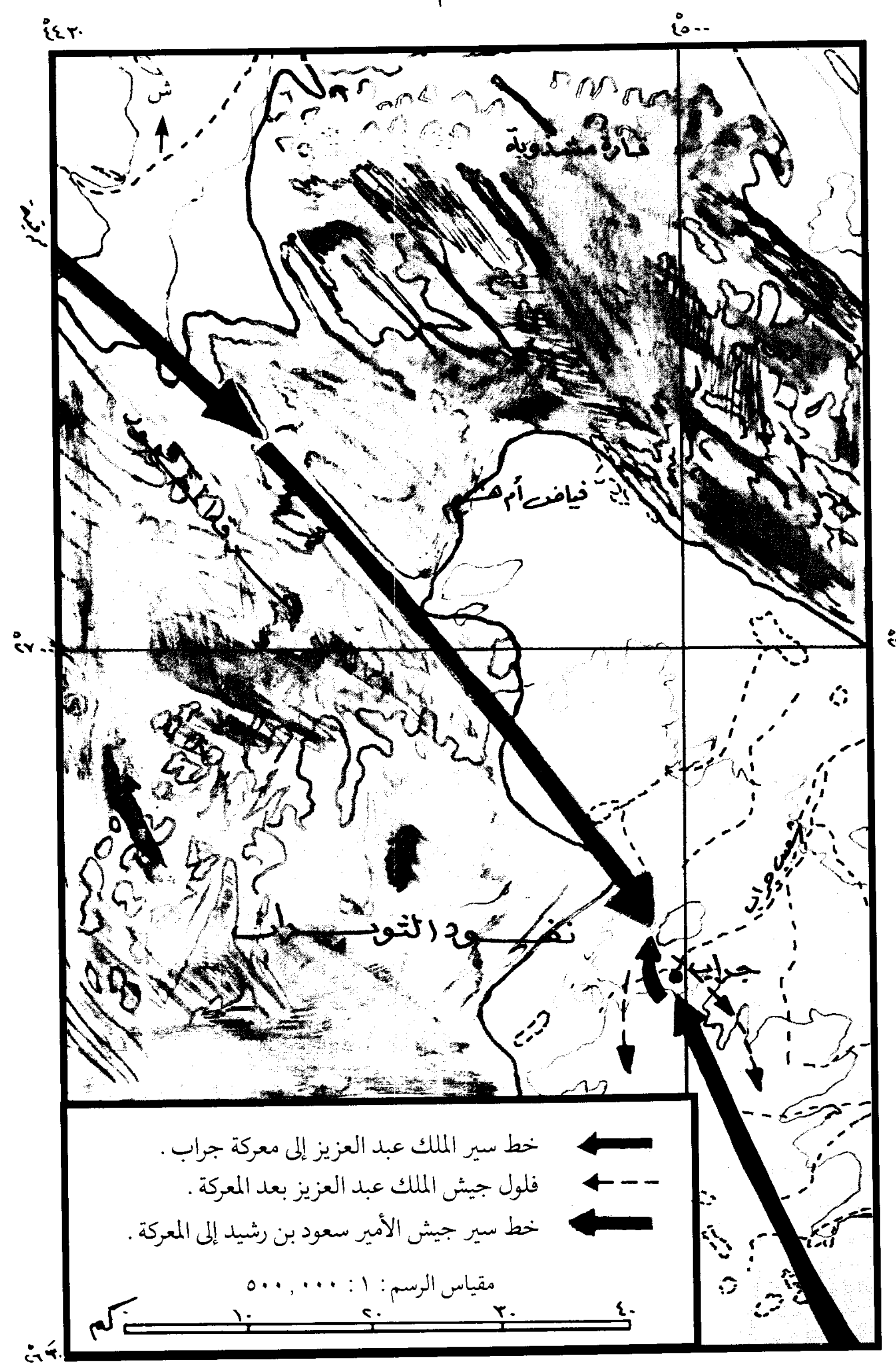
(٣) مغيضة: حي من أحياء حائل.

(٤) القاضي، مصدر سبق ذكره، ص ٤٧؛ الذكير، نسخة خاصة، ص ١٠٧؛ موزل، وترجمة عنوان كتابه: **شمال نجد**، نيويورك، ١٩٢٨م، ص ٢٤٩.

(٥) القاضي، مصدر ذكره، ص ٤٧. ومن المحتمل أن تلك الفئات لم تكن مخلصة للملك. لكن من المحتمل، أيضاً، أنها اعتقدت بأنها إن تركت الإبل فستأخذها شمَّر، ففضَّلت أن تكون لها ما دامت مأخوذة من ذلك الملك على أية حال.

(٦) المصدر نفسه، ص ٤٨.

خريطة رقم (١٢)



٤٤٣٠
٥٠٠
ش
قارة مشذوبة
فياض أم هشيم
نفود الثويرات
جراب
خط سير الملك عبد العزيز إلى معركة جراب .
فلول جيش الملك عبد العزيز بعد المعركة .
خط سير جيش الأمير سعود بن رشيد إلى المعركة .
مقياس الرسم : ١ : ٥٠٠,٠٠٠
١٠
٢٠
٣٠
٤٠
كم

وقد قُتل من أتباع الملك عبدالعزيز عدد من المشاهير بينهم محمد بن عبد الله بن جلوي، ومحمد بن شريدة[1]، وصالح الزامل أمير غزو أهل عنيزة[2]. وكان من بين القتلى الكابتن شكسبير[3].

الدروس المستفادة:

١ ــ أن عدم دقة المعلومات لدى القائد عن خصمه سبب من أسباب عدم انتصاره عليه. ومن ذلك أن الملك عبدالعزيز لم يتمكَّن من معرفة تحرُّك الأمير سعود بن رشيد من موضعه في حينه، فكان أن فوجيء به أمامه وقسم من باديته على غير استعداد للقتال.

٢ ـ أن التفوق في الأسلحة سبب من أسباب النصر في كثير من الأحيان. فقد كان للبنادق الحديثة التي مع ابن رشيد أثر نسبي في النيل من خصومه.

٣ ـ أن وجود فئة من الجيش غير مقتنعة بالهدف العام الذي يقاتل من أجله القائد سبب من أسباب ضعفه. فقد اهتمت فئات معيَّنة من البادية التي مع الملك عبدالعزيز بمصلحتها الذاتية المتمثِّلة في أخذها ما يمكن أخذه من غنائم وإن كانت هذه الغنائم خاصة بمن تقاتل بجانبه.

(١) ابن هذلول، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٥.
(٢) القاضي، مصدر سبق ذكره، ص ٤٨.
(٣) الريحاني، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢٢. ويذكر موزل (مصدر سبق ذكره، ص ٢٤٩) أن الذي قتله إبراهيم النودلي.

الفصل التاسع

معركة كنزان

عام ١٣٣٣هـ / ١٩١٥م

معركة كَنْزان من المعارك المشهورة التي خاضها الملك عبدالعزيز إبَّان مسيرته الطويلة الهادفة إلى لمِّ شعث البلاد تحت رايته. لكنها لم تكن معركة توحيدية مثل أكثر معاركه. ذلك أنها لم تُوَجَّه إلى منطقة يراد توحيدها مع مناطق سبق أن وحِّدت. بل وُجِّهت إلى قبيلة كانت تابعة له تعيش في منطقة داخلة تحت حكمه. وكان الهدف منها تأديبياً أمنيا. على أن هناك صلة وثيقة بين التوحيد والأمن؛ إذ أن الإجراء الأمني عامل موطِّد للتوحيد، وبدون الأمن تتزعزع أركان الوحدة.

لقد حدث من قبيلة العجمان ما حدث في معركة جُرَاب؛ إذ أخذت قسماً من إبل الملك عبدالعزيز مع أنها فئة من فئات جيشه، الذي يفترض أن تكون مقاتلة للهدف الذي يقاتل من أجله ذلك الجيش كله. وبغض النظر عن سبب إقدامها على ما أقدمت عليه فإن عملها قد أغضب الملك عبد العزيز عليها. وبالإضافة إلى ذلك فإنها أخذت تعتدي على قوافل التجارة وفئات من العشائر شرقي الجزيرة العربية وشمالها الشرقي(١). وكان من تلك القوافل ما هو تابع لحاكم الكويت، مبارك بن صباح، وأهلها (٢). فاستنجد ذلك

---

(١) يبدو أنها قد اعتقدت بأن الملك عبدالعزيز غاضب عليها، وأنه سيحاول معاقبتها على أية حال. فلماذا تنتظر تلك المعاقبة دون أن تقوم بما يحلو لها القيام به؟ وربما كان مما شجعها على ذلك خروج الملك عبد العزيز من معركة جُرَاب بوضع أقرب إلى الهزيمة منه إلى الانتصار، وانشغاله بمدافعة ابن رشيد عن القصيم بالذات.

(٢) الذكير، نسخة خاصة، ص ١٠٩؛ ابن هذلول، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٥.

الحاكم بالملك عبد العزيز لردِّ ما أخذته تلك القبيلة منه ومن أتباعه. وبدا من العوامل المشجعة للملك على نجدة ذلك الحاكم ما كان يربط بينهما من روابط تاريخية جعلتهما يتعاونان في كثير من الأحيان. على أنه قد ظهر منه في بعض الأحيان ما لا يتفق مع ما كان يبديه للأول من مودة وصداقة.

ومن تلك العوامل أن حاكم الكويت كان مشمولاً بحماية بريطانيا، التي ازدادت قوتها رسوخاً في المنطقة باستيلائها على العراق قبل معركة جُرَاب. وبما أن قبيلة العجمان تابعة رسمياً للملك عبدالعزيز فإن الدولة البريطانية تحمِّله جزءاً من مسؤولية اعتداء تلك القبيلة على قوافل ذلك الحاكم وأتباعه. غير أن الملك عبدالعزيز قد علم من تجاربه الماضية مع الشيخ مبارك ما جعله يتردد أول الأمر في الموافقة على نجدته. ثم وافق عليها بعد أن عاهده على أن يمدَّه برجال وأسلحة، وألَّا يستقبل فئاتها إن هي لجأت إلى الكويت، وألَّا يتوسط بينه وبينها في الصلح مستقبلا [1].

توجَّه الملك عبدالعزيز إلى منطقة الأحساء لمحاربة الفئات غير المتمشِّية على ما يؤمِّله من قبيلة العجمان. ووصل إلى هناك في شهر شعبان، سنة ١٣٣٣هـ، ومعه مئات من الحاضرة. وانضم إليه آخرون من حاضرة الأحساء وباديتها. ثم انطلق بالجميع لمهاجمة رجال تلك القبيلة ليلاً في كَنْزان. لكن هؤلاء كانوا على علم

---

(١) الريحاني، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢٥؛ خزعل، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٢١٧.

بتحركه، فأوقدوا النيران لإيهامه هو ومن معه بأنهم مقيمون في ذلك الموضع، وانسحبوا عن خيامهم إلى مكامن تحيط بها. وانطلى الأمر على المهاجمين، فراحوا يطلقون نيران بنادقهم بكثافة على ما كانوا يرون أمامهم من خيام وأشجار؛ ظناً منهم أن تلك النيران موجهة إلى رجال القبيلة. ولما كادت ذخائرهم تنفد انقضَّ عليهم العجمان من كل اتجاه، فحلَّت بهم الهزيمة، وجُرح الملك عبد العزيز نفسه جرحاً بليغاً، وقُتِل أخوه سعد. وانسحب المنهزمون إلى مدينة الهفوف، فتعقَّبهم العجمان، وفرضوا حصاراً عليهم في تلك المدينة. وظلَّ الوضع كذلك ثلاثة شهور تقريباً حتى وصلت إلى الملك قوة كبيرة من نجد بقيادة أخيه محمد، وأخرى من الكويت بقيادة سالم الصباح. ثم خرج بمن معه وشنَّ هجمات على العجمان، فانسحبوا من مواقعهم متَّجهين شمالا [١]. (انظر الخريطة رقم ١٣).

الدروس المستفادة:

١ ـ أن عدم معرفة القائد بما خطَّطه خصمه سبب من أسباب هزيمته. وقد ظهر ذلك في استهلاك الملك عبدالعزيز كثيراً من ذخيرته مصوِّباً على أهداف لم يعلم أنها ليست الأهداف التي يريد؛ بل كانت خياماً وأشجارا. وكان نفاد تلك الذخيرة سبباً من

---

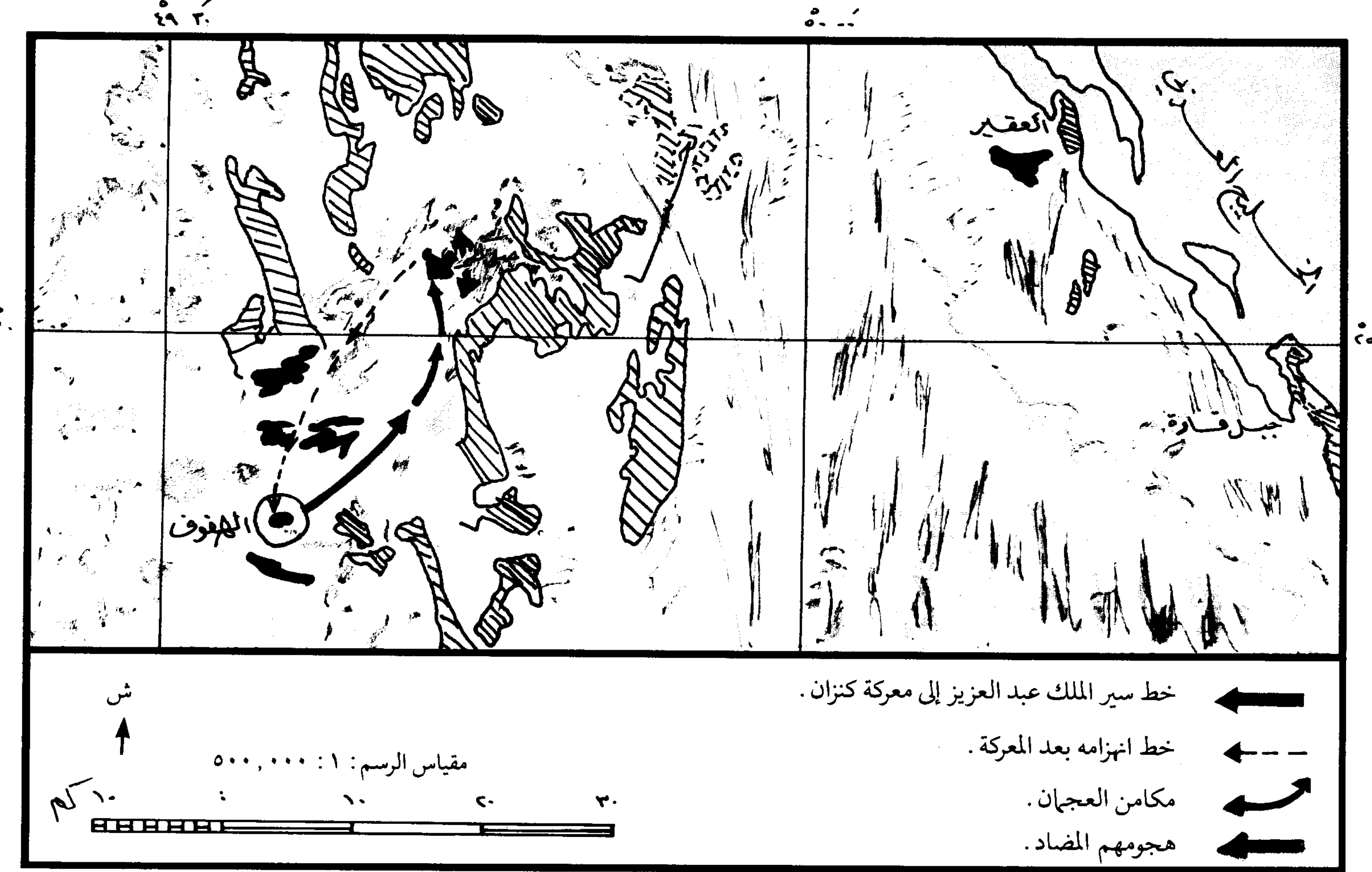
(١) القاضي، مصدر سبق ذكره، ص ٤٩؛ الذكير، نسخة خاصة، ص ص ١٠٨ ـ ١٠٩. على أن الملك عبدالعزيز تغلَّب عليهم فيما بعد، وانضم بعضهم إلى حركة الإخوان، فعادوا جميعا تحت رايته.

أسباب الهـزيمة لـه ولأتباعـه. كما ظهـر ذلك، أيضاً، فـي عدم معرفة ذلك الملك بأن خصومه لـم يكونوا في الموضع الذي ظن، وإنمـا كانـوا محيطين به في اتجـاهـات مختلفة ينتظـرون الفرصـة المناسبة للانقضاض عليه. وكان هذا سبباً مهمًّا في الهزيمة.

٢ ـ أن قتـال الفرد في أرض يعـرفها حـق المعرفة سبـب من أسباب انتصاره. وقد ظهر ذلك في نجاح العجمـان في كَنْزان لأنهم كانوا في أرض هم أعرف بجغرافيتها من خصومهم.

٣ ـ أن حسن التـخـطيط والتمويه على الخـصم عامـلان مهمَّان من عوامـل الانتصار في المعـارك. وقـد ظهر هـذا وذاك في تخطيط العجمان وتمويههم على أتباع الملك عبدالعزيز بإيقاد النيران بين خيامهم كـأنهم موجودون حـولها ممـا جعل هؤلاء الأتبـاع ينفدون كثيراً مـن ذخائرهم دون طائل. وكـانت النتيجة انتصـارَ من خطَّط تخطيطاً حسناً وموَّه على خصمه.

خريطة رقم (١٣)


٤٩ ٣٠َ
٥٠
٢٥ ٣٠َ
الهفوف
العقير
جبل قارة
خط سير الملك عبد العزيز إلى معركة كنزان .
خط انهزامه بعد المعركة .
مكامن العجمان .
هجومهم المضاد .
ش
مقياس الرسم : ١ : ٥٠٠,٠٠٠
٣٠
٢٠
١٠
٠
١٠ كم

تعدُّ معركة تُرَبة من أعظم المعارك التي حفل بها التاريخ العسكري للملك عبدالعزيز. ولعلَّ مما يساعد على فهم أسباب حدوثها، وتوضيح ملابساتها، وإدراك عوامل نتيجتها، إعطاء نبذة عن تلك البلدة مع جارتها المرتبطة بها ارتباطاً وثيقاً؛ جغرافياً وتاريخياً، وهي الخُرْمة.

تقع تُرَبة إلى الجنوب الشرقي من جبل حَضَن، الذي ورد فيه: «من رأى حضناً فقد أنجد»؛ أي أن ذلك الجبل هو الفاصل بين نجد والحجاز. وكان أكثر سكانها من قبيلة البُقُوم، وبينهم أعداد من الأشراف ومن قبائل أخرى. وهي بمثابة بوَّابة للطائف من جهة نجد. أما الخُرْمة فتقع شمال شرق تُرَبة بما يقرب من ثمانين كيلاً. وكان أكثر سكانها من قبيلة سُبَيْع، وبينهم أعداد من الأشراف ومن قبائل أخرى.

ولكل من تُرَبة والخُرْمة تاريخ غني بالأحداث الكبيرة في عهد الدولة السعودية الأولى. ومن الواضح أن سكان تُرَبة قد اقتنعوا بدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، فانضموا، عام ١٢١٢هـ، إلى تلك الدولة التي قامت على أساس هذه الدعوة. ولما حاول الشريف غالب، حاكم الحجاز حينذاك، أن يخضعهم بالقوة تكبَّد هزيمة ساحقة في الخُرْمة على أيديهم وأيدي أعوانهم من القبائل التابعة للدولة المذكورة؛ خاصة قحطان والدواسر، فقُتل من جيشه أكثر من

ألف رجل بينهم عدد من الأشراف[1]. ولما انتزع والي مصر العثماني، محمد علي، مدن الحجاز الكبرى من آل سعود حاول أن ينتزع منهم ما يقع جنوبها وشرقها، فواجه مقاومة باسلة. وكانت تُرَبة بالذات مركزاً عظيماً من مراكز تلك المقاومة [2]. وبذلك يتَّضح أن تعاطف سكان كل من هذه البلدة والخُرْمة مع آل سعود المتبنين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب تعاطف عميق الجذور.

الموقف العام:

سبقت الإشارة إلى أن بريطانيا بذلت جهوداً مكثَّفة عند اندلاع الحرب العالمية الأولى لكسب حكام جزيرة العرب ليقفوا في صفها ضد الدولة العثمانية، أو يقفوا على الحياد بينهما على الأقل، وأنها نجحت في ضم حاكم الحجاز، الحسين بن علي، إلى جانبها بعد أن وعدته بأن يكون ملكاً على العرب إذا انتزعت بلادهم من

---

(١) ابن بشر، مصدر سبق ذكره، ج١، ص ١٥١ ـ ١٥٢. ولخطورة نتيجتها قال عنها أحد شعراء الشريف غالب:

جونا الدواسر مع فريق القحاطين	كِلْنا لهم بالمدّ واوفوا لنا الصاع
الأشراف لانوا عقب ما هم قاسين	والشق ما يرفاه خمسة عشر باع

(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ص ٢١٥ ـ ٦١٦ و٢٢٢. وقد كان لغالية البقمية جهد رائع في مقاومة جيش محمد علي حتى ساد بين أفراد ذلك الجيش أنها لا تُهْزَم. انظر بوركهارت، مصدر سبق ذكره، ص ١٤١.

العثمانيين الأتراك[1]. وقد سارت تلك الحرب لصالح البريطانيين؛ إذ استولوا على العراق خلالها، كما استولوا ـ بالتعاون مع فرنسا وحليفهم الحسين بن علي ومن انضمَّ إليه من الفئات العربية ـ على بلاد الشام وفلسطين. وكانت النتيجة أن تقرر جلاء القوات العثمانية عن بلاد العرب كافة عند إعلان الهدنة للحرب في صفر عام ١٣٣٧هـ.

(١) من المعروف أن ذلك الوعد كان خدعة، وأن العرب المخدوعين فقدوا الشيء الكثير على يدي بريطانيا وفرنسا.

الموقف الخاص :

كان الأشراف قد وصلوا إلى حكم مكة منذ مطلع القرن الرابع الهجري، كما سبق أن ذكر [1]. وقد تعاقبت على ذلك الحكم عدة فروع منهم. وكان ولاؤهم يتذبذب بين مختلف الدول الإسلامية الكبرى إلى أن أصبحوا تابعين للدولة العثمانية.

ولقد وقف أولئك الأشراف من الدولة السعودية الأولى، التي بدأت عام ١١٥٧هـ مناصرة لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، موقفاً عدائياً منذ البداية. وظلَّت علاقاتهم بقادة تلك الدولة تتَّسم بالعداء، بصفة عامة، إلى أن اضطر الشريف غالب إلى الدخول تحت طاعتها. وما إن وصلت قوات محمد علي إلى الحجاز لمحاربتها حتى رمى بثقله معها. وكانت العلاقات بين أشراف مكة وقادة الدولة السعودية الثانية أفضل نسبياً مما كانت عليه في عهد الدولة السعودية الأولى.

وفي عام ١٣٢٦هـ عيَّن العثمانيون الحسين بن علي حاكماً لمكة وما يتبعها من مدن الحجاز وبواديها. وبينما كان الملك عبد العزيز مشغولاً بعدة مشكلات داخلية عام ١٣٢٨هـ فوجيء بوصول الحسين بقواته إلى جهة القُوَيعية، وقبضه على أخيه سعد بن عبد الرحمن. وتوصل الطرفان إلى اتفاق أطلق بموجبه سراح سعد مقابل اعتراف الملك عبد العزيز بتبعيته للدولة العثمانية، وتعهُّده بأن يدفع لها

(١) انظر صفحة ١١ من هذا الكتاب.

مبلغاً من المال كل سنة [1]. على أن الحسين قام بعد عامين من ذلك الاتفاق بمضايقة من كانوا في الحجاز من التجار النجديين، ومنع الاتصال التجاري بين بلاده ونجد، وجعل بلاده منطلقاً لخصوم الملك عبد العزيز[2].

وفي سنة ١٣٣٣هـ بدأ الحسين بن علي نشاطاً واسعاً لتقوية وضعه العسكري مستفيداً من المعونات المالية الطائلة التي راحت بريطانيا تمدُّه بها. ومن ذلك أنه فتح الباب للتجنيد، فانخرط في سلك جيشه مئات من النجديين؛ خصوصاً أهل القصيم، الذين يتبعون من الناحية الرسمية للملك عبد العزيز دون أن يعترض هذا الملك سبيلهم [3]. وفي العام التالي أعلن الحسين ما عُرِف باسم الثورة العربية ضد العثمانيين متعاوناً مع بريطانيا، ومؤيَّداً من الفئات القومية العربية؛ لا سيما في العراق والشام. وبسبب النكسات التي مُنِي بها الأتراك خارج الجزيرة العربية وداخلها على أيدي المتحالفين ضدهم، وقرار جلائهم عن البلاد العربية، أمروا قائد حاميتهم في المدينة المنورة، فخري باشا، أن يسلِّمها للحسين بن علي. وقد صمد ذلك القائد صموداً رائعاً، ولم يمتثل لما أُمر به. لكنه رأى في نهاية

(١) الذكير، نسخة خاصة، ص ٩٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ص ٩٣ و٩٥ - ٩٦.

(٣) القاضي، مصدر سبق ذكره، ص ص ٥١ و٥٣؛ الريحاني، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣٥.

الأمر رجـال حاميته أنفسهم يستسلمـون، فاضطـر إلى الاستسلام في الخـامس من ربيع الأول عام ١٣٣٧هـ[١]. وغنم الحسين نتيجـة ذلك كثيراً من الأسلحة والمعدَّات والذخائر.

وكان الملك عبد العزيز قد حقَّق مكاسب عظيمة مختلفة الجوانب نتيجة تـوحيده منطقة الأحسـاء والقطيف تحت رايته عـام ١٣٣١هـ. ومع أنه لـم ينجح في معركة جُرَاب، التي خاضها مع سعود بن رشيد بعد ذلك بعـامين، ومُنِي بهزيمـة في كَنْزان على أيـدي العجمان في العـام الأخيـر ذاتـه، فإنـه تمكَّن مـن التغلُّب على المشكـلات التي واجهها، وتوصل إلى معاهدة مع بريطانيا عـام ١٣٣٤هـ/ ١٩١٥م، تضمَّنت - بـرغم مـا فيهـا من حـدٍ لحريتـه الخـارجيـة - اعترافهـا بسيادته على ما أصبح تحت يده مـن مناطق، وتعهُّدهـا بحمايته من أي عـدوان خـارجي عليـه. على أن مـا كـان من الأهميَّـة بمكـان لا يضـاهى في تلك الفتـرة هـو قيـام حـركـة الإخـوان المشهـورة، التي أصبحت عاملاً حاسماً في ترجيح كفَّته على كفَّة خصومه.

لقد أدرك الملك عبد العزيز بفكره الثاقب، وتأمُّله لسيرة أسلافـه، وتجاربه خلال السنوات العشر من مسيرة توحيده للبلاد، أن الحاضرة هم العمـود الفقري للمعـارك، وأن الباديـة ليست مضمـونة المـوقف دائمـاً. ومن ثَمَّ جاءت فكـرتـه الرائدة الـذكيـة لتشجيع الباديـة على

---

(١) أحمد السباعي، تـاريخ مكـة، ط ٣، مكـة، ١٣٨٧هـ، ج ٢، ص ص ٢٢٠ - ٢٣١.

الاستقرار على أساس ديني. وبدأت أعداد منهم تستقر في مواطن سَمَّوا كلاًّ منها «هجرة»؛ إشارة إلى هجرهم نمط حياتهم الأولى، وتسمَّوا بالإخوان؛ إشارة إلى أُخُوَّتهم الدينية الإيمانية بدلاً من العصبية القبلية التي درجوا على التمسُّك بها.

وكانت بداية ذلك الاستقرار عام ١٣٣٠هـ في الأرطاوية، التي أصبحت مركزاً لرئيس مطير فيصل الدويش أحد زعماء الإخوان المشهورين. ثم توالى قيام الهجر حتى أصبح لكل قبيلة هجرها. وكان من أعظمها؛ إضافة إلى الأرطاوية، الغُطْغط مركز رئيس برقاء من عُتَيبة، سلطان بن بجاد. ومع أن تكوُّن كثير من تلك الهجر قد تمَّ خلال سنوات الحرب العالمية فإن آثار حركة الإخوان الإيجابية ـ بالنسبة للملك عبد العزيز ـ لم تظهر بشكل فعَّال إلا بعد نهاية تلك الحرب، وبالتحديد في معركة تُرَبة المتحدَّث عنها هنا.

وفي عام ١٣٣٦هـ توتَّرت العلاقات مرة أخرى بين الملك عبد العزيز والملك الحسين بن علي[١]. وكان مركز ذلك التوتُّر قضية تبعية تُرَبة والخُرْمة. فقد كانتا تابعتين إدارياً حينذاك للملك حسين. لكن كثيراً من سكانهما كانوا متحمِّسين للمبادئ التي قام عليها الحكم السعودي؛ وهو أمر سبقت الإشارة إلى عمق جذوره. وكان في طليعة أولئك المتحمِّسين أمير الخُرْمة، الشريف خالد بن منصور ابن لؤي. وقد اجتمعت عدة عوامل لتدفع بهذا الأمير إلى الخروج عن

---

(١) كان الحسين قد تلقَّب بملك منذ إعلانه الثورة على الدولة العثمانية عام ١٣٣٤هـ.

طاعة الحسين في العام المذكور [١]، وتضعه في طريق الانضواء تحت راية الملك عبد العزيز. ومن الواضح أن سكان تُرَبة قد حذوا حذوه. وقد حاول الحسين إخضاعه بالقوة، ووجَّه إليه عدة حملات؛ منها ما كان بقيادة الشريف شاكر بن زيد، لكن خالداً وأتباعه ومن انضمَّ إليهم من الإخوان التابعين للملك عبدالعزيز صدُّوا تلك الحملات بنجاح [٢].

سير المعركة:

عاد الأمير خالد بن لؤي من عند الجيش المحاصر للمدينة المنورة إلى الخُرْمة، فأظهر خلافه مع الملك الحسين بن علي. ولم يتوان

---

(١) يذكر العبيِّد (مصدر سبق ذكره، ص ص ١٨٤ و١٩٦) ـ وكان مقيماً عند خالد بن لؤي حينذاك ـ أن هذا الأمير قدم مع وفد من بلدته إلى الملك عبد العزيز في الأحساء عام ١٣٣٤هـ، فأكرمه الملك، وغضب عليه الحسين لذهابه، فأفهمه أنه قصد تحسين العلاقات مع عبد العزيز كي يسمح لباديته بالرعي في أراضي نجد الواسعة. ومنذ تلك الحادثة بدا النفور بين الحسين وخالد. وفي العام التالي كان خالد مع الأمير عبد الله بن الحسين في حصار المدينة المنورة، وكان شاكر بن زيد يسخر من تديُنه، فاستأذن خالد الأمير عبد الله ليزور أهله في الخُرْمة فأذن له. وبوصوله إلى بلدته أظهر الخلاف مع الحسين.

ويذكر ابن هذلول (مصدر سبق ذكره، ص ١١٤) أن شجاراً حدث بين خالد وفاجر بن شليويح وهما في ذلك الحصار. فلطم الأخير الأول، لكن عبد الله بن الحسين لم يعاقب فاجراً العقاب الذي أمله خالد، فاستأذن في العودة إلى بلدته، وأذن له. ويبدو أن كلاًّ من سخرية شاكر والشجار مع فاجر قد حدثا، فاجتمعا مع أسباب أخرى من أبرزها التوجه الديني لتؤجِّج الخلاف بين خالد والحسين.

(٢) ابن هذلول، مصدر سبق ذكره، ص ص ١١٥ - ١١٦.

هذا الملك في محاولة إخضاعه بـالقوة، لكنه لـم ينجح فيما حاول. وذلك لاستبسـال خالـد وأعوانـه، ومسـاعدة الإخـوان لـه. وبعـد أن استسلمت قـوات العثمـانيين في المدينـة للملك الحسيـن، عـام ١٣٣٧هـ، حصل على أسلحة ومعدات وذخائر كثيرة، فأصبح واثقاً في قدرته على أن يستعيد هيبته في تُرَبة والخُرْمة، ويؤدِّب من خرجوا عن طاعته فيهما. وسارع إلى تجهيـز ابنه عبد الله بجيش مزوَّد بمدافع وأسلحة حـديثة؛ إضافة إلى آلاف من رجـال الباديـة [١]. واجتمـع ذلك الجيـش في عُشَيـرة [٢]، انتظـاراً للأوامـر بالهجـوم على البلـدتيـن المذكورتين. ولما تلقَّـى تلك الأوامر تقدَّم صوب تُـرَبة، فدخلها دون مـقاومة تذكر [٣]، وعـامل أهلهـا بقسوة [٤].

(١) تختلف الروايات في عدد أفراد ذلك الجيش النظاميين وغيرهم، لكن من المرجَّح أن عدده لم يكن أقلَّ من سبعة آلاف.

(٢) عُشَيرة: موقع شرق مكة يبعد عنها حوالى خمسة وسبعين كيلا.

(٣) قال الذكير (نسخة خاصة، ص ١٢٢): إن من أسباب قلَّة المقاومة استخدام الأمير عبـد الله بعضاً من بـاديتها ليـدخلوهـا مـدَّعين أنهم قـدموا إليهـا محـذِّرين منـه، ومستنهضين أهلهـا لقتالـه. فـوثقـوا بهم، وضمُّـوهم إلى من كـانوا في بعض الحصون. فلما دخل البلدة انضموا إليـه ضد أهلها. على أنه من المحتمل، أيضا، أن بعضاً من مقـاتليها كانـوا قد ذهبوا إلى الخُـرْمة ليكـونوا تحت قيادة ابن لـؤي أكبر المستهدفين من قِبَل الأمير عبد الله.

(٤) مما يدل على ذلك ما ذكره الأمير عبد الله نفسـه في رسالة إلى أهل رَنْية متوعِّداً: «ما خفي عليكم ما حلَّ بتربة من ذبحة الرجال وتدمير الأموال..» الزركلي، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ٣٢١.

وكـان الملك عبـد العـزيـز علـى علم جيـد بتحـرُّك جيش الملك حسين منذ أن بدأت فئاته المختلفة تجتمع في عُشَيرة (١). وقد بعث رسالة إلى قائد ذلك الجيش، الأميـر عبد الله بن الحسين، معرباً عن أمله في حلِّ قضية تُرَبة والخُرمة بوسائل سلمية، ومشيراً إلى أن أتباعه لن يتوانـوا في نصرة إخـوانهم من سكانهمـا في الدفـاع عنهما. ولأن الملك حسين يرى تبعيتهمـا له فإنـه صمَّم على إخضاعهما بـالقوة، ورفض مفاوضـة الملك عبد العزيـز بشأنهما (٢). وأمام هـذا الوضع أرسل هذا الأخير طليعة من أتباعه الإخوان من الغُطْغط بقيادة سلطان ابن بجـاد، ومعه فئـة من قحطان بقيـادة حمود بن عمر، لينضمـوا إلى أعوان خالد بن لؤي في الخُرْمة وما حولها، ويدافعوا عنها وعن تُرَبة(٣). وسار هو بعد ذلك بجيش كبير إلى هناك (٤).

ولما علم الملك عبـد العزيز بـاحتلال الأميـر عبد الله بن الحسين لتُـرَبة أرسل إليـه منـدوباً يعـرض عليـه، مـرة أخرى، حلَّ المشكلـة سلماً، لكنـه لم يستجب لعرضـه. ووصـل المنـدوب إلى معسكـر الإخـوان في الغـريف (٥). وذلك عصـر يـوم الـرابع والعشـرين من

---

(١) يقـول الذكيـر (نسخـة خـاصة، ص ١٢١): إن من بين من كانـوا يمـدُّون الملك عبد العزيز بمعلومات عن ذلك التحرُّك أفراداً من النجديين في جيش الحسين.

(٢) ابن هذلول، مصدر سبق ذكره، ص ١١٨.

(٣) الـزركلي، مصـدر سبق ذكره، ج ١، ص ٣٢٠. وتختلف المصـادر في عـدد تلك الطليعة. فمنها ما يجعله ثلاثة آلاف تقريبا. ومنها ما يجعله نصف هذا العدد.

(٤) يقال: إن عدد ذلك الجيش عشرة آلاف أو أكثر بقليل.

(٥) الغريف: موضع بين تُرَبة والخُرْمة يبعد عن الأولى حوالى خمسة وعشرين كيلا.

شعبان سنة ١٣٣٧هـ (٢٤/ ٥/ ١٩١٩م). فأخبرهم، بطريقة مثيرة، عن تعنُّت ذلك الأمير، واستهزائه بهم، وتهديده بغزو نجد. فالتهبوا حماسة، وصمَّموا على مهاجمته قبل طلوع فجر اليوم التالي [١].

وكان الأمير عبد الله بن الحسين قد رتَّب أمكنة جيشه خارج بلدة تُرَبة، فوضع مخيمه الخاص شمال غربها، وفئات البادية شرقاً عن مخيمه شمالاً عنها، والجيش النظامي شرقاً عن هؤلاء، كما وضع سرايا جنوباً عن مخيمه وغرباً عن البلدة. فصار ذلك المخيم محاطاً بثلاث قوى من الشرق والجنوب، والبلدة في الجنوب الشرقي عنه، ويليه شمالاً مرتفعات. وكانت النخيل جنوب البلدة ممتدة على جانبي الوادي من الشرق إلى الغرب [٢].

وقد استفاد قادة الإخوان مما وصل إليهم من معلومات دقيقة عن الجيش الشريفي وأمكنة فئاته المختلفة، ومن معرفتهم بالأرضية التي عليها ذلك الجيش؛ خاصة أن بينهم ابن لؤي الذي هو من تلك الجهة، وأن بعضاً ممن معه كانوا من أهل تُرَبة ذاتها. فوضعوا خطة محكمة للانقضاض على خصومهم. وقد قرَّروا أن يكونوا ثلاث فرق: الأولى الخيَّالة، ومن أهم واجباتها احتلال المرتفعات الواقعة شمال

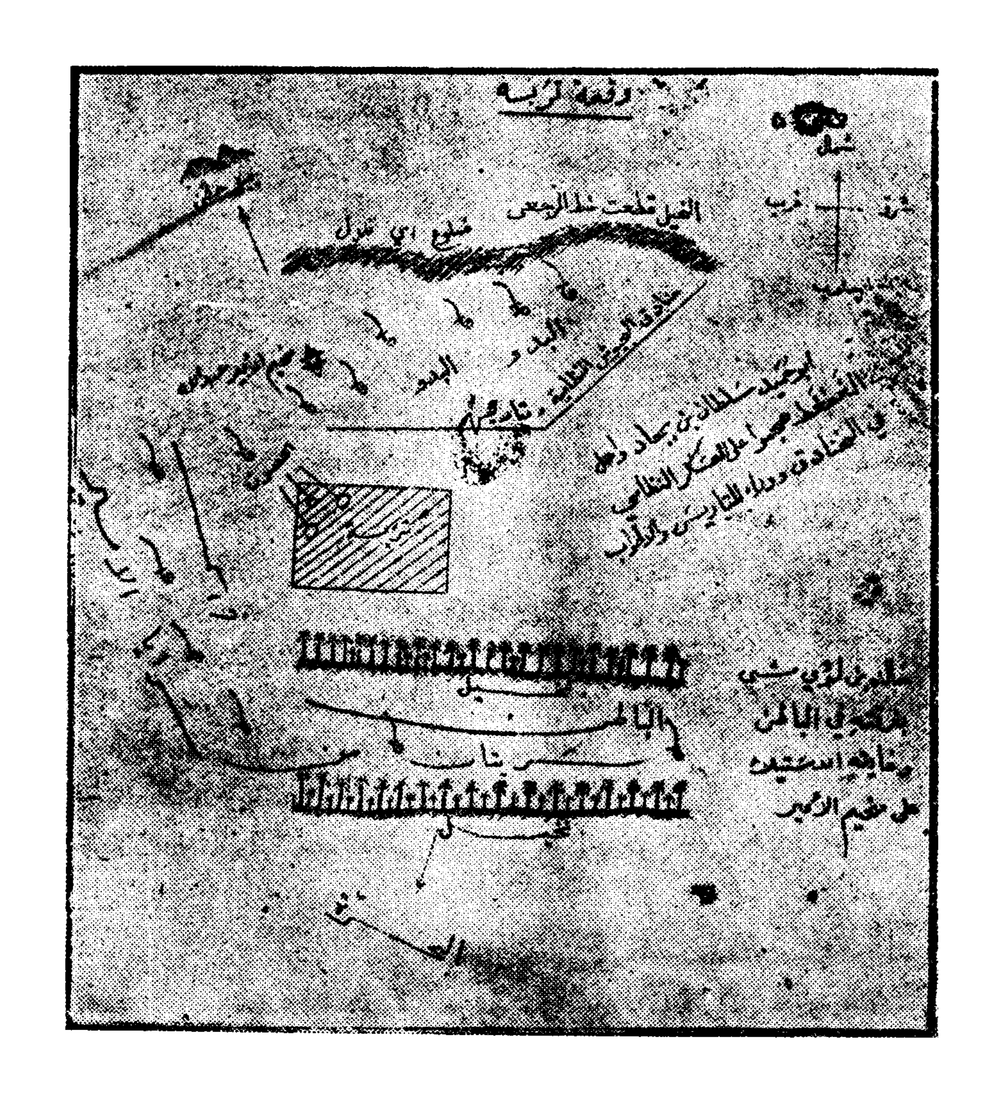
---

(١) الذكير، نسخة خاصة، ص ١٢٣.

(٢) العبيِّد، مصدر سبق ذكره، ص ١١٣. ويقال: إن الإخوان قد أنذروا الأمير عبد الله بأنهم سيهجمون عليه. وقد علَّل العبيِّد ذلك بأنهم أرادوا إرباكه وحرمانه من الراحة والنوم. ومن المحتمل أنهم أرادوا أن يفهم من الإنذار أنهم لن يهاجموه؛ خاصة أن جيشه يفوقهم عدداً وعدة.

غرب مخيم الأمير عبد الله بن الحسين لقطـع خط الرجعة على من قد يحاولـون الانسحاب من بين أفراد جيشـه . والثانية ، بقيادة خـالد بن لـؤي ، وتنطلق عبـر الوادي مـن بين أشجار النخيـل باتجـاه شمـالي غربي ، ومن أهم واجباتها محاولة الاستيلاء على مخيم الأمير عبد الله ذاته . والثـالثة بقيادة سلطان بن بجـاد ، وهي القوة الرئيسـة ، ويكون تـركيز هجـومهـا على القـوات النظاميـة ، التي كـانت تحتل المـواقع الشرقيـة للجيش الشريفي . وقـرَّروا أن تطلق جميع الفرق النـار في آن واحد عنـد بدايـة الهجوم ، الـذي سيكون من كـل اتجاه ، ليتـرك أثره البليغ في نفوس الخصوم ، فيصابوا بالدهشة والارتباك .

وانطلقت الفـرق الثـلاث من الغريف قبل غـروب الشمس . وبعـد منتصف الليل بقليل بـدأت هجـومهـا . فـاحتلَّت فـرقـة الخيَّـالـة المرتفعـات التي عُهِد إليهـا باحتلالهـا . وتقدَّمت الفرقـة الثانيـة عبر الوادي متَّجهة إلى مخيم عبد الله ، فقضت على السرايا التي كانت في طريقها حتى وصلت إلى القوة الموجودة عند ذلك المخيم . وزحفت الفرقة الثالثة ، ففاجأت القوات النظامية بهجوم عنيف ، فأُصِيب أفراد هذه القوات بـالذهول والارتباك ، وراحوا يطلقون النـار على غير هدى بحيث فتك بعضهم ببعض وهـو يظن أنه يفتك بخصـومه . وبعـد أن قامت هذه الفـرقة بما قامت به تجاه تلك القـوات تقدَّمت نحو مخيم الأمير عبد الله لتلتقي عنده بـرجال الفرقة الثانية ، وتستـوليا معا عليه . وتمَّ ذلك بنجاح . ولم تبد تباشير صبـاح اليوم الخامس والعشرين من



رسم الريحاني لمعركة تربة في كتابه : نجد وملحقاته.

شعبان إلا والمعركة قد حُسمت لصالح الإخوان، وأُبيد أكثر الجيش الشريفي؛ خاصة القوات النظامية. ولم ينجح منها بالفرار إلا القليل القليل. وكان في طليعة من أمكنهم الفرار الأمير عبد الله بن الحسين نفسه والشريف شاكر بن زيد وعدد من ضباط القيادة العامة. وقد لجأت أعداد من ذلك الجيش إلى أحد الحصون، فهجم عليهم الإخوان ضحى اليوم المذكور، وقضوا عليهم. على أن فئات من البادية في الجيش الشريفي نجت من القتل بالهروب، أو الانضمام إلى الإخوان[1] (انظر الخريطة رقم ١٤).

وهكذا كانت نهاية معركة تُرَبة، التي انتصر فيها الإخوان التابعون للملك عبد العزيز انتصاراً حاسماً على جيش الملك الحسين، الذي كان يفوقهم كثيراً عدداً وعدة. واستولوا على جميع ما كان مع ذلك الجيش من أسلحة ومعدَّات وذخائر وأموال ومؤن. وقد اختلفت المصادر في أعداد القتلى من الطرفين المتحاربين. لكن أقربها إلى الصحة أنهم كانوا حوالى خمسة آلاف من جيش الحسين وخمس مئة من الإخوان[2].

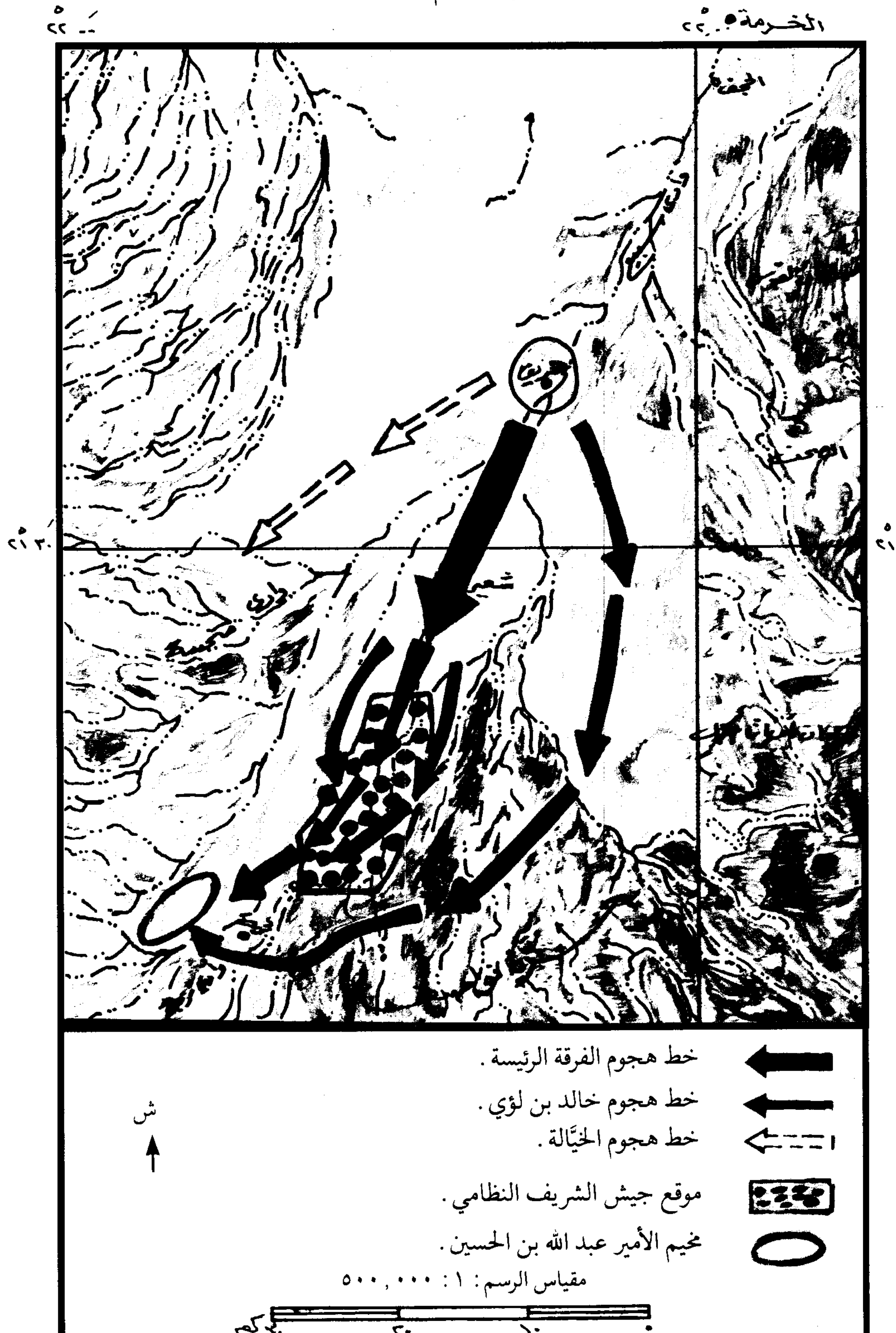
---

(١) الذكير، نسخة خاصة، ص ص ١٢٢ ــ ١٢٣؛ العبيِّد، مصدر سبق ذكره، ص ص ٢١٢ - ٢١٤. وهذان المصدران من أوفى المصادر عن معركة تُرَبة. وللأخير منهما أهمية خاصة؛ إذ عمل فترة عند ابن لؤي في الخُرْمة كما سبق أن ذكر.
وليس غريباً أن تنجح فئات البادية في الفرار لأنها تعرف الدروب أكثر من غيرها، ولأن الهجوم لم يكن، فيما يبدو، مركزاً على موقعها. وليس غريباً، أيضاً، أن ينضم بعضها إلى الإخوان لأن البادية، أحياناً، تنضم إلى الفريق الذي تبدو علامات انتصاره خلال المعركة.

(٢) الذكير، نسخة خاصة، ص ١٢٣.

معركة تـــربـــة

خـريطـة رقم (١٤)



أمـا الملك عبد العـزيـز فوصل إلـى مكان المعـركـة بعد أيـام من وقوعهـا . وأقام في تُرَبـة حوالى عشرة أيام يـدبِّر شؤونهـا . ثم ورد إليه إنذار من بـريطانيا بألَّا يتقـدَّم نحو الطائف ، وأن ينسحب بقـواته من تُـرَبة حتى تتـاح الفرصـة لمفـاوضات بينـه وبين الملك حسين بشأن الحدود بينهما (١) . ولم يكن الملك عبـد العـزيز، علـى أية حـال ، ينوي أن يتقدَّم إلى الطائف (٢) . أما بالنسبة لانسحابه بقواته من تُرَبة فإنه قد راعى الظروف المحيطة به وانسحب منها (٣) .

وكان لمعركة تُرَبة ، التي كانت بمثـابة بداية النهاية لحكم الأشراف في الحجاز، نتائج ذات فوائد كبيرة للملك عبد العزيز؛ منها :

١ - تحقُّقـه من نجاح الفكـرة الرائدة التي أدَّت إلى استيطـان الباديـة على أساس ديني ، أو قيـام حركة الإخوان . ذلك أن هـذه المعركة كـانت أول اختبـار عملي واضح للقـوة الجـديـدة التي أصبحت لديه ، والتي تجمع بين الخبرة القتالية الجيدة والحماس لما آمنت بـه .

٢ - ظهـور قـوته التي يحسب لهـا حسـاب أمـام خصومـه القـائمين حيـنذاك ، أو المحتمـل قيـامهم في المستقبل القـريب ، داخل

---

(١) المصدر نفسه ، ص ١٢٤ ، الريحاني ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٥٧ .
وكـان الذعـر قد استبـد بالمسـؤولين في الحجـاز، وظنوا أن الإخـوان سيواصلـون الزحف إلـى الطائف ، فاتَّصلـوا ببريطـانيا ، وقـامت هذه الـدولة بطمأنتهم وتحـذير الملك عبد العزيز.

(٢) يقال : إن ابن لؤي وابن بجاد استأذنا الملك عبـد العزيز في الزحف على الطائف ، فلم يأذن لهما . الذكير، نسخة خاصة ، ص ١٢٤ .

(٣) المصدر نفسه ، الصفحة ذاتها ؛ الزركلي ، مصدر سبق ذكره ، ج ١ ، ص ٣٢٣ .

الجزيرة العربية. فقد اتَّضح لهم أنه قادر على تحطيم قوة أشهر حاكم في هذه الجزيرة بحيث لم يجد له بداً من الاستنجاد ببريطانيا لإنقاذه. وما دام الأمر كذلك فإن من الصعب الوقوف أمام قوته.

٣ - ازدياد المنضمِّين إليه؛ خاصة من فئات القبائل التي لم تكن قبل ذلك تحت لوائه. ذلك أن القبائل، في كثير من الأحيان، تنضمُّ إلى من ترى بوادر قوته.

٤ - شلُّه حركة الملك حسين عسكرياً مما أتاح له فرصة التفرغ لإنهاء قضية إمارة آل رشيد في جبل شمَّر، وتوحيد منطقة عسير. ولعلَّ مما يدل على ذلك أنه بدأ العمل لتوحيد ذلك الإقليم وهذه المنطقة تحت رايته بعد شهور فقط من معركة تُرَبة.

٥ - تعميقه اقتناع المسؤولين البريطانيين بأنه الزعيم الذي يجمع بين القوة والحكمة السياسية بين أقرانه من حكام الجزيرة العربية. أما القوة فأوضحتها المعركة المذكورة. وأما الحكمة السياسية فمن علاماتها أنه رفض إغراءات انتصاره بالزحف على الطائف، وانسحب بقواته من تُرَبة لئلا يصطدم مع أولئك المسؤولين الذين كانت دولتهم أعظم قوة عالمية في المنطقة حينذاك.

٦ - ظهور الملك حسين أمام أتباعه بمظهر الحاكم الضعيف مما زعزع ثقتهم فيه، وأثَّر على معنوياتهم بدرجة كبيرة خلال المجابهات العسكرية بينه وبين الملك عبد العزيز بعد تلك المعركة.

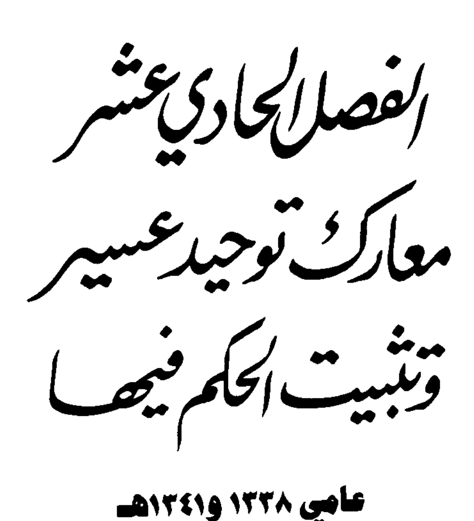
الدروس المستفادة :

١ - أن إيمان المقاتل بالمبدأ الذي يقاتل عنه قوة عظيمة تدفعه إلى الاستبسال والتضحية، وتكون سبباً من أسباب انتصاره بعون الله. ويتَّضح ذلك من اندفاع الإخوان في القتال، وتحقيقهم ما حقَّقوه من انتصار.

٢ - أن وضوح الهدف وعدالة القضية من عوامل النجاح في المعارك. فقد كان هدف الإخوان واضحاً. وهو مساعدة إخوانهم المعتَدَى عليهم في تُرَبة والخُرْمة، وقتالهم ذلك قتال عن قضية عادلة : صَدُّ المعتدي عمن اعتُدي عليه.

٣ - أن التفوق العددي والتسليحي ليس كافياً لتحقيق النصر. بل إن فاعليته قليلة إذا لم يقترن بعوامل أخرى كالتخطيط السليم، والإيمان بالهدف.

٤ - أن حصول القائد على معلومات دقيقة عن خصمه ؛ حركة، وعدةً، وعدداً، عامل من عوامل نجاحه. وهذا ما اتضح في حصول الملك عبد العزيز وقادته على معلومات مفصلة عن حركة جيش الأمير عبد الله بن الحسين ومنازل فئاته المختلفة مما أتاح لهؤلاء القادة أن يضعوا خطتهم لمهاجمته بشكل محكم، وينفِّذوها بطريقة ناجحة.


الفصل الحادي عشر
معارك توحيد عسير
وتثبيت الحكم فيها
عامي ١٣٣٨ و١٣٤١هـ

لمحـة تاريخية :

يـراد بمنطقة عسيـر، هنا، الجـزء الجنوبي الغـربي من البلاد عـدا منطقة جازان. وتمتـد من حدود اليمن جنوباً إلى بـلاد زهران شمالاً، ومن البحر الأحمـر غربـاً إلى تَثْليث وبِيْشة شرقـاً. وتتكوَّن من تهـامة المحاذية للبحر الأحمر في الغرب، تليها جبال السراة، ثم الهضبات الواقعة شرقها.

وكان زعماء عسير ـ وفي مقـدَّمتهم عبد الوهاب أبـو نقطـة ثم طامي ابن شُعَيْب ـ وأهلهـا ممن تحمَّس لدعـوة الشيخ محمد بن عبد الـوهاب والـدولــة السعـوديـة الأولى التي نـاصرتها وقـامت على أسـاسهـا. وكانت لهم بطولات في مقاومة جيش محمد علي، حاكم مصر، قبل قضـائه على تلك الـدولـة وبعده. وممن تـزعَّم تلك المقـاومـة منهم سعيد بن مسلَّط المتوفى سنة ١٢٤٢هـ، ثم ابن عمِّه علي بن مجثِّل، الذي انتصر على ذلك الجيش وأشراف جازان، ومدَّ نفوذه على تهامة حتى الحُدَيدة. وبعد وفاته، سنة ١٢٤٩هـ، تولَّى الزعامة عائض بن مَرْعي، الـذي صمد أمـام حملات محمـد علي الجديـدة، ثم قوات الـدولـة العثمـانيـة، وثبَّت الأمن في البـلاد. وبعـد وفـاتـه، سنـة ١٢٧٣هـ، تـولَّى الحكم ابنه محمد الـذي صمَّمت الدولة العثمـانية في عهـده على إدخال بـلاده تحت نفوذهـا، فحاربتـه حتى استسلم لها. لكن القائد العثماني همَّ بقتلـه غدراً، فقتله ابن عائض، ثم قُتل

هو وأخواه سعد وعبد الله وعدد من كبار أنصارهم سنة ١٢٨٩هـ[١].

ونتيجة لما سبق أصبحت منطقة عسير متصرِّفية عثمانية مقرُّها أبها. لكن من آل عائض من قاد مقاومة ضد العثمانيين من وقت لآخر. ثم قامت علاقة جيدة بين حسن بن عائض وقادة العثمانيين، فعيَّنوه معاوناً للمتصرِّف في عسير. ولما اضطروا إلى مغادرة المنطقة، عام ١٣٣٧هـ، استقلَّ بها حسن حتى وحَّدها الملك عبد العزيز مع ما سبق أن وحَّده من أجزاء البلاد[٢].

الموقف العام:

كانت الهزائم التي حلَّت بالدولة العثمانية، خلال الحرب العالمية الأولى، سبباً في اضطرارها إلى مغادرة منطقة عسير. وقد أدَّت تلك المغادرة إلى استقلال الأمير حسن بن عائض بحكم تلك المنطقة. وتمكَّن هذا الأمير ـ بدعم معنوي من الملك حسين ـ من إحراز انتصار لا بأس به على حاكم جازان، السيد محمد بن علي الإدريسي، الذي حاول أن يستولي على أجزاء من بلاده. وهكذا أصبح الأمير حسن

---

(١) عبد الله بن علي بن مسفر، **أخبار عسير**، ط ٢، بيروت، ١٣٩٩هـ، ص ص ٨٦، ٨٩، ٩٥، و١٢٦.

(٢) هاشم النعمي، **تاريخ عسير في الماضي والحاضر**، أبها، ١٣٧٥هـ، ص ص ٢٠١ - ٢١٥.

ذا صلة وثيقة بالملك حسين في وقت كان هذا الملك خلاله في علاقة سيئة مع الملك عبد العزيز.

وفي أثناء ذلك كان الملك عبد العزيز قد استطاع توحيد أقاليم نجد، باستثناء جبل شمَّر، تحت قيادته، وأن يوحِّد منطقة الأحساء والقطيف مع تلك الأقاليم. وبهذا ازداد حكمه اتساعاً وقوة. وبالإضافة إلى ذلك فقد نجح في وضع حركة الإخوان الاستيطانية القائمة على أساس ديني موضع التنفيذ. وكانت أول تجربة عملية لنجاح تلك الحركة ما حقَّقه رجالها من انتصار عظيم على جيش الملك حسين في تُرَبة سنة ١٣٣٧هـ.

الموقف الخاص:

كان وهج حركة الإخوان قد اتضح بين سكان الخُرْمة وتُرَبة؛ وهما قريبتان من منطقة عسير، التي كانت استجابتهم لدعوة الشيخ محمد ابن عبد الوهاب عميقة الجذور. وإذا كانت أرضية تلك المنطقة قابلة لنموِّ تلك الحركة فإن الانتصار الذي حقَّقه الإخوان في تُرَبة كان بمثابة المحرِّك الفعَّال لإظهار تلك القابلية. ومن هنا امتدَّ ذلك الوهج إلى فئات من قبائل المنطقة المذكورة مثل قحطان وزهران. ومن المرجَّح جدًّا أن هذا كان السبب الأكبر في حدوث خلاف بين تلك الفئات والأمير حسن بن عائض. ذلك أن من تحمَّس لحركة الإخوان حينذاك تحمَّس للملك عبد العزيز. وكانت علاقة هذا الملك بالسيد الإدريسي، حاكم جازان، علاقة ودِّية، لكن علاقته بالملك حسين

كانت عـدائية. وكـان من أسباب انتصار ابـن عائض على الإدريسي دعم الملك حسين لـه.

ومن الـواضح أن انتصـار أتباع الملك عبـد العـزيز فـي تُرَبـة على جيش أشهر حكام الجزيرة العربية حينـذاك كان من أكبر عوامل بداية تطلُّعه إلى تـوحيد منطقة عسير؛ خاصـة أنه كان يعلم بامتـداد الوهج الإخـواني إلى بعض فئات قبـائلها، وأنهـا، أساسـاً، موطن حمـاس للدعوة الإصلاحية التي قام حكم أسرته على مبادئها. وبالإضافة إلى ذلك فإن قيادتهـا ذات علاقة متينة بخصمه الملك حسيـن، وبقاؤها في الحكم مصـدر خطر محتمل في أيـة مـواجهة مستقبليـة مع ذلك الخصم. وهكذا أصبح الجو مهيأ لحـدوث مجـابهة بين ابن عائـض والملـك عبـد العزيز.

معركة توحيد عسير:

اشتـدَّ الخـلاف بين الأميـر حسن بن عـائض وفئـات من قبيلتي قحطان وزهـران في مستهلِّ عـام ١٣٣٨هـ. وإذا أخذ بعيـن الاعتبار السبب الأكبر المرجَّح لذلك الخلاف، وتألُّق نجم الملك عبـد العزيز؛ خـاصـة بعـد معـركة تُـرَبـة، فإنـه لـم يكن من المستغـرب أن تتجـه أنظـار قادة تلك الفئـات إلى هـذا الملك يشكـون إليه تصـرُّف ذلك الأمير تجاههم. ولـم يكن مـن المستغرب، أيضاً، أن يسارع الملك إلى إرسـال وفـد إلى الأميـر حسن محـاولاً التـوسط بينـه وبين أولئك القادة. غير أن الأمير عدَّ تلك المحاولة تـدخُّلاً في شؤونه الداخلية،

ورفض ذلك التوسط [1]. واجتمع هذا الرفض مع عوامل أخرى سبقت الإشارة إلى أهمِّها؛ وهي جودة علاقة الملك عبد العزيز بالسيد الإدريسي المناوئ للأمير حسن، وحذره من امتداد نفوذ الملك حسين إلى منطقة عسير التي يحكمها ذلك الأمير، وخروجه من معركة تُـرَبة منتصراً انتصاراً عظيماً، وارتباط تلك المنطقة بحكم أسلافه فترة من فترات تاريخها، فرأى أن الوقت مناسب ليقوم بتوحيدها مع ما سبق أن وحَّده من أجزاء البلاد.

وفي شهر شعبان من عام ١٣٣٨هـ (مايو / ١٩٢٠م) جهَّز الملك عبد العزيز الأمير عبد العزيز بن مساعد بجيش قوامه ثلاثة آلاف مقاتل تقريباً؛ بعضهم من الحاضرة وأكثرهم من بادية قحطان. وتوجه ذلك الأمير بهذا الجيش إلى منطقة عسير. فلما وصل إليها انضم إليه المؤيدون للحكم السعودي من أهلها. وهبَّ الأمير حسن مع كبار أسرته وأتباعه من أبها لصدِّ ذلك الجيش والمنضمِّين إليه. فدارت بين الطرفين معركة في حَجْلا الواقعة بين تلك المدينة وخميس مُشَيْط [2]. وانهزم ابن عائض، فعاد إلى أبها، ثم غادرها عندما اقترب ابن مساعد منها، ولجأ إلى قصره في جبل حَرْملة، وهو مكان حصين كثيراً

---

(١) الريحاني، مصدر سبق ذكره، ص ٣٠٠؛ العقيلي، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٧٤٢.

(٢) حَجْلا : بعض المصادر ترسمها بتاء مربوطة في آخرها، وبعضها بألف، وآل مشيط زعماء قبيلة شَهْران. وقد انضموا إلى ابن مساعد. ولعلَّ هذا مما ساعده في انتصاره على ابن عائض.

ما اعتصم بـه زعمـاء أسرتـه عند الضرورة. (انظـر الخريطة رقم ١٥).

ودخل ابن مسـاعـد أبها دون مقـاومـة تـذكـر. ثم واصل عمليـاتـه العسكـرية حتى استكمـل توحيـد بلـدان المنطقة. وبعـد أن رأى ابن عائض عدم مقدرتـه على المقاومة أو الصمود قدم مع كبار أفراد أسرتـه إلى ابن مسـاعد واتفقـوا معـه على أن يذهبـوا إلى الـرياض، فجهَّـزهم إليها، واستقبلـوا فيها بالتقديـر والإكرام [١]. وهكذا دخلـت منطقة عسير تحت حكم الملك عبد العزيز.

مكث آل عائض عدة شهور في الرياض، ثم عادوا إلى منطقة عسير بعد أن منحهم الملك عبد العزيـز هبات جزلة، وخصَّص لهم مرتبـات شهرية لائقـة بهم [٢]. واستقر محمد بن عبـد الرحمن بن عائض في أبها في حين أقام حسن مع عـائلته في قصره بحَرْملـة [٣]. وعُـيِّـن أميرًا على

---

(١) يقـول فـؤاد حمزة (قلب جزيـرة العرب، القـاهـرة، ١٣٥٢هـ، ص ٣٥٦) والنعمي (مصدر سبق ذكـره، ص ٢٥٤) : إن آل عائض ذهبوا إلى الرياض مع ابـن مساعد. لكن الريحـاني (مصـدر سبـق ذكره، ص ٣٠١) وابن هذلـول (مصـدر سبـق ذكـره، ص ١٤٦) يذكران أنه أرسلهم إلى الرياض قبل عودته إليهـا.

(٢) الريحاني، مصدر سبـق ذكره، ص ٣٠١. ذكرت بعض المصادر ومنهـا الذكير (نسخة خاصة، ص ١١٥) أن الملك عبد العزيز عرض على حسن الإمـارة تحت حكمه، فلـم يقبل.

(٣) ابن هذلـول، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٦.

خريطة رقم (١٥)



٤٢ْ ٣٠َ
١٨ْ ٣٠َ
١٨ْ ٠٠َ
معركة توحيد عسير
خط هجوم الأمير عبد العزيز بن مساعد .
خط تصدِّي آل عائض للهجوم .
خط انهزام ابن عائض .
ش
مقياس الرسم : ١ : ٥٠٠,٠٠٠
٠ ١٠ ٢٠ ٣٠ ٤٠
كم

تلك المنطقة، فكثرت الشكاوى ضده، واستبدل بآخر، فلم تقف الشكاوى، ثم استبدل هذا بغيره فلم تنته أيضا [1]. وليس غريباً أن يكون في بعض تصرفات أميرٍ ما، في أية فترة تاريخية، ما يوجب الشكوى منه. لكن استمرار الشكاوى ضد ثلاثة أمراء على التوالي في فترة قصيرة أمر مثير للاستغراب. ولهذا فإن من المحتمل أن بعضاً من تلك الشكاوى - على الأقل - كانت مراميه سياسية لا إدارية. ومن المؤكد أن الملك الحسين قد ساءه دخول منطقة عسير تحت حكم الملك عبد العزيز. ثم ساءه، أيضاً، نجاح هذا الملك في توحيد جبل شمَّر أواخر صفر عام ١٣٤٠هـ، مع ما سبق أن وحَّده من أجزاء البلاد؛ إذ أن في هذا وذاك إضعافاً لموقفه أمامه. ولهذا فإنه بذل جهوداً مكثَّفة لإثارة فئات من قبائل منطقة عسير على الحكم السعودي الجديد، كما حرَّض ابن عائض على الثورة ضد هذا الحكم [2]. وتطوّر الأمر حتى ثار حسن بن عائض، وحاصر الأمير السعودي وحاميته في أبها، فاضطر هذا الأمير إلى الخروج منها مع أفراد تلك الحامية بأسلحتهم. ولما وصل إلى خميس مُشَيْط جمع

---

(١) الزركلي، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ٢٥٠. ويقول هذا المؤلف: إن ابن عائض كان هو الذي يرفع تلك الشكاوى إلى الملك عبد العزيز. واسم الأمير الأول شُوَيش ابن ضُوَيحي، والثاني عبد الله بن سويلم، والثالث فهد العُقَيْلي.

(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٥١.

أنصاراً، وحاول مقاومة ابن عائض، لكنه فشل في محاولته [1].

على أن من حسن حظ الملك عبد العزيز أن ثورة ابن عائض عليه حدثت بعد أن حقَّق انتصاره النهائي على آل رشيد. ووحَّد إقليم جبل شمَّر مع ما سبق أن وحَّده من أجزاء البلاد. وبذلك الانتصار أصبح متفرِّغاً لمعالجة الوضع في منطقة عسير بالأسلوب الذي رآه مناسبا. فجهَّز جيشاً بقيادة ابنه فيصل، قوامه ستة آلاف مقاتل أغلبهم من الإخوان. وانطلق هذا الجيش من نجد في شوال من ذلك العام. ولما اقترب من منطقة عسير التحق به نحو أربعة آلاف من قحطان وزهران وشهران وغيرها. وعلم قائده أن فئات من بني شِهْر قد توجهت إلى بِيْشة تريد الاستيلاء عليها، فوجَّه إليها فرقة من أتباعه، وهاجمتها، وشتَّتت شملها. ثم واصل زحفه صوب خميس مُشَيْط، التي كان محمد بن عائض مرابطاً فيها. ولما دنا منها انسحب منها هذا الأخير إلى حَجْلا. فاقتفى أثره خيَّالة الجيش السعودي، فتراجع إلى أبها. ولما اقترب الأمير فيصل بأتباعه من أبها غادرها آل عائض

---

(١) النعمي، مصدر سبق ذكره، ص ص ٢٥٥ - ٢٥٦. أما ابن هذلول (مصدر سبق ذكره، ص ١٤٧) فيقول: إن الأمير السعودي استسلم مع رجال حاميته في أبها، ثم أسرهم ابن عائض واعتقلهم في خميس مُشَيْط. والمؤرخ الأول من أهل تلك المنطقة. ولعلَّ مما يضعف قول ابن هذلول أن ابن عائض لو كان قد اعتقل ذلك الأمير لاعتقله في أبها، خاصة أن خميس مُشَيْط مركز قبيلة شهران المؤيدة، فيما يبدو، للحكم السعودي حينذاك.

وأنصارهـم، ودخلهـا ذلك الأمير دون مقـاومة في شهـر صفـر عـام ١٣٤١هـ (١٠/ ١٩٢٢م).

أما حسن بـن عائض فلجأ إلى قصـره المنيع في جبل حَرْملـة كما فعل عند مجابهته لابن مساعد مـن قبل. فوجَّه إليه الأمير فيصل عدة سـرايا، لكنـه صدَّهـا. ثم هجم عليـه هجومـاً شـاملاً، فـدارت بين المهـاجمين والمدافعين معـركة حـامية الـوطيس تكبَّد فيهـا الطرفـان خسـائر كبيـرة. وأدرك حسن حـرج موقفـه، فتسلَّل مع أفـراد أسرتـه وأنصاره إلى خارج الجبل عن طريق لـم يكتشفها المهاجمون. ولما اقتحم هـؤلاء قصره لـم يجدوه فيه. فهدمـوا ذلك القصر وكل قصـور آل عـائض وحصـونهم الموجـودة في الجبل المذكـور لئلا يـرجعـوا إليهـا ويجعلوهـا مراكـز للمقـاومة مـرة أخـرى [١]. ثم تمكَّن الأميـر فيصل من انتـزاع أسلحة الفئات التـي لـم يكن مطمئنـاً إلـى ولائهـا بطريقـة ذكيـة [٢]. (انظر الخريطة رقـم ١٦).

---

(١) من المصـادر التي تناولت تلك الحـوادث الريحـاني، مصدر سبق ذكـره، ص ص ٣٠١ - ٣٠٣؛ الذكير، نسخة خاصة، ص ١١٥؛ ابن هذلول، مصدر سبق ذكره، ص ص ١٤٧ - ١٤٩؛ الـزركلي، مصـــدر سبق ذكـــره، ج ١، ص ص ٢٥٠ - ٢٥٢؛ العقيلي، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٧٤٣؛ النعمي، مصدر سبق ذكره، ص ص٢٥٦ - ٢٥٩.

(٢) المصدر الأخيـر نفسه، ص ٢٥٨. يقال: إنـه أمرهم بالقـدوم بأسلحتهم استعداداً للقيام بغـزو. فلما وصلوا إليه أمـر كل من دخل الباب الأمامي لمكـان استقبالهم أن يسلِّم سلاحه ليأخذه بعد اللقاء عند باب آخر. وبذلك تمَّ انتزاع تلك الأسلحـة.

خريطة رقم (١٦)



٤٢ ١٥َ
٤٢ ٣٠َ
٤٢ ٤٥َ
١٨ ٣٠َ
١٨,١٥َ
١٨ ١٥َ
١٨ ٠٠َ
١٨ ٠٠َ
معركة تثبيت الحكم في عسير
خط هجوم الأمير فيصل بن عبد العزيز.
خط تصدِّي ابن عائض للهجوم.
خط انسحاب ابن عائض.
ش
مقياس الرسم: ١ : ٥٠٠,٠٠٠
كم
١٠
٠
١٠
٢٠
٣٠

وأما محمد بن عائض فسار إلى القُنْفذة، واستنجد بالملك حسين، فأمدَّه بسريَّة صغيرة ومئتي جندي نظامي. فسيَّر الأمير فيصل فئات من الإخوان الذين كانوا معه إلى تهامة لمقاتلتهم. لكن الإخوان لقوا مشقة من جوِّ تهامة حيث أصابت الحمَّى بعضهم، فتقهقروا إلى السراة. واقتفى أثرهم خصومهم، لكن كبير السريَّة التي بعثها الشريف عوناً لابن عائض اختلف مع قائد الجند النظامي حول الطريق التي ينبغي سلوكها، فاتَّخذوا طريقاً غير مناسبة. وكانت أخبار تحرُّكهم تصل إلى الإخوان أولاً بأول، فرصدوا لهم، وأنزلوا بهم خسارة فادحة (١).

ونتيجة لما سبق اعتقد الأمير فيصل، فيما يبدو، أنه قد ثبَّت الحكم السعودي في عسير. وذلك بعد أن حقَّق ما حقَّق من نجاح، وهدم معاقل آل عائض، وأصبحوا كلهم خارج هذه المنطقة. فعيَّن سعد بن عفيصان أميراً عليها، وأبقى عنده حامية مكوَّنة من خمس مئة رجل، ثم عاد إلى الرياض (٢).

على أن آل عائض لم ييأسوا؛ خاصة بعد أن حصلوا على مساعدة من الملك حسين، فنسَّقوا مع أنصارهم في منطقة عسير. وحاصروا ابن عفيصان في أبها. وأخرج هذا الأمير قوة لصدِّهم فلم تنجح.

---

(١) الذكير، نسخة خاصة، ص ١١٥؛ ابن هذلول، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٨.

(٢) المصدر الأول نفسه، الصفحة ذاتها؛ المصدر الأخير نفسه، ص ١٤٩. وكان وصوله إلى الرياض في ٢١/ ٥/ ١٣٤١هـ.

وكادت أبها تسقط في أيدي المحاصرين لها لولا وصول نجدة إلى من فيها. فخرج ابن عفيصان بمن معه لقتال خصومهم واضطرهم إلى التقهقر. وقد توفي هذا الأمير بعد تلك الحادثة بأيام (١). فحلَّ محلَّه في الإمارة عبد العزيز بن إبراهيم، الذي اشتهر بالحزم والدهاء. وكان من دهائه أن ذهب إلى ابن عائض في حَرْملة، وتفاوض معه، وبذل له ما أرضاه ثم استقدمه إلى أبها، وأكرمه غاية الإكرام. واتَّفق معه على سلام أدَّى إلى تجهيزه مع بقية أسرته إلى الرياض حيث عفا الملك عبد العزيز عن الجميع، وبقوا في هذه المدينة معزَّزين مكرَّمين (٢).

وهكذا تمَّ تثبيت الحكم السعودي في منطقة عسير، واستتبَّ الأمن في ربوعها كما استتبَّ في ربوع المناطق الأخرى من البلاد.

الدروس المستفادة:

١ - ظهرت أهميَّة قدرة القائد على اختيار الوقت المناسب لتحرُّكه العسكري ليكلَّل هذا التحرُّك بالنجاح. وذلك من خلال اختيار الملك عبد العزيز عام ١٣٣٨هـ وقتاً للقيام بتوحيد منطقة عسير. ذلك أن الخلاف قد اشتد في مستهل ذلك العام، بين زعامتها وفئات من قبائلها، والحماس لحركة الإخوان التي تبنَّاها قد انتشر

---

(١) المصدر نفسه، الصفحة ذاتها؛ الزركلي، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ٢٥٢.
(٢) النعمي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦٠.

بين تلك القبائل، والانتصار الذي حقَّقه أتباعه من أولئك الإخوان في تُـرَبة قـد تـرك صدى قـويـاً في أنحاء الجزيـرة العـربية وأكسبه إعجاب الكثيرين وتعاطفهم.

٢ - برزت أهميَّة وحدة الجبهة الداخلية في التصدِّي للخصوم. فتحقيق ابن مسـاعـد ما حققـه من نجـاح على أمـراء عسير بجيش صغير الحجم نسبيـاً ما كـان، على الأرجح، ليتمَّ لو كـانت قبائل منطقـة عسير مـوحَّـدة الهدف تحت راية أولئك الأمـراء. بل إن فئـات من تلك القبائل قد أظهرت خلافها معهم قبل توجيه الملك عبد العزيز قـواته ضـدهم، وفئـات أخـرى انضمَّت إلى هـذه القوات بمجـرد وصـولها إلى المنطقـة [١]. وبتفكك الجبهـة الـداخليـة سهل على المهاجمين الانتصار على المدافعين.

٣ - اتضحت أهميَّة حصـول القائد على معلـومات دقيقـة عن خصمه والأرض التي ستجري فوقها العمليات العسكرية. وذلك بتحـقيق كلٍّ من ابن مساعـد وفيصل بن عبد العزيز انتصـارات سهلة نسبياً على آل عـائض. وكـان من أسبـاب تلك الانتصـارات تـوفُّـر الـمـعلومات لـديهما عن الـخـصم وجغـرافية الأرض التـي حاربا عليها.

---

(١) مما يلفت النظـر أن أكثر قوات ابن مسـاعد القادمة من نجـد كانوا من قحطـان الذين يوجد أبنـاء عمِّهم في منطقة عسير. وكانت فئات من هـؤلاء الأخيرين ممن اختلفوا مع زعامة تلك المنطقة.

٤ - ظهرت أهميَّة حسن التخطيط ودقة التنفيذ لكسب المعارك . وذلك من خلال ما رسمه القائدان السعوديان من خطط وما نفَّذاه من عمليات موفَّقة .

٥ - برزت أهميَّة قدرة القائد على مرونة الحركة لتحقيق الفوز النهائي على الخصم . وذلك من خلال استعمال الأمير فيصل بالذات لمختلف أنواع القتال من مطاردة للخصم بالسرايا ، ومحاصرةٍ له في قلاعه الحصينة ، وتطويقٍ لقواته من جوانب متعددة .

الفصل الثاني عشر
معارك توحيد جبل شمّر

١٣٤٠هـ/١٩٢١م

الموقف العام:

أشير سابقاً إلى بدء الحرب العالمية الأولى عام ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م. وهي الحرب التي استمرت خمس سنوات. وكانت بريطانيا والدولة العثمانية، اللتان لهما وجود مؤثِّر في أحداث الجزيرة العربية، من الدول المشتركة في تلك الحرب، ولكنهما كانتا متضادتين فيها. وقد نجحت بريطانيا في كسب الشريف حسين بعد أن اغترَّ بوعودها، وأغدقت الأموال عليه. فقام بما عُرف بالثورة العربية ضد العثمانيين. ونجحت، أيضاً، في تحييد الملك عبد العزيز بدرجة كبيرة. أما خصم هذا الملك في شمالي نجد حينذاك، الأمير سعود بن رشيد، فرمى بثقله مع الدولة العثمانية التي أمدَّته بأسلحة كان لها بعض الأثر في معركة جُرَاب سنة ١٣٣٣هـ. وانتهت الحرب العالمية بهزيمة الدولة العثمانية ومن تحالفت معهم. ونتيجة لذلك انتهى حكم هذه الدولة من مناطق جزيرة العرب وكلٍّ من العراق والشام وفلسطين. وانتهى، أيضاً، ذلك الدعم الذي كانت تتلقَّاه إمارة جبل شمَّر؛ مادياً ومعنوياً.

الموقف الخاص:

كان نجاح الملك عبد العزيز في توحيد منطقة الأحساء والقطيف مع ما سبق أن وحَّده من أقاليم نجد تحت رايته عظيم الأهميَّة بالنسبة له؛ استراتيجياً وسياسياً وعسكرياً واقتصادياً. وهذا ما عزَّز موقفه

بـدرجة كبيرة. ومع عـدم نجاحـه في معـركة جُـرَاب سنة ١٣٣٣هـ، وهـزيمته أمـام العجمان في كَنْـزان تلك السنة، فـإنه تمكَّن سريعـاً من خضد شوكة هؤلاء، وعقد معاهـدة مع بريطانيا، عام ١٣٣٤هـ، كان من بنـودها الاعتراف بـه والتعهُّد بحمايتـه من أي اعتداء خـارجي على بلاده. وفي هذا ما فيه من دعم سياسي لـه. على أن النجاح الأكبر لـه خـلال الحرب العالميـة الأولى كان قيـام حـركة الإخـوان، التي جعلت فئـات من الباديـة تستقر في مـواطن معيَّنة على أسـاس ديني. فأصبح هؤلاء الذين كان يصعب الاعتماد عليهم في المعارك، أو السيطرة عليهم أمنياً، قوة ضاربة في صفوف المحاربين من أتباعه. وكان أول برهنة على هـذا التطور الإيجابي الفعَّـال ذلك النصر الذي حقَّقـوه في معركـة تُرَبـة المشهورة عام ١٣٣٧هـ.

ولـم يقتصر التحـاق فئات من الباديـة بحركة الإخـوان المذكورة على القبائل التـابعة رسميـاً للملك عبد العـزيز. بل التحقـت بها، أيضاً، فئـات من قبيلة شمَّـر ذاتها، وهي من ركـائز قوة خصـومه آل رشيـد. وبذلك الالتحاق تغيَّر ولاؤهـا من هؤلاء الخصـوم إليه. وفي هذا تقوية لـه وضعف لخصومه.

أما إمارة جبـل شمَّر فكان المدبِّر لشؤونها حتى عـام ١٣٣٢هـ زامل ابن سبهـان تـحت قيـادة الأمير سعـود بن عبـد العـزيـز بن رشيـد. وكـان زامـل راجح العقل، مشجعـاً لـذلك الأمير على مهادنـة الملك عبد العزيز. لكن أحد أقاربه، سعود الصالح بن سبهان، أوغر صدر الأمير عليـه، ثم دبَّـر مـؤامـرة أدَّت إلى اغتيالــه في العــام المذكـور.

وتغيَّرت تلك المهادنة إلى مجابهة كانت قمَّتها معركة جُرَاب في العام التالي. ويبدو أن تغلغل نفوذ سعود بن سبهان في شؤون الحكم قد دفعه إلى التفكير في عزل الأمير سعود بن رشيد نفسه عن الإمارة سنة ١٣٣٥هـ. لكن أمره اكتشف، ففرَّ إلى العراق، وحلَّ محلَّه في مساعدة الأمير عُقَاب بن عِجْل [1]. وقد شهد عام ١٣٣٦هـ غارات الملك عبد العزيز على أطراف جبل شمَّر، فخرج الأمير سعود ابن رشيد لمدافعته [2]. واضطر هذا الأمير إلى الصلح مع الملك في العام التالي لإدراكه ضعف موقفه أمامه. واستفاد من ذلك بتفرُّغه لإبعاد نفوذ ابن شعلان عن الجوف. على أن هذا النجاح النسبي لم يطل. ذلك أن شهر رجب من عام ١٣٣٨هـ شهد كارثة كبيرة لآل رشيد تمثَّلت في إقدام عبد الله بن طلال على قتل الأمير سعود بن عبد العزيز غدراً خارج بلدة حائل. وقُتِل ذلك القاتل فورا [3]. فبُويع بالإمارة عبد الله بن متعب، الذي كان صغير السن

---

(١) سليمان الدخيل، **القول السديد في أخبار إمارة آل رشيد**، طبع ملحقاً لنبذة ضاري الرشيد، دار اليمامة، ١٣٨٦هـ، ص ١٦٦؛ موزل، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٠.

(٢) القاضي، مصدر سبق ذكره، ص ٥٤؛ الذكير، نسخة خاصة، ص ١٠٢.

(٣) عبد الله بن طلال بن نايف بن طلال بن عبد الله بن علي بن رشيد. وكان الأمير سعود بن عبد العزيز قد خرج من حائل للنزهة ومعه ابن أخيه، عبد الله بن متعب، وخمسة من المماليك. ولحق به عبد الله بن طلال. ثم أخذا يتنافسان على إصابة هدف وضع في الصحراء. وكان أن صوَّب ابن طلال نار بندقيته إلى سعود، وأرداه قتيلا. ثم قتل المماليك ابن طلال، وعادوا بعبد الله بن متعب إلى حائل، وتبنَّوا أخذ البيعة له. القاضي، مصدر سبق ذكره، ص ٥٦.

حينـذاك. لكن موقفـه السيـاسي والعسكـري كان ضعيفـا. ذلك أن بعض أهـل حـائل وقفـوا مع محمد بـن طـلال خوفـاً من إجـراءات تُتَّخذ ضده [١].

ثم اصطلح الجميع على أن تكـون هناك هيئـة من الأهالي تسـاعد على إدارة الشؤون العامة في البلاد [٢]. وكان من نتائج تلك الظروف أن ذهب وفد إلى الملك عبـد العزيـز آملاً تجديـد ما كـان بينه وبين إمارة الجبل من صلح. لكنه اشتـرط أن تكون لآل رشيد إدارة الشؤون الداخلية لإقليم جبل شمَّر، وأن تكون الشؤون الخارجية في يده. فلم يقبلـوا ذلك [٣]. ومن الـواضـح أن من أسبـاب اتخـاذ الملـك هـذا الموقف الحازم ازديـاد قوة وضعه العسكري بشكل بـرهن عليه انتصار أتباعـه في تُرَبة عام ١٣٣٧هـ، ونجاحه في منطقة عسيـر في العـام التالي. وبالإضافة إلى ذلك فإنه رأى ضرورة تجريد إمارة آل رشيد من التصرُّف بـالشؤون الخـارجية لئـلا يحدث تحالف بينهـا وبين الملك حسين في الحجـاز وابنيه في العراق وشـرق الأردن. وكان رفضها لما

---

(١) المصدر نفسـه، الصفحة ذاتها. ومحمـد بن طلال أخ لعبـد الله، الذي قتل سعـود بن عبد العـزيز بن رشيد. وكان أول من وقف مع محمـد أهل لُبْدة، ثم انضم إليهم أهل مغيضة.

(٢) المصـدر نفسه، الصفحـة ذاتها، وتختلف المصادر حـول ما حـدث لمحمد بن طـلال عندئذ. فالزركلي (مصدر سبـق ذكره، ج ١، ص ٢٥٤) يقول: إنه هرب إلى الجوف. والدخيل (مصدر سبق ذكره، ص ١٦٧) يذكـر أنه سجن. ويبدو أن ذهاب محمد إلى الجوف قد تمَّ ضمن صفقة اصطلاح بينه وبين ابن متعب فور تولِّـي الأخير الإمارة.

(٣) الزركلي، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ٢٥٤.

اشتـرطـه أحـد الأسبـاب التي دفعتـــه إلى أن يقـرِّر إنهاءهـــا داخليـاً وخارجياً، وأن يعدَّ العدَّة لوضع هذا القرار موضع التنفيذ.

سير العمليات العسكرية:

بدأ الملك عبد العزيز عملياته العسكرية لتوحيد إقليم جبل شمَّر في شوال عـام ١٣٣٨هـ (٧/ ١٩٢٠م). وذلك عنـدما أرسل ابنـه سعوداً على رأس قوة كبيرة من الإخـوان للإغارة على قبيلة شمَّـر، إحدى ركائز إمـارة آل رشيد. وقـد نجحت تلك القوة في إغـاراتها على فئة من هـذه القبيلة في الشُعَيبة[١]. ثم عادت من هناك[٢].

وكان هـذا الأسلوب من العمليات من بين الأساليب النـاجحة التي اتَّبعها الملك عبد العزيز لإنهاك خصومـه تمهيداً لقيامه بضربة نهائية لهـم. على أنـه قضى الشهـور الأولى مـن العـام التـالي مشغـولاً بأمـر الكـويت. فلما فـرغ منـه أذن لـلإخــوان بمهـاجمة بـاديـة جبل شمَّـر وبلدانـــه. فأغـارت فرقـة منهم على بـاديـة قرب حـائل، وغنمت مـا غنمت، ثم عادت. واشتبكـت فرقة أخـرى مع فئات من قبيلـة شمَّر وابن رشيد، فنجحت في ذلك الاشتباك مع قلَّة عددهـا[٣].

---

(١) الشُعيبة: تقع شرق حائل بمَيْلٍ نحو الشمال.

(٢) القاضي، مصدر سبق ذكره، ص ص ٥٦ - ٥٧.

(٣) المصدر نفســه، ص ٥٨. ويذكر أن الفـرقة الأولى كـانت من أهل نفي والشبيكية، وأن الثـانية كـانت من أهل دخنـة والدليميـة، وكـان عددهـا ٤٠٠؛ منهم ٣٦٠ من دخنة. وكان ذلك الاشتباك في ٢٠/ ٥/ ١٣٣٩هـ.

وبعد الغارتين السابقتين، اللتين كانتا تمهيديتين في طابعهما، استنفر الملك عبد العزيز أتباعه، وتوجه إلى القصيم حتى وصل إلى بريدة. فلما اجتمع لديه أولئك الأتباع [1] - وأغلبهم من الإخوان - قسمهم إلى قسمين: الأول بقيادة ابنه سعود، ومهمَّته مهاجمة القبائل المؤيِّدة لابن رشيد شمال جبل شمَّر وشرقه. والثاني بقيادة أخيه محمد، ومهمَّته مهاجمة أطراف حائل، ثم البدء بحصارها [2].

وقد نجح الأمير سعود في مهمَّته، ثم توجه صوب حائل للمشاركة في حصارها. ووصل الأمير محمد بن عبد الرحمن إلى أطراف هذه المدينة، وبدأ يحاصرها (انظر الخريطة رقم ١٧). فطلب منه كبار أهلها أن يسمح لوفد منهم بالذهاب إلى الملك عبد العزيز في بريدة للمفاوضة. فسمح بذلك، وأعرب الوفد للملك عن موافقتهم على ما سبق أن اشترطه في العام السابق. وهو أن تكون الشؤون الخارجية لجبل شمَّر في يده والشؤون الداخلية في يد ابن رشيد. لكنه رفض ذلك، وطلب أن يدخل الإقليم فيما دخلت فيه بقية أقاليم البلاد

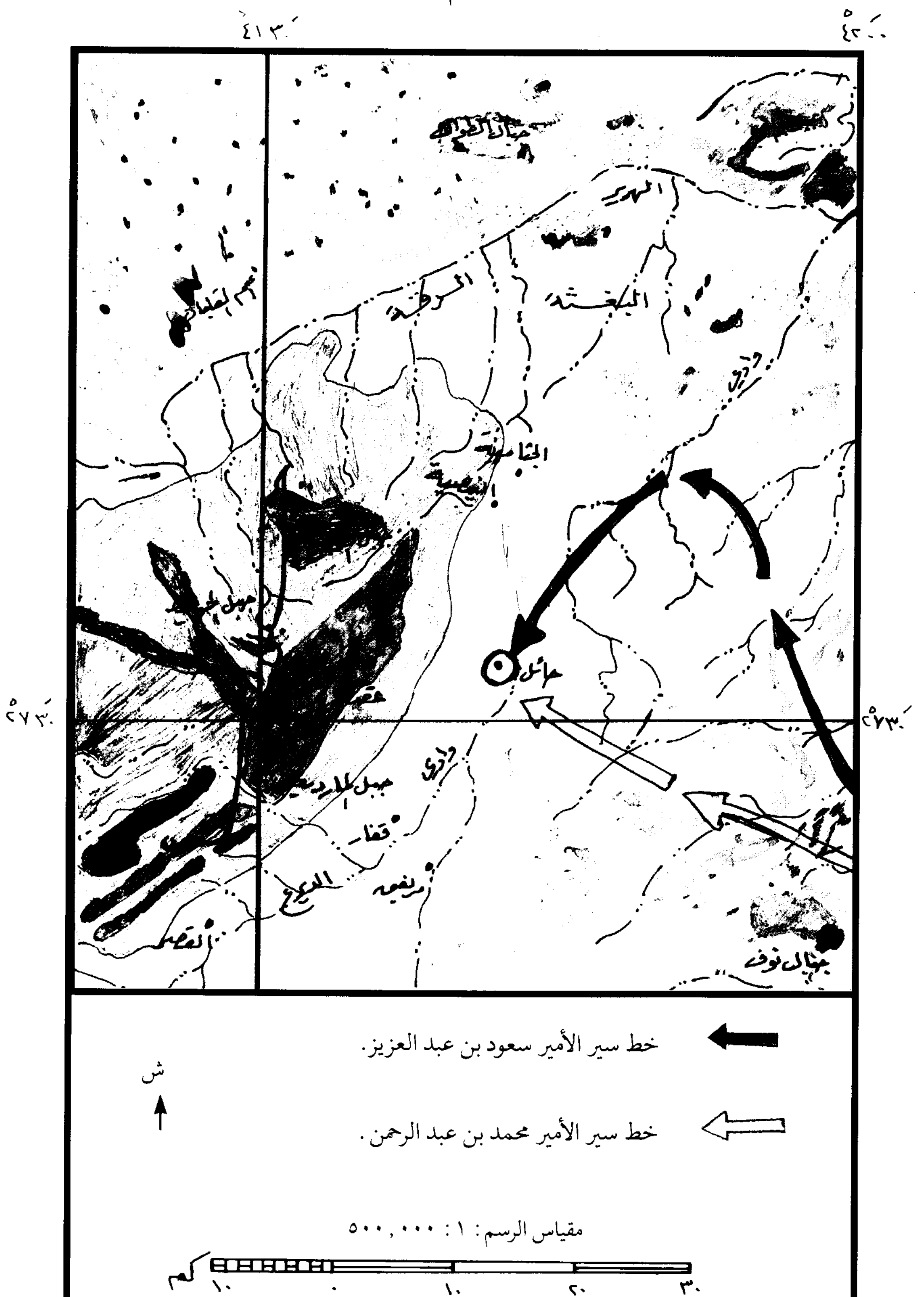
---

(١) قدَّرهم الذكير (نسخة خاصة، ص ١٠٥) بعشرة آلاف. وقدَّرهم الزركلي (مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ٢٥٤) بحوالى ستة آلاف.

(٢) أكثر المصادر المتداولة تذكر ذلك؛ مثل القاضي، مصدر سبق ذكره، ص ٥٨؛ الذكير، نسخة خاصة، ص ١٤١؛ الريحاني، مصدر سبق ذكره، ص ٢٧٨؛ الزركلي، مصدر سبق ذكره، ج١، ص ٢٥٤. لكن ابن هذلول (مصدر سبق ذكره، ص ١٣٠) يقول: إن قسماً ثالثاً كان بقيادة الأمير فيصل بن عبد العزيز. ولعلَّ هذا الأمير كان تحت راية أخيه، وأن قيادته لفئة من القوات السعودية المتجهة لمحاصرة حائل حدثت بعد ذلك.

بدء معارك توحيد جبل شمَّر

خـريطـة رقم (١٧)



المـوحَّـدة تحت رايتـه، وأن تنتهي إمـارة آل رشيـد. فلم يقبل هـؤلاء الأمراء وأنصارهم بذلك [١]. واستمر الحصـار لحائل. لكن الملك عبـد العـزيـز استـدعى أخـاه محمـداً، وجعل القيـادة مـوحَّـدة لابنـه سعود[٢]. ولما اشتد الحصـار على المدينة قدم إليها محمـد بن طلال من الجوف بترتيب مـع بعض زعمائها [٣]. وخاف منه الأميـر عبد الله بن متعب. فكان هذا الخوف أحد أسباب خروجه من حائل إلى معسكر الأمير سعـود بن عبـد العزيز، ولجوئه إليه. وقـد ركب به سعـود إلى أبيـه في الرياض، فلـم يـرض ذلك الأب عن مغـادرة ابنه مركـزه في الحصـار [٤].

ولقد استغلَّ محمد بن طلال فرصـة خروج الأمير عبد الله بن متعب من حائل، فـاستولى على مقاليد الأمـور فيها. ثم انتهز فرصـة ابتعاد سعـود بن عبدالعـزيز عن هـذه المـدينة فشنَّ حمـلات على السرايـا السعوديـة التي حولها. وعلى مـن أصبحوا يؤيِّـدون الحكم السعودي

---

(١) الريحاني، مصدر سبق ذكره، ص ص ٢٧٨ - ٢٧٩.

(٢) القاضي، مصدر سبق ذكره، ص ٥٨.

(٣) ابن هذلـول، مصدر سبق ذكره، ص ١٣١.

(٤) القاضي، مصدر سبق ذكره، ص ٥٨؛ الزركلي مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٥. وكان الملك قد غـادر بريـدة إلى الرياض فـي آخر شهر شعبـان. وهذا هـو المتداول في الروايـات الشفهية. على أن ابن هـذلـول (مصدر سبق ذكـره، ص ١٣١) يذكـر أن الأميـر سعوداً أرسل ابن متعب إلى أبيـه في الريـاض، وأن الملك استدعى ابنـه ومن معه لشدَّة القيظ وقلَّة المـرعى لخيلـه وركابه. ويبدو أن استدعـاء أكثـر من كانوا مع سعود قد حدث بعد مجيء سعود إلى الرياض ومعه ابن متعب.

في تلك الجهــــات [١] . وعنـدئذ أمـر الملك عبـد العـزيـز فيصل الدويش، أحد قادة الإخوان المشهـورين، أن يتوجه بقوة من الإخوان إلى جبل شمَّر، ويبدأ بمحـاصرة بلدانـه حتى يصل هو إليـه. وتوجه الـدويش بقـوة إلى هنـاك [٢] . ثم انطلق الملك عبـد العـزيـز من الريـاض في الثالث عشر من ذي الحجة، وانضم تحت رايتـه، وهو متَّجه إلى جبل شمَّر، آلاف من أتباعـه [٣] .

وكان الأمير محمـد بن طلال يراقب ما يجـري بقلق وحذر. فخرج من حـائل لقتال الدويـش قبل أن يصل الملك عبد العـزيز بـالقوات الرئيسة إلى الجبل؛ آملاً أن يكون في تغلُّبه المتوقَّع على الدويش رفع لمعنويات أتباعه [٤] . وعلم هذا الأخير بخروجه لمقاتلته، واعتقد أنه متَّجـه إلى الجُثَـامية، فسبقـه إليهـا. واتخذ ابن طـلال من النِّصيـة القريبة منهـا مركزاً لـه. وكتب إلى الدويش يـدعوه إلى تحكيم كتاب الله [٥] ؛ محاولة منه، فيما يبدو، لطمأنتـه حتى يهاجمه بغتة وينتصر عليه. ثم اختار فرقة من أتباعه لتهاجم الإخوان مع انبثاق الفجر. وقام

---

(١) الذكير، نسخة خاصة، ص ١٤١؛ ابن هذلول، مصدر سبق ذكره، ص ١٣١ .
(٢) قدَّر المؤلف الأول تلك القوة بألفين، وقدَّرهـا المؤلف الثاني بثلاثة آلاف .
(٣) قدَّرهـم المؤلفان الأول والثاني بعشرة آلاف .
(٤) القاضي، مصدر سبق ذكر، ص ٥٨ . وقد عبَّر عن ذلك بلهجته المحلِّية التي كتب بها قـائلا : «أهل حـايل لما تحققوا قبـالـة ابن سعـود حبـوا يظهرون على الـدويش مـا دام ما اجتمع عليه غزوان عساهم يدقمون هالشوكة ويتنمرون ويتنومسون فيها». وقد قدَّر الذكير (نسخـة خاصة، ص ١٤١) أولئك الأتباع بـ ١٥٠٠ من الحضر، و٧٠٠ من البدو.
(٥) الريحاني، مصدر سبق ذكره، ص ٢٨٣ .

رجـال تلك الفرقـة بالهجـوم في الـوقت المحدَّد، فأربكت الإخـوان المفـاجأة نوعـاً ما؛ إذ لم يتـوقعـوا ذلك الهجوم لتبـادل الرسـائل بين قائدهـم وابن طلال، وظنوا أن الهجـوم - ما دام قد وقع - هجوم كلِّي لقـوات الأخيـر. لكنهم سرعـان مـا اكتشفـوا قلَّة عـدد المهـاجمين، فانقضُّوا عليهم، وقتلوا أكثرهـــم. وفرَّ من نجـا من القتل إلى النِّيصية والوُقَيد الواقعة غرباً عنها [1].

وكان الملك عبد العزيـز، كما ذكر سابقاً، قد تـوجه بقوة كبيرة إلى جبل شمَّـر، كما كـان على اتصـال مستمر مـع الدويش ومن معـه. ولمعرفته بـوجود الأمير محمد بن طلال في النِّيصيـة انطلق مسرعاً إلى الجُثَـاميـة، فوصل إليهـا، واجتمع بقـادة أتبـاعه للتشـاور في خطـة الهجوم على ابـن طلال، الذي لــم يعلم بوصـول هذا الملك وقـوته الرئيسة إلى هذا المكان. وتقرَّر أن تذهـب فئات الإخوان ليلاً للإحاطة بالنِّيصيـة، وقطع خط انسحـاب من كانـوا فيها إلى حـائل، وأن يبدأ الهجوم عليهم عند انبـلاج الفجر بعد إطلاق نيـران المدافع من القوة الرئيسة التي مع الملك عبدالعزيز نفسه، وهي من الحاضرة، على أن تطلق نيران البنـادق دفعـة واحـدة من كل صوب، وأن يكـون الهجوم من جميع الجهـات ليحدث التأثيـر المطلوب. ونُفِّـذ ما تقـرَّر بدقـة وإحكام [2]. وحـاول من هـوجموا أن يـدافعـوا عن أنفسهم، لكنهم

---

(١) ابن هـذلـول، مصـدر سبق ذكـره، ص ١٣٢. على أن الـذكير (نسخـة خـاصـة، ص ١٤٢) قال: إنه قتل من الإخوان، أيضا، قتلى كثيرة.

(٢) المصدر نفسه، الصفحة ذاتها؛ ابن هذلـول، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٣.

أدركـوا أن موقفهم ميؤوس منه. وقد قُتِل كثير منهم، واعتصم بعضهم بحصون النِّيصيـة، فهوجمـوا، وقُتِل من قُتِل، واستسلم من استسلم بأمـان. أما البعـض الآخر - وفي طليعتهم ابن طـلال - فتمكنـوا من اللجوء إلى جبل أجـأ القريب من ميـدان المعركـة، ثم الـوصول إلى حائل[1].

بعد أن وصـل الأمير محمد بـن طلال إلى حـائل ركَّز نشاطـه على تقـوية دفـاعاتهـا الخاصـة المتمثِّلة في أسوارهـا والحصون والقـلاع المجاورة لهـذه الأسوار. وظـلَّ يدير تلـك الدفاعـات من قصـر بَرْزان الشهيـر. أما الملك عبـد العـزيز فكتب إلـى كبار أهل حـائل يطلب منهم أن يسلِّموا ليسلموا. فأجـابـوه بقبول التسليم على أن يبقى ابن طلال أميـراً للبلـد[2]. فـرفض الملك ذلك، وزحـف بقـواتـه حتى اقتـرب من المدينـة ذاتها، واتخـذ من مكان قـرب سفح أجـأ الـواقع غرباً عنها مقراً لقيادته. ثم أرسل فِرَقاً من هذه القوات لتحيط بالمدينة إحاطة السوار بالمعصم[3]. (انظر الخريطة رقـم ١٨).

---

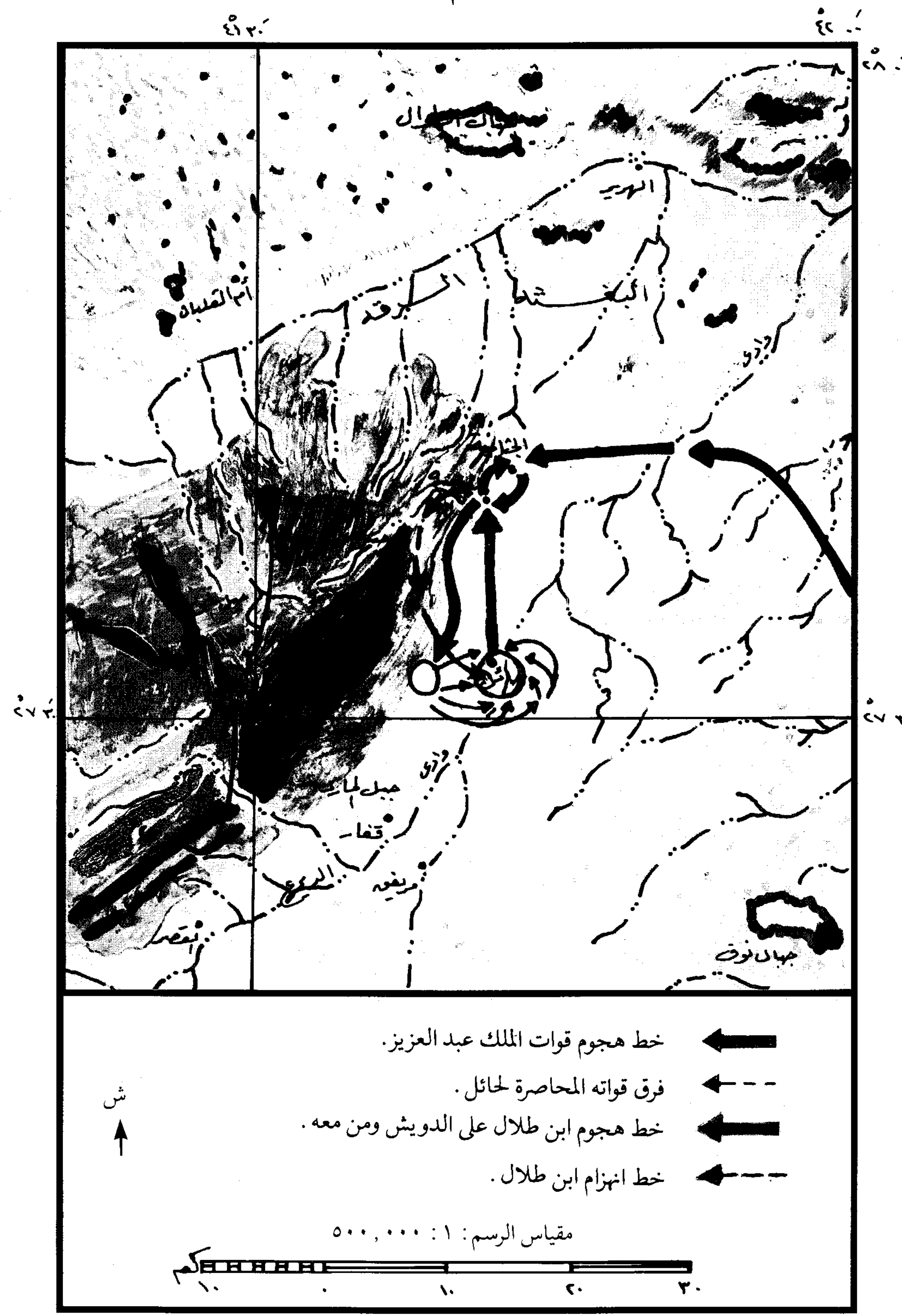
(١) القاضي، مصـدر سبق ذكره، ص ص ٥٨ - ٥٩؛ الريحاني، مصـدر سبق ذكره، ص ٢٨١؛ الذكير، نسخة خاصـة، ص ١٤٢؛ ابن هذلول، مصدر سبق ذكره، ص ص ١٣٣ - ١٣٤. وكـانت تلك المعـركـة ليلـة الجمعـة السـادس من محـرم سنـة ١٣٤٠هـ/ ٨/ ٩/ ١٩٢١م.

(٢) الذكيـر، نسخة خـاصة، ص ١٤٢؛ ابن هذلـول، مصدر سبـق ذكره، ص ١٣٤. ومن المحتمل أن ذلك نابع من رؤيتهم بأنه أكفـأ من غيره للإمارة، أو بإيحاء منه.

(٣) قد يكون من بين تلك الفرق فرقة بقيادة الأميـر فيصل بن عبد العزيز، وأن ما ذكره ابن هذلول عن جهد له عام ١٣٣٩هـ قد حدث في تلك المناسبة.

المعارك النهائية لتوحيد جبل شمَّر

خريطة رقم (١٨)



وظلَّ الملك يشدِّد حصاره لحائل حوالى خمسين يوماً. واستبسل أهلها في الدفاع عنها. لكن إحكام ذلك الحصار، ونفاد كثير من الذخائر والمؤن لديهم، كانا من الأمور التي أضعفت موقفهم جدا[1]. وفي أثناء ذلك حاول ابن طلال أن يقنع بريطانيا بالتوسط بينه وبين الملك عبد العزيز فلم تنجح محاولته[2]. واقتنع كثير من سكان تلك البلدة أن استمرار مقاومتهم لذلك الملك لا فائدة منه، بل سيكون خسارة فادحة لهم. ولهذا لقي إنذاره لهم: بأنه سيقتحم المدينة إن لم يسلِّموا له خلال ثلاثة أيام، صدى في نفوسهم. فقام بعض كبارهم، بقيادة إبراهيم بن سبهان، بالاتصال به، واتفقوا معه على أن يسلِّموا له الحصون والقلاع ليدخل إلى المدينة ويستولي على مقاليد الأمور فيها على أن يمنح الأمان لجميع سكانها ومن التجأ إليها من غيرهم، وأن تُسَلَّم إليه شوكة الحرب.

ولما تمَّ ذلك الاتفاق استدعى ابن سبهان المدافعين من الحصون والقلاع وأبراج السور إلى مزرعته خارج المدينة، وحلَّ محلَّهم في تلك الحصون والقلاع والأبراج أتباع الملك عبد العزيز. ودخلت فئات من قواته إلى المدينة بيسر ودون إراقة دماء.

ولما علم ابن طلال بما حدث أسقط في يده. وبعث إليه الملك مندوباً يعرض عليه الأمان لنفسه ولمن معه إن هو استسلم. فطلب أن

(١) القاضي، مصدر سبق ذكره، ص ٥٩.

(٢) الذكير، نسخة خاصة، ص ١٠٧.

يأتي إليه أحد أفراد الأسرة السعودية ليستسلم لـه . فأرسل إليه الملك الأمير عبـد العزيز بن مسـاعد مع ثلَّة من الفـرسان . وركب معهم إلى الملك خـارج البلدة ، فاستسلم لـه . وذلك في التاسع والعشرين من صفر عام ١٣٤٠هـ(٣١/ ١٠/ ١٩٢١م)[١] .

وبهذا انتهت إمـارة آل رشيد التي دامت تسعين عاماً ؛ بعضها تابعة مخلصـة لقادة آل سعـود ، وبعضها خـارجـة عليهم ومحاربـة لهم . وتوحَّد إقليم جبـل شمَّر تحت راية الملك عبد العزيـز مع ما سبق أن وحَّده من أقاليم البلاد ومناطقها .

ولقد عامل الملك عبد العزيز أهالي حائل بالحسنى ، فوزَّع عليهم مـا لـديه من أطعمـة كـانـوا في أمس الحـاجـة إليها حينـذاك نتيجـة الحصار[٢] . ثم عـاد من هناك إلى الـرياض ومعـه الأمير محمـد بن طلال وبقية أفراد آل رشيـد حيث بقوا معزَّزين مكرَّمين[٣] . وعيَّن في إمارة حـائل إبراهيم بن سبهـان ، ثم أحلَّ محلَّه الأميـر عبدالعـزيز بن مساعد بن جلوي[٤] .

---

(١) الـريحـاني ، مصـدر سبق ذكـره ، ص ٢٨٣ ؛ ابـن هـذلـول ، مصـدر سبق ذكـره ، ص ص ١٣٥ - ١٣٦ .

(٢) القاضي ، مصـدر سبق ذكره ، ص ٥٩ ؛ الريحاني ، مصـدر سبق ذكره ، ص ٢٨٤ . ومن حسن الحظ أن الملك عبد العـزيز قد ظن أن الحصار سيكون أطـول مما كان ، فكانت المؤن التي معه كثيرة .

(٣) الزركلي ، مصدر سبق ذكره ، ج ١ ، ص ٢٥٦ .

(٤) القـاضي ، مصـدر سبق ذكـره ، ص ص ٥٩ - ٦٠ . وكـان تعيين ابن مسـاعـد في رمضان سنة ١٣٤٢هـ .

الدروس المستفادة :

١ - أثر الانقسامات الداخلية لأية قيادة في إضعافها أمام خصومها، وتحطيم كيانها. ويتَّضح ذلك بأجلى صورة في الأثر الذي تركه الصراع بين أفراد آل رشيد على الإمارة؛ سواء ذلك الذي تلا مقتل الأمير عبد العزيز بن متعب، سنة ١٣٢٤هـ، أو الذي تمثَّل في قتل ابنه سعود، عام ١٣٣٨هـ، وما أعقبه من أحداث. فقد تخلَّت عن مساندتهم فئات من البادية التي كانت تساندهم. بل إن بعضاً من الحاضرة غادروا جبل شمَّر إلى جهات أخرى [١]. وهذا مما قلَّل من أعداد محاربيها من جهة، وثبَّط، إلى حدٍّ ما، عزائم من بقي في الجبل من جهة ثانية.

٢ - أن عجز القيادة عن إدراك أبعاد الظروف السياسية المحيطة بها سبب مهم في اتخاذها خطوات وقرارات تؤدِّي إلى ضعف مواقفها وتدهور أوضاعها. ويتجلَّى ذلك في عدم إدراك قيادة جبل شمَّر من آل رشيد لمجريات الأحداث السياسية الخارجية بحيث ظلَّت ترمي بثقلها مع الدولة العثمانية مع أن بوادر الأمور توحي بأن تلك الدولة لم تكن الحصان الذي يمكن الرهان عليه. ويتجلَّى، أيضاً، في عدم إدراكها لما أصبحت عليه قوة الملك عبد العزيز، الذي توحَّدت تحت رايته أقاليم نجد ـ باستثناء جبل شمَّر ـ خلال

(١) الذكير، نسخة خاصة، ص ١٠٧.

سنتيــن، ثــم تمكَّن من تــوحيـد منطقـة الأحســاء والقطيف، وعدم إدراكها لتعاظم تلك القوة بقيام حركة الإخوان، التي جعلت من هؤلاء جنوداً مستبسلين رهن إشــارته، والتي اعتنقتها فئات من قبيلة شمَّـر ذاتهـا. وهي من ركـائز قوة تلك الإمـارة. ولو أدركت تلك الأمور حقيقة الإدراك لكـان من المتوقَّع أن ترضى بمـا عرضه عليها الملك عبـد العزيز، بعد مقتـل الأمير سعود بن عبد العـزيز بن متعب، من بقائها في الإمارة على أن تكـون الشؤون الخارجية في يده. ولو قبلت بعـرضه حينذاك لما عانى أتباعها مـا عانوا من ويلات الحرب، ولمـا فقدوا كثيراً من رجالاتهم، كمـا حدث في معركتي الجُثَامية والنِّيصية. بل إن تلك القيـادة - لعدم بُعْد نظرها - أصـرَّت على استمـرار المطاولـة حتى بعـد أن أصبحت حـائل محاطة بقوات ذلك الملك الكبيـرة من جميع الجهات مما جعل أهل هذه المدينة يقاسون من مآسي الحصار. وكان أن زالت تلك الإمـارة.

٣ - أن إصرار القيادة على استمرار خطئها قـد يدفع بعضاً من أتباعها إلى التخلِّي عنها أمـلاً في إنقاذ ما يمكن إنقاذه، ويكـون في هذا التخلِّي مصلحـة عامـة للجميع أو للأغلبيـة الساحقـة. وهذا مـا حدث عنـدما رأى عـدد من كبار أهل حـائل، بقيادة إبـراهيم بن سبهـان، أن أميرهـم مستمـر في المطاولـة رغم معـاناة الأهـالي عمومـاً من ويلات الحصـار، فتفاوضـوا مع الملك عبد العـزيز،

وحصلوا على أمان منه لأولئك الأهالي ومن التجأ إلى مدينتهم مقابل دخولهم تحت طاعته. فكان ذلك أنسب حلٍّ للموقف الذي كانوا فيه.

٤ - أهميَّة وضوح الهدف لدى القائد في الوصول إلى ذلك الهدف. فقد كان الملك عبد العزيز يعرف هدفه تجاه جبل شمَّر غاية المعرفة؛ وهو توحيد ذلك الإقليم مع ما سبق أن وحَّده من أقاليم ومناطق. وكان لهذا أثره الإيجابي في وضع خططه لذلك التوحيد وفي تنفيذه لتلك الخطط.

٥ - أهميَّة التخطيط الجيِّد والتنفيذ الدقيق في تحقيق النجاح على الخصوم. فقد كان من أكبر عوامل انتصار الملك عبد العزيز على إمارة آل رشيد، ثم إنهائها، أنه وُفِّق في تخطيطه لمعاركه معها، وفي تنفيذه لتلك المعارك. وذلك بأن بدأ عملياته الحربية صوب جبل شمَّر بإرسال فئات من أتباعه ـ ومعظمها من الإخوان ـ إلى هناك لتقوم بإغارات تهدف إلى إنهاك الخصم وزعزعة ثقة أنصاره. ثم أعقب ذلك بإرسال حملات كبيرة من أهدافها شلُّ حركة القبائل المؤيِّدة لآل رشيد شمال جبل شمَّر وشرقه، وبالتالي عزل ذلك الجبل عن كلٍّ من العراق والشام. ومن أهدافها البدء بحصار بلدان الجبل؛ خاصة مدينة حائل. وبعد هذه وتلك قاد قواته الكبيرة إلى هناك ليضع بنفسه نهاية لإمارة آل رشيد. وكان التخطيط لمعركة النِّصية، بالذات، وتنفيذ تلك المعركة من أوضح علامات جودة تخطيطه ودقة تنفيذه لما خطَّطه.

٦ - أهميَّة توافر المعلومات لدى القائد عن خصمه كي يكون تخطيطه لمجابهته جيداً، ويكون تنفيذه لخططه ناجحاً. ومن الواضح أن الملك عبد العزيز قد جمع من المعلومات عن إمارة الجبل؛ قوة محاربة، وتحصينات دفاعية، وإمكانات مالية، ما ساعده في رسم خططه للتعامل معها والانتصار عليها.

٧ - أهميَّة حكمة القائد في تحقيق هدفه بأقلِّ ما يمكن من الخسائر. وقد ظهر ذلك في تعامل الملك عبد العزيز مع إمارة جبل شمَّر من عدة وجوه أبرزها :

أ - أنه كان يدرك أن قوة تلك الإمارة في مراحلها النهائية كانت محدودة، وأن عدد مقاتليها لم يعد كبيرا. ومع ذلك فقد أعدَّ لمحاربتها جيشاً يناهز العشرة آلاف مقاتل مع عدد من المدافع. وواضح أن الهدف من هذا الحشد الضخم إخافة الخصم وتقليل الخسائر.

ب - أنه فضَّل مطاولة حصار حائل على اقتحامها. ذلك أنه كان مدركاً بأن مآلها التسليم في نهاية الأمر لإحكامه ذلك الحصار، وأن اقتحامها - وإن قصَّر مدة بقاء إماراتها - سيعرِّض أتباعه والمدافعين عن تلك المدينة لخسائر يمكن تفاديها. وكان حريصاً على أرواح أولئك الأتباع، كما كان حريصاً على أرواح أولئك المدافعين، الذين كان يعرف بأنهم سيكونون، أيضاً، من أتباعه مستقبلا. وكلما كانت الجراح أقلَّ كان التقبُّل أعمق.

ج - وكـان من حكمته بعـد أن حقَّق هدفـه في توحيـد إقليم جبل شمَّر :

(١) أنه عامل أهل حائل ومن التجأ إليهم بالحسنى ، التي كان من مظاهرها توزيعه عليهم ما كانوا في حاجة ماسة إليه من أطعمة .

(٢) أنـه أمَّر على حـائل رجلاً من كبـار أهلها مـراعاة لمكـانتهم ، وتقديراً لما قام به ذلك الرجل من عمل خدم المصلحة العامة .

(٣) أنه أكرم مثوى آل رشيد ، رغم محاربتهم السابقة الطويلة لـه ، وأنزلهم منزلاً عزيزاً لديه في الرياض .

وكـان لتلك الحكمـة أثـر كبير في نفـوس المُنتَصَـر عليهم ؛ قـادة وأتباعاً .

الفصل الثالث عشر

معارك توحيد الحجاز

سنتي ١٣٤٣ - ١٣٤٤هـ

١٩٢٤ - ١٩٢٥م

الموقف السياسي قبل تلك المعارك

سبقت الإشارة إلى العلاقات بين حاكم الحجاز، الحسين بن علي، والملك عبد العزيز قبل بداية الحرب العالمية الأولى وخلالها، وكيف توتَّرت تلك العلاقات حتى حدثت معركة تُرَبة، سنة ١٣٣٧هـ، التي أباد فيها الإخوان التابعون لهذا الملك أغلب قوات ذلك الحاكم.

لقد كانت تلك المعركة نصراً كبيراً للملك عبد العزيز معنوياً ومادياً. فقد أكسبته ثقة كبيرة في مقدرته على مجابهة الملك حسين وغيره من حكام الجزيرة العربية مستقبلاً بنجاح، وأغرت كثيراً من الفئات في هذه الجزيرة بالانضمام إليه. وأكسبته، أيضاً، أكثر ما سبق أن جمعه الملك حسين خلال ثورته على العثمانيين، وما غنمه منهم بعد استسلام المدينة المنورة له، من أسلحة ومعدَّات. وبقدر ما كانت نتيجة تلك المعركة نصراً كبيراً للملك عبد العزيز كانت خسارة فادحة للملك حسين معنوياً ومادياً. فقد اهتزَّت ثقة أتباعه به، ولم تعد له الهيبة التي كان يتمتَّع بها؛ خصوصاً داخل الجزيرة العربية. بل إن ثقته بنفسه قد تزعزعت. فقد اتَّصل ببريطانيا لحمايته وهو الذي كان يظن أنه الحاكم الأقوى بين حكام جزيرة العرب. وبالإضافة إلى ذلك فإنه خسر الكثير من أفراد جيشه النظامي وأتباعه، كما خسر معدَّات وأسلحة وذخائر يصعب تعويضها.

ونتيجة لتأثُّر الملك حسين بما حدث في تُرَبة فقد الرؤية الصحيحة إلى الموقف. فراح ينتهج سياسة أكثر تعنُّتاً وتصلُّباً ضد

الملك عبد العزيز. ومن ذلك أنه قرَّر قطع التعامل التجاري مع النجديين (أتباع ذلك الملك)[1]، ومنعهم من دخول الحجاز لأداء الحج[2]، الذي هو ركن من أركان الإسلام. وأحسَّت بريطانيا بالمرارة التي كان يشعر بها، وهو الذي تعاون معها ضد خصومها العثمانيين إلى أقصى حد. فحاولت تهدئته، وأمدَّته بعدد من الطائرات والمعدَّات الحربية. وطلبت من الملك عبد العزيز أن ينسحب بقواته من تُرَبة، فاستجاب لطلبها على ألاَّ يقوم الملك حسين بأي اعتداء على أتباعه وأراضيه. وسألته أن يؤجِّل حج أتباعه تلك السنة (١٣٣٧هـ)، فلم يمانع[3].

ومن الواضح أن الملك عبد العزيز راعى أموراً كثيرة في اتخاذ ذلك الموقف المرن. منها: إدراكه هيمنة بريطانيا على المنطقة بدرجة كبيرة، وصعوبة معارضتها حينذاك؛ خصوصاً بعد أن انتهى نفوذ منافستها الدولة العثمانية فيها نتيجة الحرب العالمية الأولى. ومنها أن مرونته السياسية ستجعل القادة البريطانيين أكثر ميلاً إليه وأقلَّ اندفاعاً مع خصمه، الملك حسين. ومن المحتمل جدًّا أنه قد أدرك، أيضاً، أن بريطانيا لن تحرص كل الحرص على مساندة هذا الخصم بعد أن انتهت الحرب العظمى وحقَّقت ما تريده منها. بل ربما أدرك أنها ستتخلَّى عن الحسين تدريجياً بعد أن أصبح يتطلَّع إلى ما سبق أن

---

(١) الذكير، مصدر سبق ذكره، ص ٨٥.

(٢) السباعي، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٤٢.

(٣) ترولر، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٤.

وعدته به من وعود كاذبة. ومن تلك الأمور أن الملك عبد العزيز كان حينذاك بصدد البدء بمعالجة قضايا مُلحَّة كقضية جبل شمَّر وقضية عسير، وهو لا يريد أن يفتح جبهات متعددة في آن واحد.

ولقد نجحت بريطانيا في الوساطة بين الملك حسين والملك عبد العزيز لتوقيع هدنة بينهما عام ١٣٣٨هـ [١]، لكنها فشلت في إقناع الأول بالسماح لأتباع الثاني بالحج هذا العام والعام الذي تلاه. وفي سنة ١٣٤٠هـ قبل الملك حسين أن يحج أولئك الأتباع على أن يكون عددهم محدوداً، وأن يكونوا تحت قيادة أمير يستطيع السيطرة عليهم ومنعهم من أي عمل يعكِّر الأمن [٢].

على أن إنهاء الملك عبد العزيز لإمارة آل رشيد في جبل شمَّر في أواخر صفر من عام ١٣٤٠هـ، وما تلا ذلك من بسط نفوذه على ما يليه شمالاً من جزيرة العرب خلال ذلك العام، وما حقَّقه من توحيد لمنطقة عسير عام ١٣٣٨هـ وتوطيد لحكمه فيها عام ١٣٤١هـ، والنشاط المكثَّف لأتباعه من الإخوان حول الحدود مع كلٍّ من العراق وشرق الأردن، كانت من الأمور التي أثارت مخاوف الملك حسين أكثر من ذي قبل. لكنه، مرة أخرى، لم يتَّخذ الطريق الصحيح للتعامل مع الظروف السياسية المحيطة به. ذلك أنه راح يطالب

(١) المصدر نفسه، ص ١٥١.

(٢) وهيم، مصدر سبق ذكره، ص ص ٢٩٩ - ٣٣٠. ويذكر أن عدد الذين حجوا ذلك العام حوالى ١٨٠٠.

بتخلِّي الملك عبد العزيز عن جبل شمَّر ومنطقة عسير، وعاد إلى منع أتباعه من أداء الحج [1]. وقام أتباع ابنيه، فيصل وعبد الله، في العراق وشرق الأردن باعتداءات على قوافل تجارية سعودية. بل إن أتباع عبد الله أغاروا على وادي السرحان، كما احتلُّوا قُريَّات الملح. وعزم الملك عبد العزيز على استردادها بالقوة فرأت بريطانيا أن العلاقات قد توتَّرت جدًّا بين هذا الملك وكلٍّ من الملك حسين في الحجاز وابنيه فيصل وعبد الله في العراق والأردن [2]. فدعتهم إلى مؤتمر في الكويت للنظر في المشكلات القائمة بينهم. لكن ملك الحجاز رفض الحضور إلى ذلك المؤتمر قبل أن ينسحب الملك عبد العزيز من جميع المناطق التي لم تكن تحت حكمه قبل الحرب العالمية الأولى [3]. وانعقد المؤتمر - برعاية بريطانيا - دون حضور ممثِّل له. لكن المؤتمرين لم يصلوا إلى اتفاق؛ خاصة أن ممثلي العراق وشرق الأردن تعرَّضوا لأمور متصلة بالحجاز مع أن الملك عبد العزيز قد اشترط ألاَّ يناقش أي وفد إلا ما يخص بلاده، وأنهما

---

(١) السباعي، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٤٢.

(٢) تولى فيصل بن الحسين عرش العراق سنة ١٣٣٩هـ، وأصبح أخوه عبد الله أميراً لشرق الأردن في العام ذاته. الزركلي، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ٣٢٥.

(٣) الذكير، مصدر سبق ذكره، ص ٨٥؛ ترولر، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٠.

وافقا على ذلك [1]. وبفشل المؤتمر توتَّرت العلاقات بين الملك حسين والملك عبد العزيز أكثر فأكثر. ومما زاد الطين بلَّة أن طموح الملك حسين السياسي لم يقف عند الحد الذي كان ينتظر أن يقف عنده. فرغم النكسات التي واجهته؛ سواء في مواجهته العسكرية مع الملك عبد العزيز أو في ضياع الآمال التي عقدها على تحالفه مع بريطانيا، أقدم على اتخاذ لقب خليفة المسلمين، وذلك إثر إلغاء الحكم الجديد في تركيا لذلك المنصب [2]. وكان هذا الإجراء مما أغضب الملك عبد العزيز، كما أغضب شخصيات وجهات إسلامية متعدِّدة؛ خصوصاً في مصر والهند [3]. وقد سارع الملك عبد العزيز إلى الاستفادة من ذلك سياسياً في الحرب الإعلامية القائمة بينه وبين خصمه الملك حسين حينذاك. فكتب بياناً أوضح فيه مآخذه على ذلك الخصم؛ مشيراً إلى عدم أهليته لتولِّي الخلافة التي هي شأن عام لجميع المسلمين. ونشر ذلك البيان في عدة صحف عربية

---

(١) الزركلي، مصدر سبق ذكره، ج١، ص ٣٢٦؛ وهيم، مصدر سبق ذكره، ص ص ٣٤١ - ٣٤٢. وكان انعقاد الدورة الأولى من ذلك المؤتمر يوم التاسع من جمادى الأولى عام ١٣٤٢هـ وكانت نهايته في شعبان من ذلك العام. انظر ترولر، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٦؛ موضي بنت منصور آل سعود، **الملك عبد العزيز ومؤتمر الكويت**: ١٣٤٢هـ، دار تهامة، ١٤٠٢هـ، ص ص ١٢٢ - ١٢٣.

(٢) كان إعلان الخلافة له في عمان في ٨/ ٦/ ١٣٤٢هـ. الريحاني، مصدر سبق ذكره، ص ٣٢٤.

(٣) الزركلي، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ٣٢٦.

وهندية، فحظي بتعليقات مؤيِّدة [1]. ونتيجة لكل ما سبق أصبحت الطريق ممهَّدة لتدخل المواجهة بين الملكين حسين وعبد العزيز مرحلة جديدة ذات طبيعة عسكرية.

الخطوات التمهيدية للعمليات العسكرية:

كان من الخطوات التمهيدية التي قام بها الملك عبد العزيز قبل البدء بعملياته العسكرية لتوحيد الحجاز أن توجه إلى القصيم حيث عيَّن الأمير عبد العزيز بن مساعد أميراً على جبل شمَّر، وربط به مؤقتاً كلاًّ من القصيم وما يقع شمال ذلك الجبل [2]؛ تمهيداً لاتخاذ إجراءات عسكرية. ولعلَّ مما شجعه على التوجه إلى الحلِّ العسكري فشل المحاولات التي بذلت للتوصل إلى حلٍّ سلمي، وأن بريطانيا قطعت المعونة المالية عنه بحيث لم يعد يخشى أن تُستَغَلَّ تلك المعونة في الحدِّ من حركته [3]. وبعد أن رتَّب ما رتَّب وهو في القصيم عاد إلى الرياض. فدعا علماء البلاد، وأمراء المدن والقرى، وزعماء الإخوان، ورؤساء القبائل إلى مؤتمر يعقد في هذه العاصمة خلال شهر ذي الحجة عام ١٣٤٢هـ. وحضر أولئك المدعوون، فافتتح المؤتمر أبوه الإمام عبد الرحمن بالإشارة إلى تذمُّر أهل

---

(١) الذكير، مصدر سبق ذكره، ص ص ٨٥ - ٩١. وقد أورد ذلك البيان وبعضا من التعليقات عليه.

(٢) الريحاني، مصدر سبق ذكره، ص ٣٢٣.

(٣) ترولر، مصدر سبق ذكره، ص ٢١٦.

البـلاد كافـة من منع الملك حسين لهم من أداء الحـج . ثم ترك لابنه الملك عبـد العزيز شـرح أبعاد المـوقف . وتداول الجميع الأمـر، ثم تـوصلوا إلى قـرار يقضي بـوجوب أداء ذلك الـركن الإسـلامي العظيم سلماً أو عن طـريق القوة على أن يكون التعـامل مع القضيـة مرهـوناً بالملك عبـد العزيـز [1].

وكـان من الخطـوات العسكريـــة التمهيديـة التي اتخذهـا الملك عبد العزيز قبل أن يبدأ عملياته إلى توحيد الحجاز أن أرسل فئات من الإخوان إلى الحـدود مع العراق ، وفئات أخـرى منهم إلى الحدود مع شـرق الأردن ؛ استعـداداً لصـدِّ أيـة حـركـة قـد تصـدر من القطـرين المذكورين [2]، اللـذين يحكم فيهمـا رسميـاً ابنـا الملك حسين : فيصل وعبـد الله . ويبـدو أنـه رأى أن أفضـل وسيلـة للحيلـولـة دون قيامهما بأية مساندة لأبيهما إذا اتجهت القوات السعودية إلى الحجاز هي أن تأخـذ تلك الفئات الإخـوانية زمام المبـادرة وتهاجم القطـرين المذكورين تحـذيراً وإنذاراً . ولإدراكـه أن عبد الله كـان أكثر اندفـاعاً ضده من أخيـه فيصل جـاء تركيز هجـوم الإخـــوان على شرق الأردن في تلك الفترة [3].

---

(١) الريحـاني ، مصدر سبق ذكره ص ص ٣٢٦ - ٣٢٧ ؛ الزركلي ، مصـدر سبق ذكره ، ج ١ ، ص ص ٣٢٩ - ٣٣٠ .

(٢) الذكيـر، مصدر سبـق ذكره، ص ٩٢ ؛ ترولـر، مصدر سبـق ذكره، ص ص ٢١٧ - ٢١٨ .

(٣) الذكير، نسخة خاصة ، ص ١٣٩ .

معركة الطائف:

أ - الموقع والأهميَّة:

بلدة الطائف إحدى مدن الحجاز المهمة. وتقع جنوب شرقي مكة المكرمة، ولا تبعد عنها إلا حوالى خمسة وثمانين كيلاً عن طريق كرا. ولارتفاعها عن سطح البحر بما يقرب من ١٧٠٠م، وطيب جوِّها، وكثرة أشجارها وفواكهها، كانت مصيف الحجازيين؛ خصوصاً أهل مكة وجدة. وهي ملتقى طرق الحجاج القادمين من نجد وما يليها شرقاً، والقادمين من عسير وما يليها جنوباً.

وفي عهد الدولة السعودية الأولى كانت الطائف منطلق قوات الأشراف في كثير من غزواتهم للأراضي النجدية، ومنطلق قوات محمد علي - حاكم مصر العثماني - لقتال أنصار تلك الدولة في منطقة عسير، كما كانت مفتاح طريق هؤلاء الأنصار لتوحيد منطقة الحجاز تحت رايتهم، وآخر معقل لهم في تصدِّيهم لذلك الحاكم في هذه المنطقة. وكان الملك حسين يدرك أهميَّة موقعها الاستراتيجي غاية الإدراك، ويعلم أنها الهدف الأول لقوات الملك عبد العزيز إن هي قرَّرت الزحف على الحجاز. ولذلك لم يكن غريباً أن يتخذ كل ما رآه ضرورياً للدفاع عنها إثر هزيمة قواته في تُرَبة سنة ١٣٣٧هـ. وكان مما قام به أن أحكم سورها المحيط بها. وبالإضافة إلى ذلك فإن ما حباها الله به من جبال شاهقة عامل من العوامل المساعدة للدفاع عنها.

ب - قوات الطرفين وخطتاهما

مع نهاية عام ١٣٤٢هـ اطمأن الملك عبد العزيز إلى أن الجو أصبح مهيَّأً؛ داخلياً وخارجياً، لبدء عملياته العسكرية الهادفة إلى انتزاع منطقة الحجاز من خصمه الملك حسين وتوحيدها مع ما وحَّده من مناطق البلاد. وعندئذ وجَّه قوة من الإخوان إلى الاجتماع في تُرَبة استعداداً لبدء تلك العمليات. وجعل قيادتها لخالد بن لؤي وسلطان بن بجاد.

ولم يكن غريباً أن تكون تُرَبة مركز التجمع لتلك القوة. ذلك أنها البداية الجغرافية المناسبة للتحرُّك صوب الطائف، التي سبق الحديث عن أهميَّة موقعها بالنسبة لبقية منطقة الحجاز استراتيجياً وتاريخياً، كما أنها البلدة التي دارت حولها المعركة المشهورة عام ١٣٣٧هـ. ولم يكن غريباً، أيضاً، أن يسند الملك عبد العزيز قيادة تلك القوة إلى خالد بن لؤي وسلطان بن بجاد. فقد كانا قائدي المعركة المذكورة. وقد اختلفت المصادر في عدد أفراد الإخوان الذين اجتمعوا في تُرَبة، لكنهم كانوا مؤلفين من خمسة عشر لواء [١]، وكانوا من هجر مختلفة أغلبها من عتيبة وقحطان وقبائل الخُرْمة وتُرَبة. على أن أهل الغُطْغط - مركز ابن بجاد - كانوا يحتلُّون

---

(١) الريحاني، مصدر سبق ذكره، ص ٣٣٠. ويقول: إن أفراد اللواء ـ حسب العرف المحلِّي حينذاك ـ يتراوح بين المئة والخمس مئة. لكن من المؤكد أن لواء الغُطْغط ـ مثلاً ـ لا يقارن عدداً بغيره من الألوية.

مركز الصدارة من حيث العدد. ومن المرجَّح أن الجميع لم يبلغوا الألفين [1]. وكانوا يمتطون الإبل ومعهم أعداد لا بأس بها من الخيل، كما كانوا مسلَّحين بالبنادق والسيوف. وقد أتاهم أمر الزحف على الطائف في شهر المحرم عام ١٣٤٣هـ (٨/ ١٩٢٤م) [2]. وبذلك يتبيَّن أن خطة الملك عبد العزيز كانت هجومية اعتمدت - كما اتضح من تنفيذها - على سرِّية الحركة وسرعتها.

وكان الملك حسين قد أدرك قوة خصمه الملك عبد العزيز منذ معركة تُرَبة المشهورة. ولذلك عزَّز دفاعات الطائف لتوقُّعه هجوماً سعودياً إخوانياً عليها. ثم ازداد إدراكه لتلك القوة بعد توالي انتصارات الملك عبد العزيز في شرق الجزيرة العربية وجبل شمَّر وعسير. على أنه كان، فيما يبدو، غير مدرك ـ أواخر سنة ١٣٤٢هـ ـ أن ساعة الصفر لهجوم سعودي على الطائف قد أزفت. ولهذا لم يحشد قوات كبيرة للدفاع عنها. ولعلَّ مما طمأنه نوعاً ما اعتقاده بأن دفاعاتها كانت قوية؛ إضافة إلى ما كان يظهره له قادة باديتها من ولاء. كان في البلدة قوة نظامية مؤلفة من خمس مئة رجل مسلَّحين بالبنادق والرشاشات وبعض المدافع الجبلية [3]. وكان على رأس هذه القوة وزير الحربية

---

(١) الذكير، نسخة خاصة، ص ١٤٧.

(٢) العبيِّد، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣٠. وهذا هو المفهوم من جميع المصادر؛ لأن الإخوان وصلوا ضواحي الطائف في مستهلِّ صفر من ذلك العام.

(٣) الذكير، نسخة خاصة، ص ١٤٧؛ السباعي، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٤٤.

اللواء صبري باشا العزَّاوي [١]. وكان يساندها بعض الحرس الخاص التابع لأمير البلدة شرف بن راجح [٢]، وفئات من البادية المحيطة بها[٣]. وكانت خطة الحسين دفاعية، لكنها - كما اتضح من سير الأحداث - لم تتَّخذ من الإجراءات والأسباب ما يضمن نجاحها. (انظر الخريطة رقم ١٩).

سير المعركة:

انطلقت قوة الإخوان من مركز تجمُّعها في تُرَبة صوب الطائف بسرعة وسرِّية. فاستولت على مخفر كلاخ، ثم على مخفر الأخيضر، دون مقاومة تذكر [٤]. وقد انضم إليها في الطريق أعداد من رجال القبائل؛ خصوصاً الأشراف الحُرَّث وثقيف، حتى اقترب عددها من ثلاثة آلاف مقاتل [٥]. وفجأة وصلت إلى الحَوِيَّة إحدى ضواحي الطائف، في أوائل شهر صفر عام ١٣٤٣هـ (٩/ ١٩٢٤م). فخرجت

---

(١) أطلق عليه كلٌّ من المؤلفين السابقين لقب وزير. وأطلق عليه الزركلي (مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ٣٣١) لقب وكيل الحربية. وسمَّاه كلٌّ من الريحاني (مصدر سبق ذكره، ص ٣٣١) وابن هذلول (مصدر سبق ذكره، ص ١٥٢) ناظر الحربية. وواضح أن الأخير نقل عن الريحاني تلك التسمية.

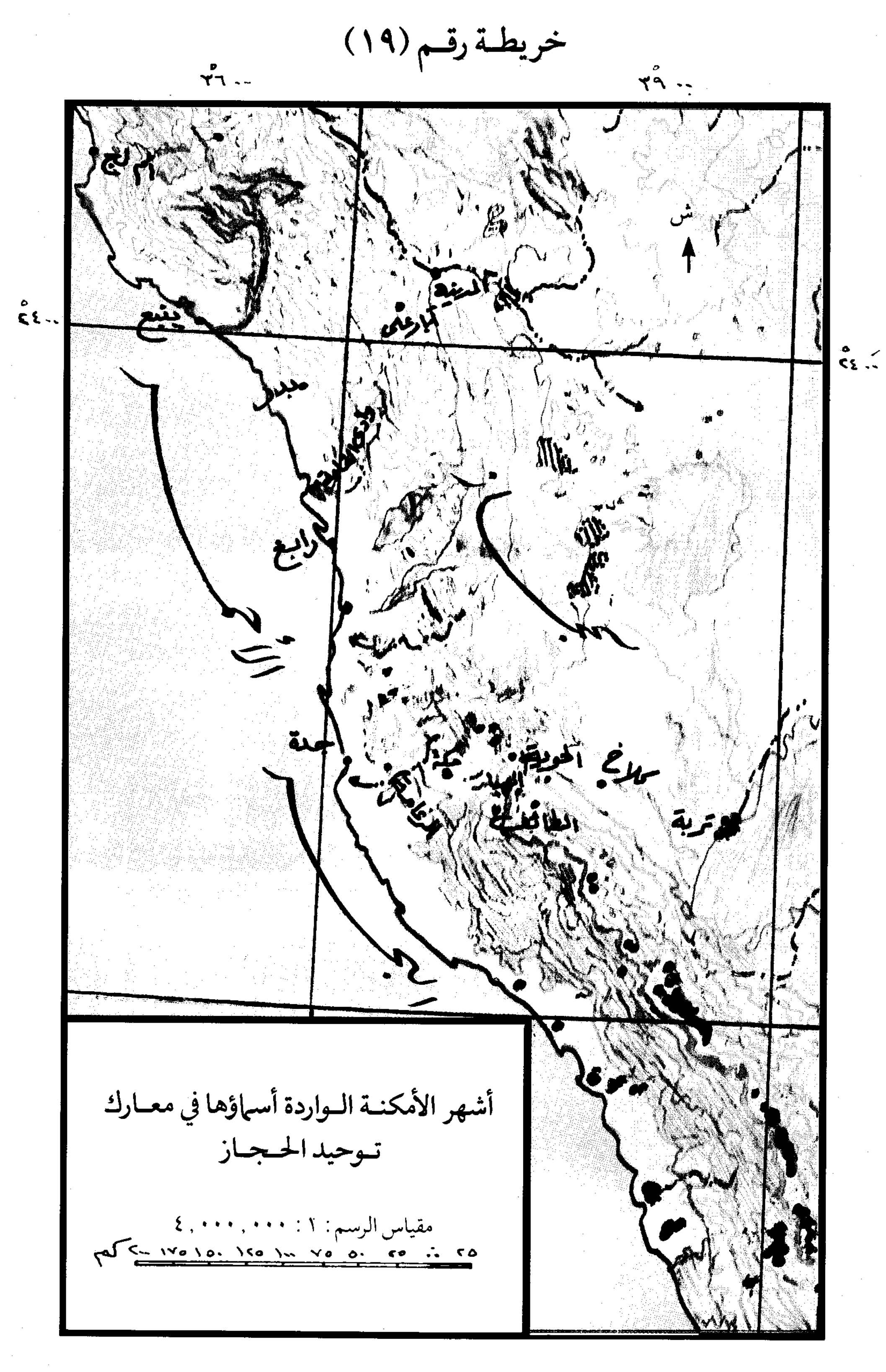
(٢) السباعي، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٤٤.

(٣) أكثر تلك الفئات من عتيبة والشلاوي، كما ذكر العبيِّد، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣٠.

(٤) السباعي، مصدر سبق ذكره ج ٢، ص ٢٤٤.

(٥) الذكير، نسخة خاصة، ص ١٤٧.

خريطة رقم (١٩)



٣٦ ..
٣٩ ..
٢٤ ..
ش
أملج
ينبع
رابغ
جدة
الحوية
الطائف
تربة
أشهر الأمكنة الواردة أسماؤها في معارك توحيد الحجاز
مقياس الرسم : ١ : ٤,٠٠٠,٠٠٠
٢٥ .٠ ٢٥ ٥٠ ٧٥ ١٠٠ ١٢٥ ١٥٠ ١٧٥ ٢٠٠ كم

القوة النظـامية الشريفية من تلك البلـدة، واتجهت مع من انضم إليها من فئات مسـاندة لصدِّ المهـاجمين. وكانت هـذه القوة ومن يسانـدها أقـوى تسليحاً من الإخـوان، لكن هؤلاء كـانوا أكثـر عددا. وحـدثت اشتباكات ضارية بين الطرفين دامت عدة ساعات. وكانت النتيجة أن تراجعت القوة الشريفية إلى المرتفعـات الواقعة غرب الحَوِيَّة، وظلَّت ثلاثـة أيام متمركـزة في مواقعها الـدفاعية قـادرة على منع الإخوان من التقدُّم، وعاجزة عن إبعادهم عن المنطقة (١). لكن قادتها أدركوا في نهاية الأمر أن الوقت في غير صـالحهم، فتراجعوا إلى الطائف ذاتها، واتخذوا منهـا ومن الجبال المحيطة بهـا غربـاً وشمالاً مواقع جـديدة يطلقون منها نيران مدافعهم. على أن مما زاد موقفهم حرجاً أن أعداداً من فئات البادية التي كانت معهم أخذت تغـادر صفوفهم مبتعدة عن القتال أو منضمَّة إلى خصومهم (٢). ولعلَّ من أسباب ذلك ما لمسته تلك الفئات من ضعف من كانوا يقاتلون معه وقوة من يقاتلون ضده. ولـم يكن نادراً أن تغيِّر البادية موقفها خلال المعارك، التي هي طرف فيها لكنهـا ليست معركتهـا الخاصة. وذلك عنـدما تتضح لهـا بوادر انتصـار من كـانت تحـاربـه. وهـي تفعل ذلك طمعـاً في مشـاركـة المنتصر في الغنائم، أو خوفـاً منه. ولعلَّ من تلك الأسباب، أيضاً، كـون أحد قـائدي الإخوان، سلطـان بن بجـاد، من قبيلة عتيبـة التي

---

(١) المصدر نفسه، الصفحة ذاتها؛ الريحاني، مصدر سبق ذكره، ص ٣٣٢.

(٢) المصدر الأخير نفسه، الصفحة ذاتها.

كانت منها بعض الفئات المقاتلة مع جيش الملك حسين [1].

وكان الملك حسين - إثر علمه بهزيمة قواته في الحَوِيَّة - قد سارع إلى إرسال ابنه علي من مكة بنجدة لتلك القوات. وكانت هذه النجدة مكوَّنة من خيَّالة وهجَّانة [2]. أما الخيَّالة فاتخذوا، مع علي، طريق كرا، ووصلوا إلى الطائف مساء اليوم الخامس من صفر [3]. وأما الهجَّانة فسلكوا طريق السيل، ولم يصلوا إلى هذه البلدة. على أن الأمير علياً خرج من الطائف في اليوم التالي عندما اقترب الإخوان من أسوارها، وعسكر في الهدا [4]. ولعله ظن أن بقاءه في البلدة سيعرِّضه لخطر أكبر، وأن مدافعته من الهدا ستكون أجدى. غير أن خروجه - مهما كان سببه - زاد من تدهور معنويات قواته الأخرى. ولذلك لم يكن غريباً أن يخرج من الطائف - عصر يوم الجمعة السابع من صفر - كلٌّ من أميرها، ووزير الحربية والجنود النظامين،

---

(١) مما يوحي بذلك قول القاضي (مصدر سبق ذكره، ص ٦٠): «ثم صار وعبة (فئة متعاطفة مع الخصم) عتبان كاتبوا ابن بجاد.

(٢) قدَّرهم السباعي (مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٤٤) بثماني مئة جندي نظامي معهم أربعة مدافع جبلية وثمانية رشاشات.

(٣) المصدر نفسه.، الصفحة ذاتها.

(٤) الريحاني، مصدر سبق ذكره، ص ٣٣٢. ورد اسم هذا الموضع في كتاب بلاد العرب للأصفهاني، وكتاب الزركلي «الهدة». لكنه ورد كما كتب في المتن لدى بعض الكتاب: ؛ مثل السباعي. وهو المتداول بين السكان المعاصرين. ولذلك اختير هنا.

وكبار الموظفين، وأعداد من الأهالي، ليلتحقوا بالأمير علي ومن معه.

وبخروج القوة الشريفية المدافعة من الطائف لم تبق أية عقبة أمام الإخوان ومن انضم إليهم لدخولها. ولم ترخ ليلة الثامن من صفر سدولها إلا وقد دخلتها فئات من الإخوان والبادية التي التحقت بهم[1]. وفي ضحى ذلك اليوم دخلها القائدان، ابن لؤي وابن بجاد، مع بقية الإخوان ورؤسائهم، وتمّت السيطرة على مقاليد الأمور فيها[2].

---

(١) يذكر السباعي، (مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ١٤٥) أن بعض الأهالي فتحوا أبواب البلدة إظهاراً لعدم إرادتهم الحرب. وقد أشارت كثير من المصادر إلى قيام تلك الفئات بأعمال قتل ونهب. وضخّمت جهات معيّنة، لأغراض خاصة، ما حدث. والمرجَّح أنه قد وقعت فعلاً أعمال نهب؛ لا سيما إذا أخذ بعين الاعتبار أن بعض الفئات التي انضمت إلى الإخوان كان من أكبر أهدافها الكسب المادي، وأن بعض رجال الإخوان أنفسهم لم يكن لديهم من العلم والورع ما يمنعهم من ارتكاب أعمال خاطئة كالنهب، بل إن جماعات من البادية التابعة للملك حسين والموجودة داخل البلدة شاركوا في النهب. الريحاني، مصدر سبق ذكره، ص ص ٣٣٢ - ٣٣٣. على أن من المرجَّح جدًّا أنه لم يحدث قتل داخل البلدة إلا لمن أظهر مقاومة أو ظُنَّ أنه مقاوم. ومن المصادر ما ذكر أن نيران البنادق قد أطلقت على الإخوان ومن معهم من بعض البيوت. انظر المصدر الأخير نفسه، ص ٣٣٣.

(٢) الذكير، نسخة خاصة، ص ١٤٨؛ ابن هذلول، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٣.

معركة الهدا:

كان لما حدث في الحَوِيَّة والطائف أثر سلبي كبير على معنويات قوات الملك حسين؛ قادة، وأفراداً، وأتباعاً. وكان من نتيجة ذلك أن انسحب الأمير علي ومن التحق به من القوات متَّجهاً صوب مكة. ولما وصل إلى عرفات أوقفه والده غاضباً عليه، وحشد ما استطاع حشده من قوات نظامية ورجال بادية [1]. ثم أمره بالعودة إلى الطائف لاستعادتها. ولم يكن لعلي بد من طاعة أوامر أبيه رغم أن معنوياته هو ومن معه كانت ضعيفة جدًّا. وسار بالجميع حتى بلغ الهدا.

ولما بلغت الإخوان أخبار عودة الأمير علي بن الحسين بقواته إلى الهدا انطلقوا من الطائف للهجوم عليه. وعند منتصف ليلة السادس والعشرين من صفر بدأوا ذلك الهجوم. واشتد القتال بين الطرفين بقية تلك الليلة. ثم اشتدت وطأة هجوم الإخوان على خصومهم صباحاً، فتراجع الأمير علي مع فرقة من أتباعه إلى كرا، فأمره والده هاتفياً بالعودة إلى ميدان المعركة، وعاد مضطراً، فانهالت عليه نيران الإخوان، ولم يصبح له ولأتباعه بد من الانهزام إلى مكة، تاركين ما كان معهم من أسلحة ومؤن وغنائم لخصومهم. وهكذا انتهت تلك المعركة التي أفقدت الملك حسيناً كل أمل في استعادة الطائف. (انظر الخريطة رقم ٢٠).

---

(١) الريحاني، مصدر سبق ذكره، ص ٣٣٤.

معركتا الطائف والهدا

خريطة رقم (٢٠)

خط تصدّي قوات الملك حسين بن

خط هجوم الإخوان.

خط انهزام قواته.

مقياس الرسم: ١ : ٥٠٠,٠٠٠

دخول مكـة :

كان لما حقَّقـه الإخوان من انتصارات في الطائف وضـواحيها، وما غنموه من أسلحة وذخائر ومؤن، أثر كبيـر في زيادة ارتفاع معنوياتهم وانضمام أعـداد من رجال القبـائل الحجازية إلـى صفوفهم. وأصبح في إمكانهم مواصلة الزحف إلى مكة، لكنهم لـم يفعلوا مؤقتاً. ولعل السبب الأكبـر في ذلك الخشيـة مـن حـدوث قتـال على أرض تلك البلدة المقدَّسة (١)، التي يكنُّون لها كمـا يكنُّ غيرهـم من المسلمين أعظم الاحتـرام. وكانت تلك الانتصـارات مما رسَّخ اقتنـاع الجهات المهتمـة بالمنطقـة بتفـوُّق الملك عبـد العزيـز على خصمـه الملك حسين عسكرياً، بعـد أن ثبت لديها تفوُّقه سياسيـا. وهذا مما دفعها أكثـر فأكثـر إلى اتخـاذ مـواقـف حيـاديـة في النـزاع المستقبلي بين الملكين المذكورين.

أمـا أتبـاع الملك حسين فقـد انهارت معنـوياتهم بدرجــة كبيرة. وكان مما زاد من ذلـك الانهيار ما قام به قـادتهم من تضخيم لما وقع في الطـائف، أو اختلاق مـا لـم يقع؛ أمــلاً في كسب الرأي العـام الإسلامي وتأليبـه ضد الملك عبد العـزيز. ذلك أن إظهار مـا حدث بـالصـورة التي أُظهِـر بهـا جعل كثيـراً من أولئك الأتبـاع يخشـون أن تحدث لهم كوارث مماثلة لتلك التي صـوَّرها هؤلاء القادة. وكان من

---

(١) الريحـانـي، مصدر سبـق ذكـره، ص ٣٣٥. على أن بعض المصـادر تذكـر أن السبب أمـر الملك عبد العزيز لهم بالتـوقف. انظر - مثلا - السباعي، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٤٦.

نتائج ذلك أن فـرَّ كثير من أعيـان مكة، ومن قدم إليهم من الطائف، بأسرهـم إلى جدة [1]. وذهبت أدراج الـريــاح كل الصيحـات التي أطلقها الملك حسين لشحـذ عزائم أتباعه، أو الحصول علـى معونة مؤثِّرة.

وما إن وصل أعيان مكة إلى جدة حتى بدأوا سلسلة اجتماعات مع إخوانهـم في هـذه المدينة لدراسـة الوضع المتدهـور الذي أصبحت الحجاز فيـه. ونتج عن تلك الاجتمـاعات أن تكوَّن حـزب وطني من بين أولئك الأعيـان، وقـرَّروا وجـوب تخلِّي الملك حسين عن الحكم لابنه علي؛ أمـلاً منهم في أن يمهِّد ذلك الطـريق أمام حلٍّ سلمي مع الملك عبـد العـزيـز. فـاستـدعـوا الأميـر عليـاً من مكـة، وأبلغــوه بقرارهـم، فلم يقبل ذلـك القرار مراعـاة، فيمـا يبدو، لكرامــة أبيه. فأبـرقوا للحسين يخبرونــه بمـا توصلـوا إليـه. وأبدى لهم استعـداده للتنـازل عن الحكم، لكـن لغيـر ابنـه علي. فألحُّــوا عليـه بأن يقبل قرارهـم كامـلا. ولـم يجد بداً من النزول على رغبتهم، كمـا لـم يجد ابنه علي مناصـاً من قبول ما أرادوا؛ محاولـة منه أن يبقي حكم أسرتـه في البلاد. وبويع علي ملكاً على الحجاز مقيَّداً بالدستور. وذلك في الخـامس من ربيع الأول عــام ١٣٤٣هـــ. ثم عـاد إلى مكــة. وفي

---

(١) المصدر الأخير نفسه، ج ٢، ص ص ٢٤٥ - ٢٤٦.

العاشر من هذا الشهر غادر الحسين هذه البلدة المقدَّسة متجهاً إلى جدة حيث بقي فيها خمسة أيام، ثم غادرها بحراً إلى العقبة(1).

على أن الأحداث لم تجر وفق ما أمَّل قادة الحزب الوطني الحجازي والملك علي بن الحسين. ذلك أنه لم تمض ثلاثة أيام على مغادرة الحسين مكة حتى أدرك ابنه علي بأن الموقف فيها قد بات ميؤوساً منه. فلم يبق في هذه المدينة إلا عدد قليل من أفراد قواته الذين لم تكن معنوياتهم، أيضاً، ذات مستوى رفيع (2). بل إن صبري باشا، الذي كان يرأس تلك القوات، غادر إلى جدة (3).

وبالإضافة إلى ذلك فقد بلغ المسؤولين في الحجاز أن الإخوان قد وصلوا إلى قرية الزَّيمة مصمِّمين على حصار خصومهم في مكة(4).

---

(1) الريحاني، مصدر سبق ذكره، ص ص ٢٣٦ - ٢٤١؛ السباعي، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ص ٢٤٦ - ٢٥٣.

(2) ذكر السباعي (مصدر سبق ذكره، ج٢، ص ٢٥٤) أن القوات الباقية في مكة حينذاك كانت ٣٠٠ جندي، و٢٠٠ شرطي، وأعداداً قليلة من عُقَيْل وبيشة، ولديها ٤ مدافع جبلية، و٨ رشاشات.

(3) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٥٥.

(4) الريحاني، مصدر سبق ذكره، ص ٣٥٠؛ الذكير، نسخة خاصة، ص ١٥١. ويقول العبيِّد (مصدر سبق ذكره، ص ٢٣٥) نقلاً عن خالد بن لؤي نفسه: إن الملك عبد العزيز قد أمرهم بحصار مكة من جهات مختلفة؛ خاصة من جهة جدة، لئلا تأتيها إمدادات.

ولهذا كلـه رأى أولئك المسؤولـون أن ينسحب الملك علي بقواته إلى جدة [1]. وتمَّ ذلك الانسحاب في الخامس عشر من ربيع الأول [2].

وبانسحاب الملك علي بقواته أصبحت مكـة خالية من سلطة تحفظ أمنها وقـوة تدافع عنها. وبـدأ أفراد من الباديـة التي كانوا فيهـا ينهبون بعض بيـوتها؛ خاصـة تلك التي غـادرهـا أصحـابها [3]. فاتصل عـدد من أهلهـا بخـالـد بـن لـؤي، وأخبـروه بمـا آلت إليـه أوضاعها، وحثّـوه على دخولها لئلا تعمَّ الفـوضى فيها [4]. وما كان أحـرص خالـداً ومن معه من قـادة الإخـوان على ذلك الدخـول لتقـرَّ عيونهم برؤيتهـا تحت الرايـة السعوديـة بطريقـة سلمية، وليجنِّبـوها أيـة أخطـار أمنية. فتقـدَّم إليها خيَّـالتهم [5]، ثم اكتمل دخـولهم

(١) الـريحـاني، مصـدر سبق ذكره، ص ٣٥٠؛ السبـاعي، مصـدر سبق ذكـره ج ٢، ص ٢٥٥. ويذكـر هذا المؤلف أن لأعيان الحجاز المـوجودين في جـدة أثـراً كبيـراً في تقريـر الانسحاب من مكة. علي أن العبيِّد (مصـدر سبق ذكره، ص ص ٢٣٥ - ٢٣٧) نقلاً عن خـالد بن لـؤي يذكـر أن الملك علياً بعث أهل نجـائب برسـالة إلى الملك عبـد العزيـز. فلما وصلوا إلـى السيل وإذا بالإخـوان هناك فأوقفوهـم. وعاد أحدهـم - واسمه الرقيعي - إلـى مكة، فأخبـر علياً بما رأى، بل زاد، أيضـاً، على ذلك بأن قـال: إن الإخوان على أهبـة الاستعداد لإرسـال سرايا مـدعَّمة بأعـداد من الأشـراف الحُرَّث لقطع الطـريق بين مكة وجـدة. فسارع علي إلى مغـادرة مكة لئـلا يتعذَّر عليه الخروج منها مستقبلا.

(٢) الـريحاني، مصـدر سبق ذكره، ص ٣٥٠؛ السبـاعي، مصدر سبق ذكـره، ج ٢، ص ٢٥٥.

(٣) الزركلي، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ٣٣٣.

(٤) القاضي، مصدر سبق ذكره، ص ٧١؛ الذكير، نسخة خاصة، ص ١٥١.

(٥) العبيِّد، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣٧.

إيَّاهـا في السـابع عشـر من ربيـع الأول عـام ١٣٤٣هـ (١٥/ ١٠/ ١٩٢٤م) محـرمين مهلِّلين مكبِّـرين دون إراقـة دمـاء. ومنحـوا الأمان لسكانها جميعا. وتولَّى خالـد بن لؤي مقاليد الأمور فيها [١]، وإن كان لرأي سلطان بن بجاد قوة كبيرة جدًّا في اتخاذ أي قرار.

استكمـال توحيد الحجاز:

أ - بداية حصار جـدة:

أصبحت مكة، قاعدة الهاشميين، تحت حكم الملك عبد العزيز بدخـول أتباعه من الإخـوان لها وتـولِّيهم مقاليد الأمـور فيها. وأصبح المـوقف العسكري للملك علـي في جدة ضعيفـاً جـداً بعد الهـزائم المتلاحقة التي حلَّت بقوات أسرتـه، كما أصبحت معنويات من بقي من هـذه القوات والمدنيين في تلك المدينة في غاية التدهور والانهيار. وقد أشارت بعض المصادر إلى أنـه كان في إمكان الإخوان أن يتجهوا إلى جـدة ويضعوا نهايـة لحكم الملك علي هنـاك لو حاولـوا ذلك. لكنهم لـم يفعلوا؛ تمشيـاً مع أوامـر الملك عبـد العزيـز لهم بعـدم التوجه إلى تلك البلدة، أو انتظاراً لأوامره بالتوجه إليها [٢]. وكان من نتـائج ذلك أن أتيحت للملك علي فـرصـة ليـرتِّب أمـوره، ويحصِّن

---

(١) الـريحاني، مصـدر سبق ذكـره، ص ٣٥١؛ السبـاعي، مصدر سبق ذكـره، ج ٢، ص ٢٥٥.

(٢) الريحاني، مصدر سبق ذكره، ص ٣٥١؛ الذكير، نسخة خاصة، ص ١٥١.

المدينة المذكورة، مما تطلَّب حصاراً سعودياً طويلاً لها [1]. وما ذكرته تلك المصادر سبباً لعدم إقدام الإخوان على مواصلة الزحف إلى جدة فور دخولهم مكة أمر محتمل. لكن من المحتمل، أيضاً، أن قادتهم رأوا في مواصلة الزحف مخاطرة قد لا تكون محمودة العواقب. فغياب كثير منهم عن مكة والطائف قد يغري أنصار الهاشميين في هاتين المدينتين، أو الباحثين عن الغنائم، بالتمرُّد على من بقي منهم فيهما. وجدة ميناء بحري يمكن أن تتلقَّى إمدادات من الخارج. وهي مقر لممثِّلي حكومات أجنبية قوية لم يكونوا يعلمون مواقفها من الزحف عليها.

وكان الملك عبد العزيز حينذاك لا يزال في الرياض. لكنه كان قد أعدَّ خطاباً موجهاً إلى أهالي مكة وجدة وتوابعهما يوضِّح فيه مآخذه على حكامهم من الأشراف، ويبيِّن الأسباب التي دفعته إلى اتخاذ ما اتَّخذ من إجراءات تجاه هؤلاء الحكام، ويؤكد لأولئك الأهالي أنه سيعاملهم بالحسنى ويحكمهم وفق شرع الله المطهَّر [2]. وقد تُلِي ذلك الخطاب في مكة فور دخول الإخوان إيَّاها، ووصلت نسخ منه إلى أعيان الحجاز الموجودين في جدة. فكتب هؤلاء الأعيان إلى

---

(١) المصدر الأخير نفسه، الصفحة ذاتها. ولم ينته ذلك الحصار إلا بقبول الملك علي بتسليمها للملك عبد العزيز في بداية جمادى الآخرة عام ١٣٤٤هـ.

(٢) يوجد نصه لدى كلٍّ من ابن هذلول، مصدر سبق ذكره، ص ص ١٥٧ - ١٦٠؛ السباعي، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ص ٢٥٦ - ٢٥٧.

خالد بن لؤي يخبرونه باطلاعهم على خطاب الملك عبد العزيز، ويطلبون منه الموافقة على إرسال مندوبين من قِبَلهم إليه لعقد هدنة بين الطرفين حتى تأتي وفود من العالم الإسلامي للنظر في قضية الحجاز عامة (١). فأجابهم خالد بأنه ينبغي لعلي بن الحسين نفسه أن يقدم إليه للتفاهم، وأن أمر السلم والحرب من شأن الملك عبد العزيز وحده (٢). لكنهم مع ذلك أرسلوا إليه وفداً مخوّلاً للمفاوضة على كل ما يحقن الدماء. ولما اجتمع أعضاء الوفد بخالد خيَّرهم بين القبض على الملك علي، أو إجباره على الخروج من الحجاز. فإن كانوا لا يقدرون على هذا أو ذاك فإنه مستعد لمساعدتهم لتحقيق أي منهما. وعاد الوفد إلى جدة يحمل عرض ابن لؤي، فاختلف الأعيان تجاهه، وأُرجيء البتُّ فيه (٣).

أما الملك علي فقد أصرَّ على الدفاع عن جدة رغم محاولة أكثرية أعيان الحجاز بعدم اللجوء إلى الحلِّ الحربي خوفاً من العواقب الوخيمة. ولعلَّ مما شجعه على موقفه وصول نجدة إليه من أخيه عبد الله، حاكم شرق الأردن، قوامها ثلاث مئة جندي ومئة رجل من أبناء البادية (٤)، ثم تواصل الإمدادات العسكرية والمالية إليه من

---

(١) يوجد نصه في المصدر الأخير نفسه، ج ٢، ص ٢٥٨.
(٢) نصه في المصدر نفسه، ج ٢، ص ص ٢٥٨ - ٢٥٩.
(٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ص ٢٥٩ - ٢٦٠.
(٤) الريحاني، مصدر سبق ذكره، ص ٣٥١.

أبيه الحسين وغيره [١]. على أنه في الوقت نفسه حاول كسب الوقت ليكمل استعداداته الدفاعية. فكتب إلى خالد بن لؤي يطلب منه ـ إن كان مفوَّضاً من الملك عبد العزيز ـ أن يرسل وفداً ليتفاوض مع وفد من قِبَله، أو ينتظر تفويضاً من ذلك الملك، وأن يتوقف كلٌّ من الطرفين عن أي نشاط حربي خلال ذلك. وكتب، أيضاً، إلى الملك عبد العزيز رسالة يبدي فيها رغبته في الصلح. لكن الملك عبد العزيز لم يرض بديلاً عن تخلِّيه عن الحكم ومغادرة البلاد [٢].

وفي أثناء ذلك تلقَّى خالد بن لؤي وسلطان بن بجاد رسالة من معتمدي بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وهولندا وإيران في جدة تدعوهما إلى المحافظة على دماء رعايا هذه الدول وأموالهم في البلاد المقدَّسة. فردَّا عليهم بأن الإخوان لا يريدون إلا محاربة علي بن الحسين الذي يسعى ضدهم. ثم كتب إليهما أولئك المعتمدون بأنهم يلتزمون الحياد ما دام رعايا دولهم في أمان [٣].

ولقد سبقت الإشارة إلى أن الملك عبد العزيز كان في الرياض حين دخل أتباعه من الإخوان مكة. وكان مما قام به أن أمر على رؤساء بعض الهجر وأمراء القصيم أن يجهِّزوا غزاتهم ليوافوه في

---

(١) الذكير، نسخة خاصة، ص ١٥٣.

(٢) الريحاني، مصدر سبق ذكره، ص ص ٣٥٢ و٣٥٤؛ السباعي، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٦١ - ٢٦٢.

(٣) ابن هذلول، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٤.

الشَّعْراء منتصف ربيع الآخر. فاستجابوا لأمره [1]. وفي الثالث عشر من ذلك الشهر خرج من هذه المدينة متجهاً إلى ذلك المكان لينطلق بالجميع إلى مكة. وممن كان معه أخواه محمد وعبد الله، وابناه محمد وخالد، وعدد من كبار أهل نجد وعلمائها، إضافة إلى أفراد ممن التحقوا بخدمته من أقطار عربية مختلفة [2]. وفي الثامن من جمادى الأولى دخل هو ومن معه مكة محرمين بالعمرة. وبعد أن استقر فيها أقبل عليه السكان يرحِّبون به ويبايعونه، ووعدهم بإزالة المظالم، وتطبيق الشريعة، وتحقيق الأمن [3]. واستقام في المدينة المقدَّسة شهراً حاولت خلاله جهات خارجية متعددة؛ حكومية وفردية، أن تصلح بينه وبين الملك علي، لكنها لم تنجح [4]؛ خاصة بعد أن حلَّقت طائرة شريفية فوق مكة وألقت منشورات تحرِّض

---

(١) الذكير، نسخة خاصة، ص ١٥٣. وقد أشار الريحاني، (مصدر سبق ذكره، ص ٣٦٠) إلى أنه كان مع الملك خمسة عشر لواء: خمسة من أهل القصيم، وعشرة من أهل الهجر.

(٢) كان أغلبهم من بلاد الشام، مثل الدكتور محمود حمودة، ومحمد النحاس، ويوسف ياسين، وجمال الغزي. المصدر الأخير نفسه، الصفحة ذاتها. الزركلي، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ٣٣٧.

(٣) السباعي، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ص ٢٦٥ - ٢٦٦؛ الذكير، نسخة بغداد، ص ص ٩٧ - ١٠٤. وهو من أوفى من فصل ما حدث إثر دخول الملك مكة.

(٤) المصدر الأخير نفسه، ص ص ١٠٢ - ١٠٣؛ ابن هذلول، مصدر سبق ذكره، ص ص ١٦٨ - ١٦٩.

سكانها على الثورة على الملك عبد العزيز [1]. وكان ذلك العمل مما أغضب هذا الملك وأتباعه، وعجَّل بالتحرك لحصار جدة. فقد ترأس اجتماعاً لقادة جيشه لمناقشة ما أصبحت عليه الأوضاع وما ينبغي اتخاذه حيالها من خطوات. وأجمعت الآراء على وجوب الزحف إلى جدة لمحاصرتها تمهيداً لانتزاعها من الملك علي [2]. فأصدر أوامره لقواته أن تبدأ زحفها صوب تلك المدينة في السابع من جمادى الآخرة [3]. (انظر الخريطة رقم ٢١). وكانت تلك القوات تزيد على ستة آلاف مقاتل [4]. ثم ازداد عددها مع مرور الأيام حتى تجاوز عشرة آلاف [5]. وكان معها ما لا يقلُّ عن عشرين مدفعاً، ومجموعة من الرشاشات، وكميَّات من الذخائر، وكلها مما غنمته في معركتي الطائف والهدا وما وجدته في مكة [6].

---

(١) الذكير، نسخة بغداد، ص ص ١٠٣؛ ابن هذلول، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٩. ويقال: إن بعض قادة جيش الملك علي هم الذين أرسلوا تلك الطائرة بدون أمره.

(٢) الريحاني، مصدر سبق ذكره، ص ٣٩١.

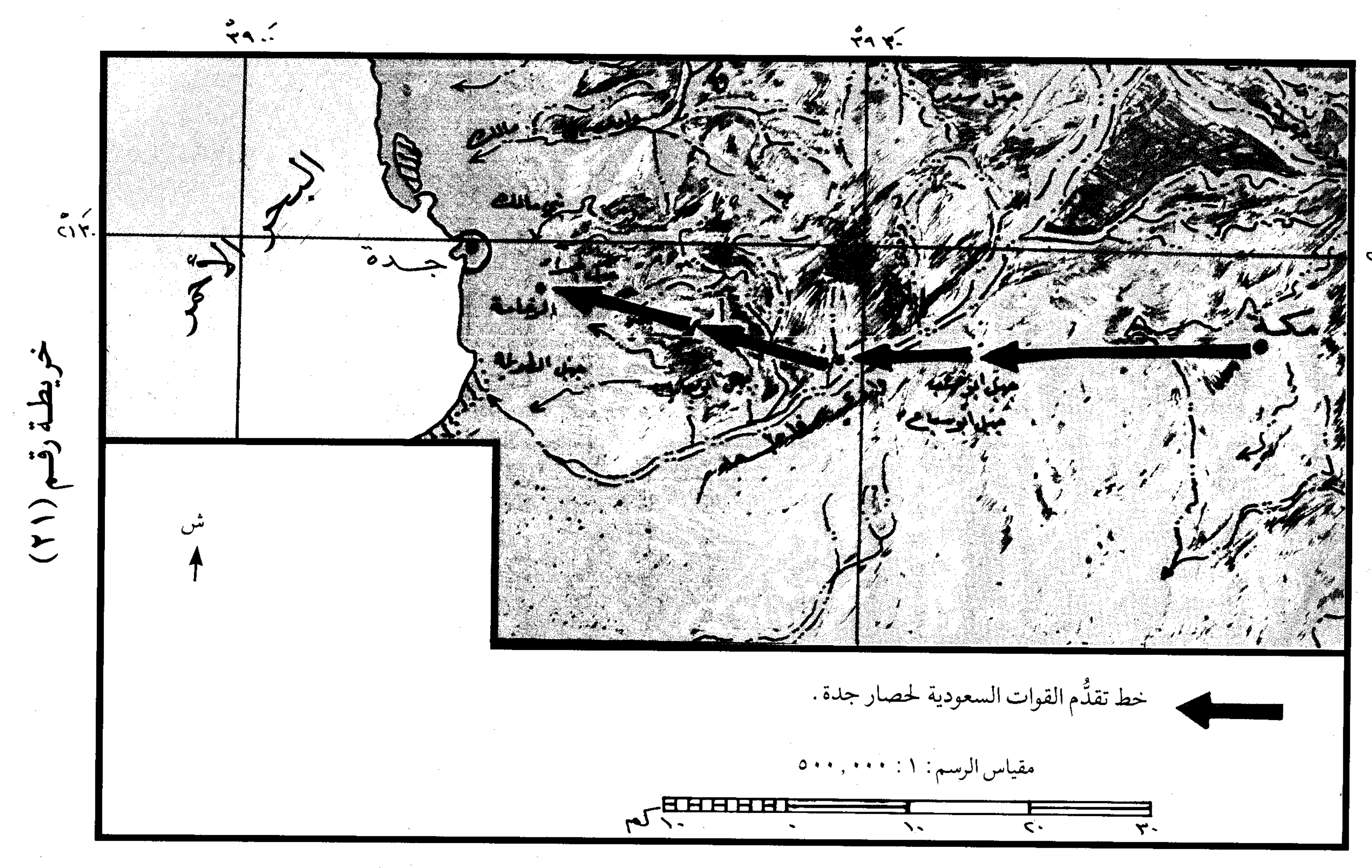
(٣) الزركلي، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ٣٤٤. على أن ابن هذلول (مصدر سبق ذكره، ص ١٧٠) يجعله في السادس من ذلك الشهر، أما السباعي (مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٦٨) فيجعله في الخامس منه.

(٤) قدَّرها الريحاني (مصدر سبق ذكره، ص ٤٠٣) بثمانية آلاف. لكن الزركلي (مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ٣٤٤) قدَّرها بين خمسة آلاف وستة آلاف.

(٥) كان آخر الإمدادات من نجد بقيادة الأمير فيصل بن عبد العزيز.

(٦) الريحاني، مصدر سبق ذكره، ص ٤٠٣؛ الذكير، نسخة خاصة، ص ١٥٩.

خريطة رقم (٢١)



البحر الأحمر
جدة
مكة
ش
خط تقدُّم القوات السعودية لحصار جدة.
مقياس الرسم: ١ : ٥٠٠,٠٠٠
١٠ كم
٠
١٠
٢٠
٣٠

وكان الملك علي قد استغلَّ الوقت الممتد من وصوله إلى جدة في منتصف ربيع الأول إلى بدء زحف قوات الملك عبد العـزيز صوبها، فعمل مـا أمكنه من وسـائل دفاعيـة، وتسليح، وحشد للقـوات. أما الوسائل الـدفاعية فأهمُّها إنشاء خط دفـاع هلالي الشكل من أسلاك شائكة، خارج أسوار تلك المدينة، يمتد من الساحل الواقع شمالها إلى الساحل الواقع جنوبها، ويبلغ طـوله ستة أميال. وقد قسم ذلك الخط إلى ستة مـراكز يرتبط كلٌّ منها بـالقيادة العامة داخل المـدينة. وحُفِرت وراء الأسلاك الشـائكة خنادق، كما أقيمـت استحكامات، وزرعت ألغام. وأما التسليح فتمثَّل في الحصـول على ثلاث طائرات بريطانية وست ألمانية؛ إضافـة إلى خمس إيطالية قديمة كانت لدى حكومتـه (١)، وسبع مصفَّحـات اثنتـان منهـا جـديدتـان مجهَّـزتـان بالرشاشات، وعشرين مدفعاً، وثلاثين رشاشا (٢). وأما حشد القوات فتمَّ من أناس داخل البلاد وآخرين قدمـوا من خارجها؛ خصوصاً من شرق الأردن وفلسطين، حتى بلغ أفراد الجيش النظامي قرابة الألفيـن وبلغ عدد أفـراد الباديـة حوالى ألف وخمس مئـة (٣).

---

(١) لم يكن صالحـاً للاستعمال من تلك الطـائرات الإيطالية الخمس إلا واحـدة، وكان هناك شح في وقود الطائرات الباقية مما جعل فعـاليتها محدودة. أما الطيَّارون فكانوا في بداية الأمـر من الروس، ثم أصبحوا من الألمان، الريحـاني، مصدر سبق ذكره، ص ص ٤٠١ - ٤٠٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٠٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٠٠.

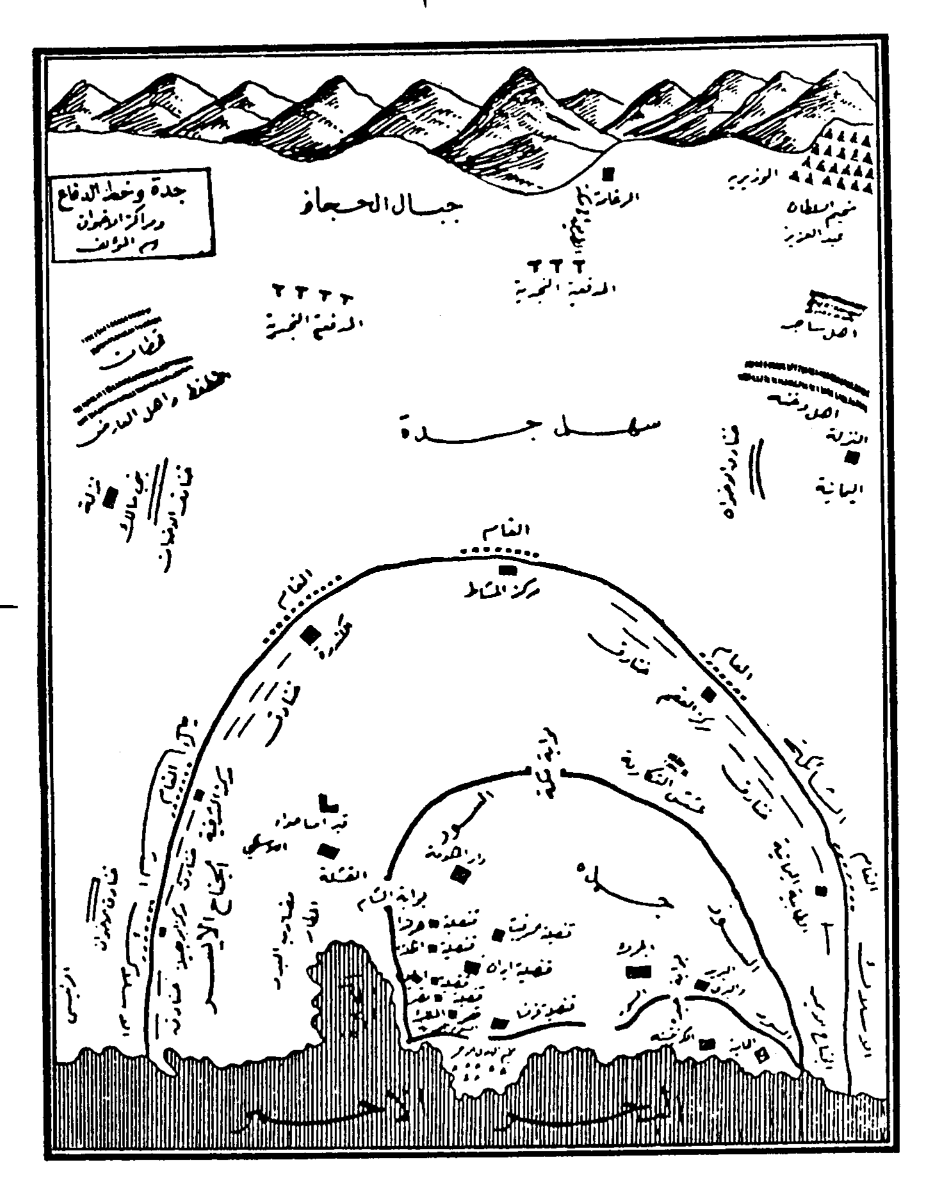
انطلقت قـوات الملك عبد العـزيز في اليـوم المحدَّد لزحفهـا إلى جـدة، ووصلت طلائعهـا إلى ضواحيهـا في حين سار الملك نفسـه حتى وصل إلى الـوزيريـة، المجاورة للـرَّغامـة [1]. وتمكَّنت تلـك القوات من الاستيلاء على النزلة اليمانيـة الواقعة شرق جدة بمَيْلٍ قليل إلى الجنوب، ونـزلة بني مالـك الواقعة شمـال شرقها، كمـا استولت على الرُّوَيس. وهذه الأمكنـة الثلاثة قريبة من الخط الـدفاعي المقام حـول تلك المـدينة. ومـع أن قوات الملك علـي قد استعـادتهـا فإن القوات السعودية استولت عليها مـرَّة أخرى، وباشرت بحفر الخنادق وإقـامة الاستحكـامـات المحصَّنة بأكيـاس من الـرمل. وهكذا بـدأ حصار جدة الـذي استمر قرابة عـام حدثت خلاله اشتبـاكات كثيرة؛ أهمُّها معـركة المصفَّحات (انظـر الخريطـة الموضحة لمـواقع قوات الطرفين)، وانتهى الحصـــار بخـروج الملك علي منهـا، ودخـــولهـا تحت حكـم الملك عبد العزيز، كما سيأتي تفصيلـه.

ب - توحيد شمال الحجاز والمدينة المنورة:

لـم يقتصر نشاط الملـك عبد العزيز في منطقة الحجـاز على جبهة واحدة خلال محاصرته بقواته لجدة، بل شمل جبهات أخرى. ذلك أنه بعث سرايا من جيشه إلى أماكن متعددة. كان أمير القُنْفذة واللِّيث تابعاً لحكومة الملك حسين. ولما دخل أتباع الملك عبد العزيز مكة

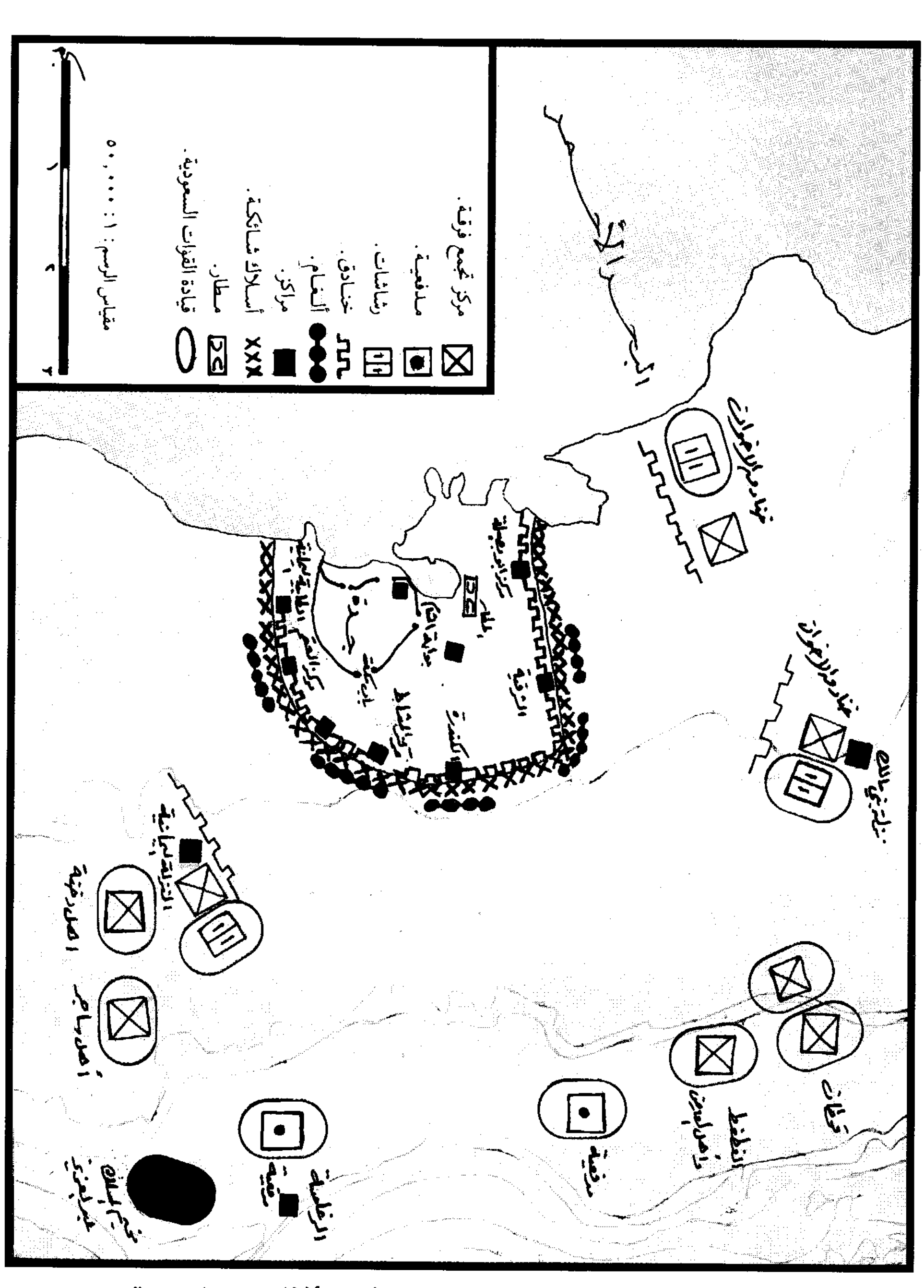
(١) الزركلي، مصدر سبق ذكره ج ١، ص ٣٤٤.

خريطة رقم (٢٢)



توزيع القوات السعودية والهاشمية أثناء حصار
جدة كما رسمها الريحاني في كتابه : نجد وملحقاته

خريطـة رقـم (٢٣)



توزيع قوات الطرفين السعودي والهاشمي أثناء حصار جدة.

المكرمة أدرك قوة هذا الملك، ورأى من المصلحة الدخول في طاعته، ففعل ذلك بطريقة سلمية [1]. ثم دخل تحت حكمه أمير رابغ [2]. وكان لدخول تلك الموانيء الثلاثة تحت رايته مكاسب عظيمة له في تلك الفترة المهمَّة من مسيرة جهوده لتوحيد الحجاز. ذلك أنه سهَّل وصول بعض المؤن والبضائع من الهند ومصر وغيرهما إلى مكة، التي كان ميناؤها الأساسي - جدة - لا يزال في يد خصمه الملك علي، ومكَّنه من أن يعلن للمسلمين كافة بأن الطرق إلى بيت الله الحرام ميسَّرة آمنة عن طريق الموانيء المذكورة [3]. واطمأن إلى إعلانه من اطمأن من المسلمين في خارج البلاد؛ خاصة الهند، فقدموا لأداء فريضة الحج. وفي آخر ذي القعدة توجَّه هو ومن لم يسبق أن أدَّى الحج من أتباعه لتأدية تلك الفريضة. فقاد آلافا من داخل البلاد وخارجها في تأدية الركن الخامس من أركان الإسلام بأمن واطمئنان [4]. وكان لهذا أثره الطيب معنوياً واقتصادياً.

وكان في طليعة السرايا التي بعثها الملك عبد العزيز إلى الجهات الشمالية الغربية من الحجاز تلك التي أرسلها في رجب بقيادة عمر

---

(١) الذكير، نسخة بغداد، ص ١٠٨. ويذكر هذا المؤلف أن ذلك الأمير قدَّم طاعته لأمير الملك عبدالعزيز في عسير، ثم استدعاه الملك إلى مكة، وعيَّن، في شهر شوال، مساعد بن سويلم أميراً للقُنْفُذة.

(٢) الريحاني، مصدر سبق ذكره، ص ٣٧١.

(٣) الذكير، نسخة بغداد، ص ١٠٩.

(٤) القاضي، مصدر سبق ذكره، ص ٦٣: الذكير، نسخة بغداد، ص ١٠٩.

ابن رُبَيعان زعيم الرُّوَقة من عتيبة. وقد مضت إلى جهة ينبع لتأديب بعض الفئات البدوية التي اعتدت على قوافل قادمة من هناك. فنجحت في مهمَّتها، وأدخلت عدة أماكن وعشائر تحت الحكم السعودي [1]. ومن أهم السرايا سريَّة بعثها الملك عبد العزيز إلى الجهات المذكورة بقيادة الأمير سعود بن عبد العزيز (سعود الكبير)، وإلى جانبه خالد بن لؤي، ومعظم أفرادها من أهل القصيم. وكان من أول أعمالها الناجحة استعادة بدر التي ثار أهلها ـ بدعم من الشريف شاكر بن زيد الموجود حينذاك في ينبع ـ على أميرها. ونتج عن هذا النجاح طلب القبائل والقرى في تلك الجهة الأمان والدخول في الطاعة [2].

وكان الحسين بن علي، بعد جلائه عن الحجاز قد اتَّخذ من العقبة، التي كانت تابعة لهذه المنطقة [3] مقراً له. وراح يوالي نشاطه العدائي ضد الملك عبدالعزيز بإرسال الأموال والمؤن إلى ابنه علي في جدة. فأمر الملك عبد العزيز الأمير عبد العزيز بن مساعد، حاكم جبل شمَّر وما يتبعه من أمكنة، أن يبعث قوات لمهاجمة العقبة. ولما رأى البريطانيون اقتراب تلك القوات من هذه البلدة

---

(١) المصدر الأخير، ص ١٠٧ .

(٢) القاضي، مصدر سبق ذكره، ص ٦٣ ؛ الذكير، نسخة بغداد، ص ١١٠ .

(٣) إدراكاً من الملك علي أن قوات الملك عبد العزيز ستكون قادرة على انتزاع العقبة اتفق مع أخيه عبد الله لضمها إلى الأردن. الذكير، نسخة بغداد، ص ١١٣ . ولا شك أن لبريطانيا يداً في ذلك .

طلبوا من الملك عبد العزيز أن يمنعها من مهاجمتها على أن يبعدوا الحسين عنها. فقبل ذلك، وغادرها الحسين [١].

وقد بدأ الملك عبد العزيز جهوده الموجهة إلى المدينة المنورة ببعث سريَّة إليها بقيادة صالح بن عَذْل. لكنه أمره بمحاصرتها فقط. وفعل ذلك القائد ما أُمِر به. وكان مما قام به السيطرة على قسم من سكة الحديد القادمة إليها من معان للحيلولة دون وصول إمدادات إليها من شرق الأردن [٢]. ثم وجَّه الملك عبدالعزيز إليها سريَّة أخرى بقيادة إبراهيم النَّشْمي [٣]. وبعد انقضاء حج عام ١٣٤٣هـ وصل إلى جهاتها كلٌّ من فيصل الدويش وعبد المحسن الفِرْم بأتباعهما. واتخذ الأول منهما العوالي مركزاً له [٤]. ومع أن المدينة ظلَّت

---

(١) المصدر الأخير، ص ١١٣. وقد أُبعِد الحسين إلى قبرص حيث أقام حوالى ست سنوات. ثم اشتد عليه المرض، فنُقِل إلى عمان. وتوفي هناك عام ١٣٥٠هـ، فدفن في القدس، السباعي، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٥٤.

(٢) الذكير، نسخة بغداد، ص ١٠٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ١١٠. ابن ناصر، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ص ١٤٢ - ١٤٣.

(٤) القاضي، مصدر سبق ذكره، ص ٦٤. ويفهم من كلام الذكير (نسخة بغداد، ص ١١٣) أن الدويش كان موجَّهاً للالتحاق بسعود الكبير في جهات ينبع وما يليها شمالا، لكنه ذهب إلى العوالي باتفاق مع أهلها. على أن العبيِّد (مصدر سبق ذكره، ص ٢٤١) ينقل عن إمام الدويش حينذاك، محمد العجاجي، أن هذا الزعيم قد أُرسِل مدداً لسعود المحاصر لينبع، لكنه توجَّه إلى جهة المدينة بدلاً من ذلك؛ قائلاً للعجاجي: إنه كثيراً ما خالف الملك في أمور، ثم وافقه الملك على ما اختاره.

محاصرة إلا أن تلك المحاصرة لم تكن دقيقة؛ إذ وصلت إليها أسلحة وأطعمة من شرق الأردن. وكان لهذا أثره في تشجيع أفراد حاميتها على الخروج منها ومهاجمة المحاصرين لها، لكنهم تكبَّدوا خسائر فادحة، فعاد بقيتهم إليها [1]. وبعد أن أقام الدويش ومن معه فترة في العوالي ارتحل إلى نجد في ربيع الآخر من عام ١٣٤٤هـ [2]. وبقي أتباع الملك عبد العزيز الآخرون محاصرين للمدينة المنورة، فشحَّت فيها الأطعمة شحاً كبيراً، وغادرها عدد كبير من أهلها.

وكانت قوات الملك عبد العزيز الأخرى قد تمكَّنت من السيطرة على جميع البلدان الواقعة شمال المدينة وغربها، مثل أم لج، وضبا، وينبع، وغيرها. فأدرك بعض كبار المدينة أن من الأفضل لهم الدخول في طاعته، وأرسلوا إليه وفداً يطلبون إرسال أحد أبنائه ليسلِّموا له. فبعث إليهم ابنه محمدا. لكن محمداً لما وصل إلى مشارفها وجد أن من في أيديهم الأمر يأبون التسليم. فأقام محاصراً

---

(١) القاضي، مصدر سبق ذكره، ص ٦٥. الذكير، نسخة بغداد، ص ١١٨.

(٢) القاضي، مصدر سبق ذكره، ص ٦٦. ويعلِّل هذا المؤلف ارتحاله بأنه قد حلَّ في أتباعه وباء، فاستأذن الملك عبد العزيز في الرحيل، فأذن له. أما الذكير (نسخة بغداد، ص ١٢٥) فإنه مع ذكره لإصابة أتباع الدويش بالحُمَّى واستئذانه الملك عبد العزيز بالرحيل إلى نجد يضيف إلى ذلك أن ارتحاله كان بأمر من الملك طمأنة لأهل المدينة الذين أبدوا الرغبة في إنهاء الحرب، لكنهم كانوا خائفين من بطش الدويش.

لها . ولما اشتد الحصار على من فيهـا خرج وفد منهم لمفاوضة ذلك الأميـر على التسليم . واتفـق الطـرفـان على أن يـؤمِّنهـم الأميـر على دمائهـم وأموالهم ، ويسلِّمـوه جميع ما للحكـومة من أمـوال وأسلحة وغيـرهمـا . وكـان ذلك في الثـامن عشـر من جمـادى الأولى عـام ١٣٤٤هـ (٣/ ١٢/ ١٩٢٥م) [1]. ودخلها الأميـر ناصر بـن سعود وعبد الله الفضل فاستلما ما اتُّفِق على تسليمه . ودخلها الأمير محمد بن عبد العزيز في اليـوم التالي ، وحلَّ الأمن ربوعها . ووزَّع على المستحقين من أهلها ما أحضره من رابغ من أطعمة [2].

ج - نهاية حصار جـدة :

سبقت الإشارة إلى بداية حصار جدة ، وقوات الطرفين : السعودي والهاشمي ، عند تلك البدايـة ، كما سبقت الإشارة إلى تمكُّن القوات السعوديـة من تثبيت مواقعهـا في النزلـة اليمانيـة ، ونزلة بنـي مالك ، والـرُّوَيس ، وحفرهـا للخنادق و إقـامتهـا للاستحكـامات المحصَّنـة بأكياس الرمل هناك .

وبعد أن ثبَّتت القوات السعودية مواقعها في الأمكنة المذكورة بدأت تناوش الجنود النظاميين التابعين للملك علي بـالرشاشات والبنادق ، ونصبت مـدافع في مـوضع شـرق الكنـدرة ، وراحت تطلق نيـرانهـا . وكانت قـذائفها في بدايـة الأمر تقع خـارج خط الدفاع المقـام حول

---

(١) القاضي ، مصدر سبق ذكره ، ص ٦٦ .

(٢) الذكير ، نسخة بغداد ، ص ص ١٢٦ - ١٢٧ .

جدة، ثم تقدَّمت بعد تثبيتها مواقعها شيئاً فشيئاً حتى صارت قذائفها تصل إلى داخل الخط، ثم إلى داخل المدينة ذاتها [١]. وكان الإخوان يحرصون على القيام بهجماتهم ليلاً لعدة أغراض:

الأول: أن الهجوم ليلاً يترك أثراً بليغاً في نفوس الخصوم، إذ يحرمهم من لذَّة النوم ويزرع الخوف في قلوبهم.

الثاني: أنه يجعل أولئك الخصوم يسرفون في استعمال ذخيرتهم وإنفادها دون تحقيق أهداف [٢].

الثالث: أن الليل ستر طبيعي يخفي تحرُّكهم عن عيون خصومهم؛ خصوصاً أن هجماتهم غير مصحوبة بآليات تثير من الصوت ما يلفت الانتباه.

وكان لتلك الهجمات أثرها في نفوس أهل جدة. فغادرها كثير ممن كانوا يستطيعون المغادرة؛ لا سيما أن القيادة السعودية وعدت كل من يخرج منها بالعفو والأمان [٣].

استمرت الاشتباكات بالمدفعية والرشاشات والبنادق بين الطرفين قرابة شهرين، كما استمرت هجمات الإخوان الليلية المفاجئة تؤدي أغراضها بشكل فعَّال. وتبرَّم قادة الجيش الهاشمي من الخسائر التي

---

(١) الريحاني، مصدر سبق ذكره، ص ص ٤٠٥ - و٤٠٨ - ٤٠٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٠٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٠٧. الذكير، نسخة بغداد، ص ١٠٦.

تـزداد في صفوف قـواتهم يـوماً بعـد الآخر، كمـا انـزعجوا من ازديـاد مخاوف المـدنيين ومغادرتهـم جدة. ولـذلك خطَّطوا لمعركـة كبيرة تشترك فيهـا المصفَّحـات بكل ما لهـا من قوة؛ أملاً في أن يكـون لها من النتائج ما يرفع معنويات أفرادهم ويطمئن المدنيين من السكان.

وفي الثامن عشر من شعبـان، سنة ١٣٤٣هـ (١٣/ ٣/ ١٩٢٥م)، بـدأت مدافع الجيش الهاشمي المختلفة تطلق نيرانها بكثافة على القوات السعوديـة القريبة من خط الدفـاع الأساسي لذلك الجيش؛ خصـوصاً تلك التي في الـرُّوَيس. وبعـد نصف سـاعـة من ذلك خـرجت خمس مصفَّحات من بوَّابة الكندرة، فاتجهت اثنتان منها إلى الرُّوَيْس، وثلاث إلى نزلة بني مالك. ثم سار من مركزي الكندرة وأبي بصيلة ألف مقاتل من النظاميين والبدو مقسومين إلى ثـلاث مجموعات، تتبعهم سريَّة من الخيَّالـة[1]. وكـانت مهمَّـة المجمـوعــة الأولى مهـاجمـة المفـرزة السعودية في الـرُّوَيس، والثانية مهاجمة المفرزة في نـزلة بني مالك، والثـالثة تسيـر بين المجمـوعتين وتكون بمثـابة قـوة احتيـاطية. وأمـا الخيَّالة فمهمَّتهم الاستفادة من نجاح المشاة لمهاجمة مواقع القوات السعودية الأبعد نسبيا[2]. وكانـت تلك المجموعات مـن المشاة - وهي متجهـة نحـو أهـدافهـا - تطلق نيـرانها مـع نيـــران المـدفعيـة الكثيفة.

---

(١) الريحاني، مصدر سبق ذكره، ص ٤١٠. الذكير، نسخة بغداد، ص ١٠٦.

(٢) رحمو، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٠.

على أن القوات السعوديـة الأمامية صمدت للهجـوم بشجاعة. ثم هبَّت لنجـدتها القـوات الموجـودة في الخط الثـاني؛ خصوصـاً أهل الغُطْغط والعارض. لكنها لم تطلق النار على المهاجمين من الجيش الهاشمي. بل انتظرت حتى تقدَّمـوا أكثر فأكثر، وكادت المصفَّحات الثـلاث تصل إلى نـزلـة بني مـالك. وعنـدئذ شنَّت عليهم هجـومـاً مضادا. وبلغ من استبسال بعض أفرادها أن هجموا على المصفَّحات ذاتها حتى أصـابوا رشاشـاتها بالشلل، وعـادت من حيث أتت. وقد دامت المعركة بيـن الطرفين حوالى أربع ساعات، ثـم انتهت بهزيمة الجيش الهاشمي، وعـودة من سلم من أفراده إلى داخل خط الـدفاع عن جدة. (انظر الخريطة رقـم ٢٤).

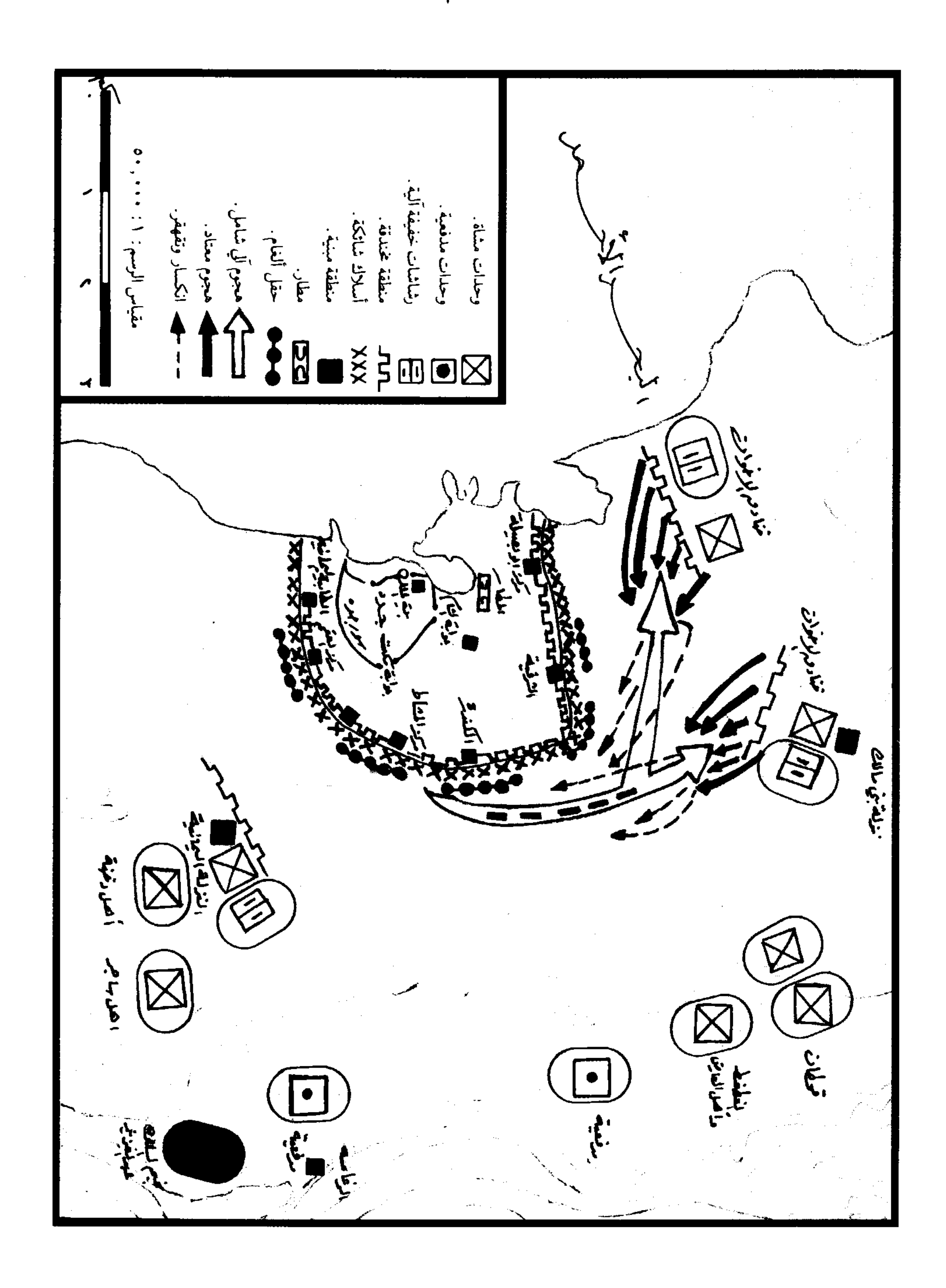
وتختلف روايتا الطرفين في عدد القتلى. فقـد قال الهاشميون: إن قتـلاهم خمسة عشـر وجـرحـاهـم خمسون ومئـة، وقتلى السعـوديين وجـرحاهم أكثـر من مئتين. وقـال السعـوديون: إن قتـلاهم خمسـة وجرحاهم خمسة، وإن قتلى خصومهم لا يقلُّون عن ثلاث مئة بدليل ما خلَّفوه من بنادق [1]. على أن المهم هو أن العملية التي خطَّط لها قادة الجيش الهاشمي بدقة، وأمَّلـوا أن تأتي بنتائج مثمرة، قد فشلت

---

(١) الـريحـاني، مصـدر سبق ذكره، ص ص ٤١٠ - ٤١١. ومن الـواضح أن الـروايـة الهاشميـة لـم تحـدِّد عـدد القتلـى من السعوديـين، بـل أعطت عـدداً للقتلـى والجرحى معا. وبذلـك يبقى عدد القتلى مجهولا. وأما الرواية السعـودية فاستدلَّت على عدد القتلى من الجيش الهاشمي بعـدد البنادق التي غنمت. وهـذا غير مسلَّم =

معركة المصفحات

خريطة رقم (٢٤)



فشلاً ذريعاً. وهكذا انتهت تلك المعركة التي عُرِفت بمعركة المصفَّحات.

بعد معركة المصفَّحات خفَّت حدة الاشتباكات بين الطرفين بدرجة كبيرة على جبهة جدة بينما كانت نشطة في الجبهات الشمالية والشمالية الغربية من الحجاز. وكان ذهاب الملك عبد العزيز، ومعه كثير من أفراد قواته من معسكره قرب جدة لتأدية فريضة الحج من الأمور التي شجعت قادة جيش الملك علي على الحركة. لكن تخطيطهم فشل. ذلك أنه وصل إلى مكة الزعيم القحطاني، فيصل ابن حشر، ومعه أكثر من ألف رجل من أتباعه، فأمرهم الملك عبد العزيز أن يتوجهوا ـ فور قضائهم عمرتهم ـ إلى معسكره قرب جدة لمساعدة من فيه من قواته. ووصل هذا الزعيم بأتباعه إلى المعسكر المذكور دون علم قادة جيش الملك علي. فاقترح خطة جيدة بأن يكمن كل خمس مئة مقاتل في جهة، ووافق قادة المعسكر على اقتراحه. فلما خرج أفراد الجيش الهاشمي لمهاجمة من كان في معسكر الملك عبد العزيز تصدَّى لهم من كانوا هناك، فولَّوا الأدبار.

= بصحته؛ إذ من الممكن أن يفقد الجندي سلاحه دون أن يُقتَل. ومن المستبعد، أيضاً، ألاَّ يقتل ويجرح من القوات السعودية في معركة دامت أربع ساعات إلا عشرة، وأن يتساوى عدد القتلى مع عدد الجرحى. على أن الذكير (نسخة بغداد، ص ١٠٦) قال: إن القتلى من الطرفين نحو أربع مئة. وذكر هذا العدد، أيضاً، ابن ناصر، مصدر سبق ذكره ص ١٤٦. وقال: إن ثمانين من القوات السعودية، والباقي من الجيش الهاشمي. وقولا هذين المؤلفين أقرب إلى الصواب.

لكن الكمينين خرجا عليهم، وحالا دون رجوعهم إلى جدة، وأبادوا أكثرهم. وكان ذلك في الرابع من ذي الحجة [١].

وظلَّت النكسات تتوالى على الملك علي في جدة؛ مالياً وسياسياً، وعسكرياً. وأخذ جنوده يتركون صفوف جيشه. فحاول أن يظهر بمظهر القوي، وأرسل طائرة حلَّقت في سماء مكة وألقت منشورات تحريضية. فثارت ثائرة الأهالي والأجانب ضده، وأرسلوا البرقيات مستنكرين [٢]. وبينما كان موقفه يزداد سوءاً يوماً بعد آخر كان موقف الملك عبد العزيز يزداد تحسُّناً وقوة. وكانت الإمدادات تصل إليه تباعاً من المناطق التابعة له. ومن تلك الإمدادات قوة كبيرة قدمت من نجد بقيادة ابنه فيصل [٣]. وازداد موقف المحاصرين في جدة حرجاً لقلَّة الأطعمة ومياه الشرب والذخيرة والأموال، فدبَّ اليأس في نفوسهم.

وكان الملك عبد العزيز على علم بذلك كله، فبعث إلى المحاصرين في جدة منشوراً وُزِّع بطريقة سرِّية يتضمَّن إبداء أسفه وألمه لما يعانون من ضيق سببه قيادتهم، ووعده لكل فرد من الجيش يخرج من جدة مسالماً أن يكون آمناً على نفسه وسلاحه وماله، وأن

---

(١) القاضي، مصدر سبق ذكره، ص ٦٤.

(٢) الذكير، نسخة بغداد، ص ص ١٢١ - ١٢٢.

(٣) القاضي، مصدر سبق ذكره، ص ٦٧. وكان وصول تلك القوة إلى الحجاز في الخامس من جمادى الأولى عام ١٣٤٤هـ. الزركلي، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ٣٤٧.

يوصله إلى أهله على نفقته الخاصة سواء كان من داخل الحجاز أو خارجها [1]. وكان هذا مما شجع بعضاً من أفراد ذلك الجيش على مغادرة جدة [2]. على أن الطامة الكبرى بالنسبة للملك علي خروج المدينة المنورة من يده في الثامن عشر من جمادى الأولى عام ١٣٤٤هـ. ذلك أن حاميتها كانت تملك أسلحة ومعدَّات حربية كبيرة، وأن فقدان تلك المدينة نكسة سياسية لا تُعوَّض.

وأمام ذلك الوضع المتردِّي أدرك الملك علي أنه لا بد من مفاوضة الملك عبدالعزيز حول تسليم البلاد إليه. فاتصل بالمعتمد البريطاني في التاسع والعشرين من جمادى الأولى [3]، وطلب منه أن يتوسط في الأمر؛ مبدياً شروطه للتسليم. فخرج المعتمد إلى معسكر الملك عبد العزيز وأطلعه على تلك الشروط. وبعد إدخال تعديلات طفيفة عليها قبلها، وأمضاها في أول يوم من جمادى الآخرة. ثم أمضاها الملك علي مساء ذلك اليوم (١٧/ ١٢/ ١٩٢٥م).

---

(١) الذكير، نسخة بغداد، ص ١٢٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٢٧. وقد ذكر أن ممن غادروها ٣٠٠ جندي من سوريا وفلسطين، وتحسين باشا القائد العام للجند، وعبد الله باشا رئيس وزارة جدة، ومحمد علي كاتب الملك الخاص، وأحمد السقاف رئيس الديوان.

(٣) المصادر المحلية العربية تسمِّيه «المعتمد» لكن ترولر (مصدر سبق ذكره، ص ٢٣١) يسميه «القنصل».

وأهم ما اتَّفق عليه الطرفـان :

١ - يتنازل الملك علي عن ملك الحجاز، ويرحل عنها بممتلكاته الشخصية فقط ، ويسلِّم للملك عبد العزيـز كل ما هو ملك لحكومة الحجاز من أسلحة ومعدَّات وبواخر ومنشآت وأموال .

٢ - يضمن الملك عبـد العـزيـز سلامـة المـوظفين والعسكـريين والأشراف والأهالي والقبائل ، ويمنحهم العفو العام ، ويتعهَّد بترحيل العسكريين الذين يرغبون الرحيل إلى أوطانهم [١] .

وهكذا انتهى الحكم الهـاشمي للحجاز، وتـوحَّدت هـذه المنطقة مع ما وحَّده الملك عبد العزيـز من مناطق البلاد . وقد غادر علي بن الحسين جـدة في الســادس من جمــادى الآخــرة [٢]. ثم دخلهـا الملك عبد العزيز، وعامل من فيها من السكان معاملة حسنة .

الدروس المستفادة:

تستفاد دروس كثيرة مما حدث في الحجاز من مواقف ووقائع لكلٍّ من الملك عبـد العـزيـز والملك حسين ، ثم ابنـه علي ، من بـدايـة التحرك السعـودي لتوحيد تلك المنطقة حتى تحقيق ذلك التـوحيد . ومن تلك الدروس :

---

(١) القاضي ، مصدر سبق ذكره ، ص ٦٨ . الـريحاني ، مصدر سبق ذكره ص ص ٤٥٤ - ٤٥٥ . السباعي ، مصدر سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ص ٢٦٨ - ٢٧١ .

(٢) الزركلي ، مصدر سبق ذكره ، ج ١ ، ص ص ٣٤٧ - ٣٤٨ .

١ - أهميَّة بُعْد نظر القائد سياسياً في تحقيق النصر عسكرياً. ذلك أن هذه الصفة تجعلـه يتحرَّك في الوقت المناسب للحـركة، ويهيىء لتحرُّ كـه جميع وسائل النجاح؛ سياسيـاً ومعنوياً وماديـاً، ويتصرف تجاه كل مـوقف تصرُّفاً مـلائما. وقـد برهن الملك عبد العـزيز على ذلك كله برهنة واضحة:

أ - كان في إمكان قـوات الإخوان التابعة له، إثر انتصارهـا في تُرَبة سنة ١٣٣٧هـ، أن تحـاول انتـزاع الطائف من قـوات الملك حسين المنهارة حينذاك. لكنه أدرك أن الوقت غيـر مناسب لتلك المحاولة. ذلك أنـه لم يتمكن بعـد من تـوحيـد جبل شمَّـر، ولا توحيـد منطقـة عسيـر، وأن بريطـانيـا ذات القوة المـؤثـرة في المنطقة مـا زالت تقف بجانب ملك الحجـاز. بل إنها حـذَّرت الملك عبد العزيـز من البقاء بجيشه في تُـرَبة ذاتها. وبعـد ذلك بخمس سنوات كـان قد نجح في توحيـد جبل شمَّر ومنطقة عسيـر، وكانت بـريطانيا قـد بدأت تنفض يـدها من خصمـه، الملك حسين، الذي أصبح يعـارض أهدافهـا. ولهذا أدرك أن الوقت مناسب ليبدأ عملية توحيد الحجاز. على أنه لم يقدم على الخطوة الأولى من تلك العملية إلا بعـد أن مهَّد لها سياسياً ومعنويـاً وماديـاً. وذلك بكشف مـواقف الملك الحسين غير العـادلة تجاهه أمام العرب والمسلمين، وتهيئة نفوس أتباعه؛ خاصة الإخوان الذين كانـوا يتطلَّعون إلى أداء الحج الذي منعهم الملك الحسين من أدائه، وحشد الطاقات المادية والعسكرية لذلك التحرُّك.

ب - لم يحاول اقتحام مكة والمدينـة وجدة اقتحاما . بل أكَّد على قواته أن تحاصـر هذه المدن محاصرة لتدخلهـا بطريقة سلمية . ذلك أنـه يحتـرم قـدسية مكـة والمـدينـة كل احتـرام ، ويعلـم عظمـة تلك القـدسيـة لجميع المسلمين . وكـان في جـدة ممثِّلون لـدول أجنبيـة يحرص غـاية الحـرص على بقائها محـايدة بينـه وبين خصمه الملك علي . وأية محـاولة اقتحام لتلك المـدينة قـد تعرِّض أولئك الممثِّلين لمخاطر لها عواقب وخيمة .

ج - إطـلاعـه المسلمين في الأقطـار المختلفـة على الحقـائق الموجـودة في الحجاز، وإشراكـه لهم في التشاور، وإكرامـه من وفد إليه منهم ومن أدَّى الحج بنـاء على إعلانه بأن الطرق ميسَّـرة آمنة إلى بيت الله الحـرام . وكـان لكل ذلك أثـر إيجـابـي في تأييـد كثيـر من المسلمين له .

د - استفادتـه من أخطاء خصمـه السياسيـة ؛ سواء في تعميق ولاء أتباعه له ، أو في كسب الآخرين إلى صفِّه ، أو تحييدهم على الأقل .

٢ - ظهور التأثيـر السلبي للنظرة السياسية القصيـرة والقرارات غير الحكيمة على المـوقف العسكري . ويتضح ذلك من مـواقف الملك حسين وابنه علي في عدة أمور أهمها :

أ - أن الحسين منع أتباع الملك عبد العـزيز من أداء الحج . وكان هذا مما أثارهم ضده بدرجة كبيرة ، وجعلهم يستبسلون في محاربته .

ب - أنــه تلقَّب بلقب خليفــة المسلمين دون قـرار من مختلف قادتهم وشعـوبهم . وكان هـذا ممـا أثار عليـه كثيـراً من المسلمين ؛

زعماء، وأحزاباً، وشعوباً، وهيأهم نفسياً لعدم مساندته. بل إنه دفعهم للوقوف سياسياً مع خصمه الملك عبد العزيز.

ج - أنه انخدع ببريطانيا فوقف معها واعتمد عليها مع أن أي سياسي حاذق لا يمكن أن ينخدع بتلك الدولة. ولذلك تخلَّت عنه وقت حاجته إليها.

د - أن الملك علي بن الحسين لم يستجب لدعوة من دعاه من أعيان الحجاز بعدم اللجوء إلى الحلِّ العسكري لتسوية النزاع بينه وبين الملك عبد العزيز بعد أن اتضحت قوة هذا الملك للجميع، وأدرك الكثيرون أن جميع التوقعات في صالحه.

٣ - أهميَّة وضوح الهدف لدى القائد في تحقيق النصر. ويظهر ذلك في إدراك الملك عبد العزيز لهدف تحرُّكه صوب الحجاز إدراكاً تاماً؛ وهو انتزاع تلك المنطقة من يد الملك حسين الذي طالما أثار له المشكلات وعاداه، وتوحيدها مع ما وحَّده من مناطق البلاد وأقاليمها. وقد استمر واضعاً تحقيق هذا الهدف أمام عينيه في جميع مراحل عمليات توحيده للمنطقة المذكورة. ذلك أنه رفض أية محاولة وساطة لا تؤدِّي إلى إنهاء حكم الهاشميين للحجاز. وكان هذا مما جعل قواته؛ قادةً، وأفراداً، يثقون بقيادته، ويستبسلون في قتالهم لخصومهم.

٤ - أهميَّة قدرة القائد على اتِّخاذ الخطوات الكفيلة بإزالة أي خطر محتمل على سير العملية التي هو مقدم عليها. وقد ظهرت تلك

الأهميَّة في إسناد الملك عبدالعزيز قيـادة المناطق الشمالية من بلاده للأميـر عبد العـزيز بن مسـاعد، وفي إرسـاله قوات مـن الإخوان إلى حدود كلٍّ من العـراق وشرق الأردن لتمنع أية محاولة تبـذل من هذين القطرين لمساعدة الملك حسين في الحجاز.

٥ - أهميَّة المفاجأة في إرباك قوات الخصم والانتصار عليه. ومن ذلك مفـاجأة الإخـوان لقوات الملك حسين فـي الطائف؛ إذ ظهـروا فجأة على أرض الحَوِيَّـة، إحدى ضواحـي هذه المدينـة، فلم تُـجْدِ نفعـاً تلك القـوة التي بعثهـا ذلك الملك مع ابنـه علي نجـدة لتلك القـوات. وكـان أن انتصـر الإخـوان على تلـك القـوات في معـركتي الطائف والهدا. ومن ذلك مفاجأة أتباع الملك عبد العزيز للقوة التي ظهرت من جـدة في أوائل شهر ذي الحجة لتهاجم القـوات السعودية المحـاصرة لها دون علم بمجيء الـزعيم القحطـاني، فيصل بن حشر، ومن معه. وكانت النتيجة إبادة أكثر أفراد القوة الهاشمية المهاجمة.

٦ - أهميَّة إيمان المقاتل بالهـدف الذي يقاتل من أجله في شحذ همَّته وحسن بلائه في المعركة. ومن الـواضح أن أتباع الملك عبد العزيز الـذين انطلقـوا لمحـاربـة قـوات الملك حسين في الحجـاز كـانـوا مؤمنين بهـدفهم من القتال. ولذلك استبسلوا في المعـارك، وواجهوا نيران المدفعية الهاشمية بشجاعة نادرة. ومن أمثلة ذلك ما حدث في معركـة المصفَّحات بالـذات؛ إذ هجم عليها أفراد منهم حتى خـرَّبوا رشاشاتها. وكـان لذلك الاستبسال وهذه الشجاعة أثـرهما في إحباط خصومهم وهزيمتهم.

٧ - الأثـر السلبي للسيـاسة الإعـلاميـة الخـاطئة على معنـويـات المقاتلين والمدنيين. وقد ظهر ذلك في انهيار معنويات أفراد القوات الهاشمية والسكان التابعين لحكم الأشـراف بعد معركة الطائف نتيجة للسياسة الإعلامية للحكم الهـاشمي التي ضخَّمت ما حدث في هذه المدينة بدرجة كبيـرة، واختلقت من القصص المروِّعة ما لم يحدث. وكان الهـدف من تبنِّي هذه السياسـة الخاطئـة كسب عطف الآخرين فانعكست سلباً على أتبـاع ذلك الحكم بحيث سيطر الخوف عليهم وانهارت روح المقاومة في نفوسهم.

٨ - الأثر السلبي لوجود سلطة غير قادرة على الإمساك بزمام الأمور بحيث يوجـد من أتباعها رسميـاً من يتصرف دون إذن منها أو مخـالفاً لأوامـرهـا. وقد ظهـر ذلك في عـدم تمكُّن الملك علي من السيطـرة على أعضاء الحـزب الوطني الحجازي الـذين كانوا يتصلـون بالملك عبد العزيـز دون علمه أو رغماً عنه، وفي إرسال أحد قـادته طائرة إلى أجـواء مكـــة دون علمـه لتلقي منشـــورات تحـريضيـة ضـــد الملك عبـدالعزيـز مع أن المحاولات كـانت تبـذل لحلِّ خلافهمـا بطريقـة سلمية.

٩ - أهميَّة مهارة القائد في التحـرُّك العسكري وفق خطة محكمة. ومن ذلك أن الملك عبد العزيـز فضَّل حصار جدة، وإن طال، على محـاولة اقتحـامها لمـا سبقت الإشـارة إليه من رغبتـه في تفادي أيـة مشكلة قـد تحدث للممثلين الأجانب فيهـا نتيجة الاقتحام ممـا يثير

حكوماتهم ضده. وهذا بالإضافة إلى ما قد يحدث، أيضاً، من خسائر في الأرواح لقواته وإن كان احتمال نجاحها في الاقتحام كبيرا. على أنه لم يقصر نشاطه على ذلك الحصار. بل بعث فِرقاً من قواته إلى جهات الحجاز الأخرى، فحقَّقت الأهداف التي بُعِثت من أجلها حتى أصبحت جدة وحيدة، واضطر الملك علي إلى قبوله بشروط تسليمها.

١٠ - أهميَّة حكمة القائد في اتِّباع سياسة مرنة تجاه أتباع خصمه بحيث يكسبهم إلى صفِّه، أو يجعلهم يتخلَّون عن ذلك الخصم. وقد ظهر ذلك في توزيع الملك عبد العزيز منشوراً على سكان جدة؛ خاصة أفراد الجيش الهاشمي، وعدهم فيه بأن يعامل كل من خرج إليه مسالماً، أو خرج مبتعداً، أن يأمن على نفسه وسلاحه وماله، وأن يؤمن له الوصول إلى بلده. وكان من نتيجة تلك السياسة أن غادر جدة أعداد كبيرة من الجنود النظاميين وغيرهم من السكان مما أضعف موقف الملك علي، وأسرع في تسليمه تلك المدينة إلى الملك عبد العزيز وتخلِّيه عن حكم الحجاز بطريقة سلمية.

الفصل الرابع عشر
المعارك مع المنشقين من الإخوان

سنتي ١٣٤٧ - ١٣٤٨هـ

١٩٢٩ - ١٩٣٠م

تمهيد تاريخي :

كانت كلمة «الإخوان» تطلق، في نجد، على طلاب العلم والمرتبطين بهم من المتحمِّسين للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر منذ عهد الشيخ محمد بن عبدالوهاب. وكانت منتشرة الاستعمال بين الحاضرة من السكان، ثم صارت ذات دلالة معيَّنة مرتبطة بحركة البادية الاستيطانية، التي تمَّت على نطاق واسع في عهد الملك عبد العزيز. وكانت انطلاقة عظيمة في تاريخ البلاد. وقد بدأت ببعث هذا الملك دعاة إلى مضارب القبائل الرحَّل يرشدون زعماءها، ويحثُّونهم على الاستقرار لتسهل عليهم معرفة أحكام الدين وتطبيقها. فنجحوا في إقناع فئات من تلك القبائل على الاستيطان، وسمَّى هؤلاء المقتنعون أنفسهم «الإخوان»؛ إشارة إلى أن الرباط الذي بات يربطهم هو رباط الأُخُوَّة الدينية، وسمَّوا مستقراتهم «الهجر»؛ إشارة إلى هجرهم نمط حياتهم الأولى التي لم تتح لهم معرفة دينهم وتنفيذ أحكامه. وكانت بداية ذلك الاستيطان حوالى ١٣٣٠هـ في الأرطاوية، التي أصبحت مركز زعيم مطير، فيصل الدويش. ثم تكوَّنت الهجر من فئات القبائل المختلفة بسرعة. وكان من أشهرها هجرة الغُطْغط مركز زعيم برقاء من عتيبة سلطان بن بجاد. وقد قام الإخوان بجهود كبيرة في عمليات توحيد البلاد؛ خاصة بعد نهاية الحرب العالمية الأولى.

وبعـد أن أتمَّ الملك عبـد العـزيـز تـوحيد منطقـة الحجـاز، عـام ١٣٤٤هـ، مـع ما سبق أن وحَّـده من مناطق البـلاد وأقاليمهـا بدأت تظهـر عـلامـات اختلاف بينـه وبين بعض قـادة الإخـوان؛ لا سيمـا الـدويش، وابن بجـاد، وضيـدان بن حثلين زعيم قبيلـة العجمـان. وكان مما أعلنـوا اختلافهم معه حـوله استخدام المخترعـات الحديثة كالهـاتف والبرقيات، ومـرونته في التعامل مع دول وفئـات يرون خطأ التعامل معهـا، وعدم السمـاح لهم بغزو بعض الـدول المجاورة التي يرون انحـرافها عن الـدين الصحيح[1]. ومن المحتمل أن يكـون مـا أعلنوه معبِّـراً عن نظرتهم الحقيقيـة إلى تلك الأمور، أو يكـون يخفي وراءه أسبـاباً أخـرى للاختـلاف. على أن المتأمل في سير الأحـداث يتضح له ما يلي:

كان أبرز قادة الإخوان، المتجهين لتوحيد الحجاز عام ١٣٤٣هـ، أتباعـاً سلطان بن بجـاد، الذي كان لـه ولأتباعـه النصيب الأكبر في معركـة تُرَبـة عام ١٣٣٧هـ. ومع ذلـك تولَّى مقاليـد أمور مكـة بعد دخـولهم إيَّـاها رفيقـه خـالـد بن لؤي[2]. وقـد عـاد إلى نجـد قبل استسلام جدة. أما الدويش فلم يلتحق بقوات الملك عبد العزيز في الحجاز إلا بعد دخولها الطائف ومكـة لانشغاله بالجبهة مع العراق.

---

(١) ابن هذلول، مصدر سبق ذكره، ص ص ١٨٦-١٨٩.

(٢) المصدر نفسـه، ص ١٥٦؛ السباعي، مصـدر سبق ذكـره، ج ٢، ص ٢٥٥. وقد يكون سبب إسناد الأمر إلى خالد أنـه من الأشراف؛ فهو أقرب إلى نفوس السكان من سلطان، وأنه يبدو أكثر مرونة من هذا الأخير.

ولعل هـذا كان أحـد أسبـاب حرصـه على أن يتمَّ استسـلام المدينـة المنـورة على يـديه لينـال مـا نـاله ابن بجـاد من شهـرة في البلـدتين السابقتين. لكنه اضطـر إلى العودة إلى نجد قبل استسـلامها. وربما كـان هذان الـزعيمـان قـد أحسَّا بأنهمـا لم يـدركا مـن المشاركـة في العمليـات العسكـرية في الحجـاز مـا اعتقـدا أنهما يستحقـانـه من مكاسب [١]. وأمـا ابن حثليـن فلم يشترك في تلك العمليـات؛ لأنه تباطأ في تلبية الطلب، فأمره الملك عبد العزيز بألاَّ يشترك [٢].

وكـانت اتفـاقيتـا بَحْـرة وحَـدَّة بين الملك عبـد العـزيـز والمفـوَّض البريطاني، كلايتـون ـ نائباً عن حكومتي العـراق وشرق الأردن ـ عام ١٣٤٤هـ، قـد حدَّدتا الحـدود بين البلاد السعوديـة وكلٍّ من البلدين المذكورين[٣]، وقد رأى بعض قـادة الإخوان في هذا سدَّ طـريق لغزو كانوا يقومون به تـديُّناً أو بحثاً عن غنائم. وفي حج ذلك العام وقعت حادثـة المحمل المصري، التـي راح ضحيتها أربعون مـن الإخوان، ومنع الملك بقيتهم من الثأر لهم، ثم دفع ديات المقتولين[٤].

---

(١) الذكير، نسخة خاصة، ص ٢١٤؛ الزركلي، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٧٠.
(٢) المصدر الأخير نفسه، ج ٢، ص ٤٧١.
(٣) انظر نص الاتفاقيتين لدى الريحاني، مصدر سبق ذكره، ص ص ٤٣٥-٤٤٥.
(٤) الذكير، نسخة خاصة، ص ٢١٥.

وكانت بداية أعمال المنشقين من الإخوان لإظهار موقفهم أن اجتمعوا في الأرطاوية، وأعلنوا مآخذهم على الملك عبد العزيز[1]، الذي حاول اجتذابهم بالتي هي أحسن، ودعا إلى مؤتمر يعقد في الرياض في رجب سنة ١٣٤٥هـ، فحضر أكثر زعمائهم. وممن لم يحضر ابن بجاد[2]. وأوضح الملك في ذلك المؤتمر تمسُّكه بدين الله؛ عقيدة، وشريعة، وتطبيقا. ثم استفتى العلماء في مآخذ بعض الإخوان عليه. فأفتوا بتوقُّفهم في مسألة البرقيات والهاتف، وربطوا قضية الجهاد بالإمام، كما أفتوا بأن ما هو منكر من تلك المآخذ لا يبيح الخروج على الإمام[3]. لكن المنشقين لم يغيِّروا موقفهم.

وراح الدويش، عام ١٣٤٦هـ، يهاجم بأتباعه الحاميات التي وضعتها الحكومة العراقية عند مخافر قرب حدودها بُنِيت خلافًا لاتفاقية العُقَير[4]، ولعل من أهدافه كسب عواطف المتحمِّسين من الإخوان. ووعد الملك عبد العزيز المنشقين بأنه سيبحث مشكلات الحدود مع بريطانيا، لكن محادثاته معها لم تنجح في إزالة ما بناه العراقيون من مخافر[5]. فدعا إلى مؤتمر يعقد في الرياض يحضره

---

(١) ابن هذلول، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٦؛ الزركلي، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ٤٧٢.

(٢) الذكير، نسخة خاصة، ص ٢١٥.

(٣) ابن هذلول، مصدر سبق ذكره، ص ص ١٨٧-١٨٩.

(٤) الزركلي، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٧٥. وكان ذلك الاتفاق عام ١٣٤١هـ.

(٥) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٧٨.

العلماء وأمراء الحاضرة وزعماء الإخوان والقبائل. وكان حريصاً على حضور قادة المنشقين بالذات؛ أملاً في إقامة الحجة عليهم وتجديد بيعتهم له، ليكون له العذر في اتخاذ أي إجراء مناسب ضدهم إن لم يعدلوا عن موقفهم. ووصل إلى الرياض كثير من المدعوِّين[١]. لكن الدويش لم يحضر. بل أرسل ابنه عبد العزيز نائباً عنه[٢]. ولم يحضر، أيضاً، ابن بجاد[٣]. أما ابن حثلين فعلم وهو في الطريق أن هذين الزعيمين لن يحضرا، فعاد إلى هجرته[٤].

وفي الثاني والعشرين من جمادى الأولى، عام ١٣٤٧هـ (٥/ ١١/ ١٩٢٨م)، بدأ ذلك المؤتمر الذي عُرِف باسم «**الجمعية العمومية**». وتساءل الملك فيه عما إذا كانت لدى أيٍّ من الحاضرين شكوى ضده أو ضد أحد عماله، ثم أبان ما قام به من أعمال. وبعد ذلك عرض عليهم أن يتنازل عن الحكم ليختاروا غيره من آل سعود. فقالوا: إنهم لا يرضون بديلاً عنه[٥]. وعندئذ وجه كلامه إلى العلماء متسائلاً عما إذا كانوا يرونه مخالفاً للشرع في أمر من الأمور، فأجابوا بأنهم

---

(١) الذكير، نسخة خاصة، ص ٢١٥. وقد قُدِّر من وصل إلى الرياض بالآلاف. لكن الذين حضروا في مكان المؤتمر زعماؤهم.

(٢) المصدر نفسه، الصفحة ذاتها؛ الزركلي، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٧٩.

(٣) يذكر العبيِّد (مصدر سبق ذكره، ص ٢٤٤) أن ابن بجاد أرسل، نيابة عنه، ابن عمِّه علوش بن حميد.

(٤) الذكير، نسخة خاصة، ص ٢١٥.

(٥) المصدر نفسه، ص ٢١٧.

لم يروا منه إلا التزاماً بشرع الله . ثم أثار بعض زعماء الإخوان مسائل لا يزال في نفوسهم شيء منها كالبرقيات ، ومسألة المخافر العراقية ، والجهاد . فأعاد العلماء ما سبق أن أفتوا به حول تلك المسائل[1] . وهو التوقف في مسألة البرقيات والهاتف ، وترك قضية الجهاد في يد ولي الأمر . وبدا وكأن الحاضرين ، أو أكثرهم ، قد اقتنعوا بتلك الفتوى . وانتهى المؤتمر ـ الجمعية العمومية ـ بتجديد البيعة للملك عبدالعزيز[2] . وكان هذا مما أتاح له اتخاذ ما يراه مناسباً من إجراءات ضد المنشقين .

معركة السبلة:

كانت نهاية المؤتمر - الجمعية العمومية - الذي عقده الملك عبد العزيز في الرياض انتصاراً سياسياً واضحاً له على المنشقين من الإخوان . ذلك أن العلماء أفتوا بأن أمر الجهاد بالذات ـ وهو أهم مسألة أثارها هؤلاء المنشقون ـ في يده بصفته ولياً للأمر. وبالإضافة إلى هذا فقد جدَّد البيعة له كل الذين حضروا ذلك المؤتمر. على أن زعماء الإخوان الثلاثة : ابن بجاد ، والدويش ، وابن حثلين ، وأنصارهم لم يغيِّروا موقفهم ، وراحوا يعلنون في الهجر المختلفة بأنهم القائمون حقاً بأمر الدين والجهاد[3] . فألحَّ الأول منهم على

---

(١) المصدر نفسه ، ص ص ٢١٩-٢٢٠ ؛ الزركلي ، مصدر سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ص ٤٧٩-٤٨٤ .

(٢) المصدر الأخير نفسه ، ج ٢ ، ص ٤٨٥ .

(٣) حافظ وهبة ، **جزيرة العرب في القرن العشرين** ، ط ٥ ، القاهرة ، ١٣٨٧هـ ، ص ٢٩٨ .

الملك عبد العزيز ليسمح له ولأتبـاعه بغزو من وصفهم بأعداء الدين خارج الحـدود الشماليـة للبلاد [١]. وأرسل الثـاني رسـالـة إلى ابن الملك، الأمير سعود، يطلب منـه ما طلبه الأول[٢]. أما الثالث فراح يشنُّ غـارات على بعض بـادية العراق سـواء التي في الأراضي العـراقية أو التي داخل الأراضي الكويتية [٣].

وبالرغم من ذلك الانتصار السياسي الذي حقَّقه الملك عبد العزيز على من اختلفـوا معه من الإخوان نتيجـة مؤتمـر الريـاض، واستفزاز هؤلاء له قـولاً وعملاً، فإنه آثر التريُّث في اتخـاذ قرار بشأن مواجهتهم عسكريـا. ويبدو أنه كـان ينتظر تحقُّق عـدة أمور من أهمها حصـوله على تعهُّد من بريطانيا بعدم إيواء من يفرُّون من بلاده إلى البلدان التي كانت مهيمنة عليها: الكـويت، والعراق، وشرق الأردن. وقد حصل على ذلك التعهُّد [٤]. ومن تلك الأمور قيام المنشقين بأعمال داخل

---

(١) يذكـر العبيِّد (مصـدر سبق ذكره، ص ص ٢٤٦-٢٤٧) أن الملك استـدعى الشيخ عبد الله بـن بليهد من الفـوَّاره، وأطلعه على رسـالة من ابن بجـاد إليه يقـول فيها: إن أتباعه ثائرون عليه يريدون أن يسمح لهم بالغزو وإلا فإنهم سيغزون بدون سماح، وأن الشيخ أشار على الملك أن يدعهم يفعلون ذلك.

(٢) جون حبيب، وترجمة عنوان كتابه: **جنود ابن سعود للإسلام**، لايدن، ١٩٧٨م، ص ١٣٦. ويذكـر الدويش في رسـالته أنه من الصعب على أتبـاعه أن يُمنَعـوا من الغزو لأنهم بهـذا المنع أصبحوا لا مسلمين يقـاتلـون كفَّاراً، ولا بـدواً يعيشون من غـارات بعضهم على بعض.

(٣) الزركلي، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٨٦.

(٤) المصدر نفسه، ج ٢، ص ص ٤٨٦-٤٨٧.

البلاد تزيد من سخط السكان عليهم، وتلهب حماسهم ضدهم. وقد حدث هذا، أيضا. ذلك أن من هؤلاء المنشقين من ظنوا - على الأرجح - تريُّث الملك عبد العزيز ضعفا. فمضى ابن بجاد بأتباعه ومن ناصره من أهل الهجر التي حول هجرته إلى مكان قرب الأرطاوية، مركز الدويش. وانضم إليه آخرون؛ منهم فرحان بن مشهور أحد رؤساء عنزة، فساروا جميعاً شمالاً، وأخذوا يغيرون على فئات من قبائل تابعة للملك عبد العزيز، وهاجموا قافلة تجارية لأناس من أهل بريدة، فصادروها، وقتلوا عدداً من رجالها [1]. (انظر الخريطة رقم ٢٥). وبهذا تبيَّن لكثير من الناس أن أعمال بعض قادة المنشقين من الإخوان لم تُوَجَّه إلى من هم خارج البلاد وحدهم ــ كما أعلنوا أنهم سيفعلون ــ وإنما شملت أبرياء من أبناء البلاد ذاتها.

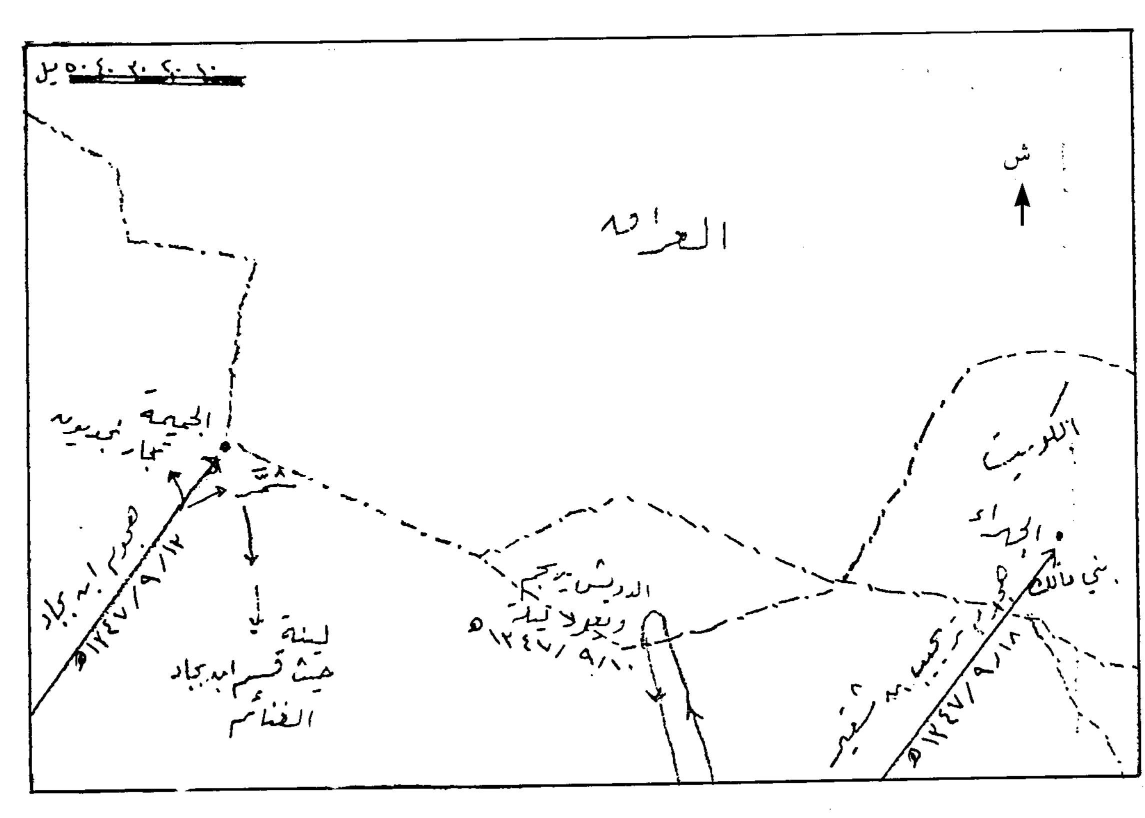
وأدرك الملك عبد العزيز أن الوقت قد أصبح مناسباً لوضع حدٍّ لتصرفات أولئك المنشقين بالقوة. فأمر أتباعه بالاستعداد للغزو، والتوجه إلى القصيم لتكون مركز تجمُّع قواته [2]. وانطلق هو في العشر الأواخر من رمضان إلى بريدة.

---

(١) الذكير، نسخة خاصة، ص ٢٢١؛ ابن هذلول، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٢؛ العبيِّد، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٧. وقد ذكر محمد المانع (**توحيد المملكة العربية السعودية**، ترجمة عبد الله الصالح العثيمين، الدمام، ١٤٠٢هـ، ص ١٢٦) أن تلك القافلة كانت لابن شريدة.

(٢) يذكر المانع (مصدر الأخير نفسه، ص ١٢٩) أن الأميرين عبد الله بن جلوي وعبد العزيز بن مساعد قاما بجهود لعرقلة أية محاولة يقوم بها أنصار المنشقين في جهات إمارتيهما لمساعدتهم. لكن جلوب باشا يقول: إن الدويش سأل ابن =

خريطة رقم (٢٥)



عمليات بعض الإخوان المنشقين خلال شهر رمضان سنة ١٣٤٧هـ

كما رسمها جلوب في كتابه : **الحرب في الصحراء**

ولم يأتِ اليوم العاشر من شوال إلا وقد اجتمع لديه أعداد كبيرة من الحاضرة والبادية والإخوان الذين مازالوا متمسّكين بولائهم له[1]. فسار بهم إلى النَّبْقية، التي كان قد وصل إليها ابنه سعود بآلاف من أهل العارض وما حولها. ثم زحف بالقوات جميعاً إلى الزُّلْفي[2].

ولم تكن أخبار الملك عبد العزيز خافية عن الزعماء المنشقين من الإخوان. ولذلك عاد ابن بجاد ومن كانوا معه - بعد أن عملوا ما عملوا في شمال البلاد - إلى الأرطاوية ليخططوا لمواجهة الاحتمالات كافة. ثم تحرّكوا منها، ومعهم الدويش وأتباعه، صوب روضة السبلة القريبة من الزلفي شمالاً بشرق، ونزلوا هناك[3]. (انظر الخريطة رقم ٢٦ والخريطة رقم ٢٧).

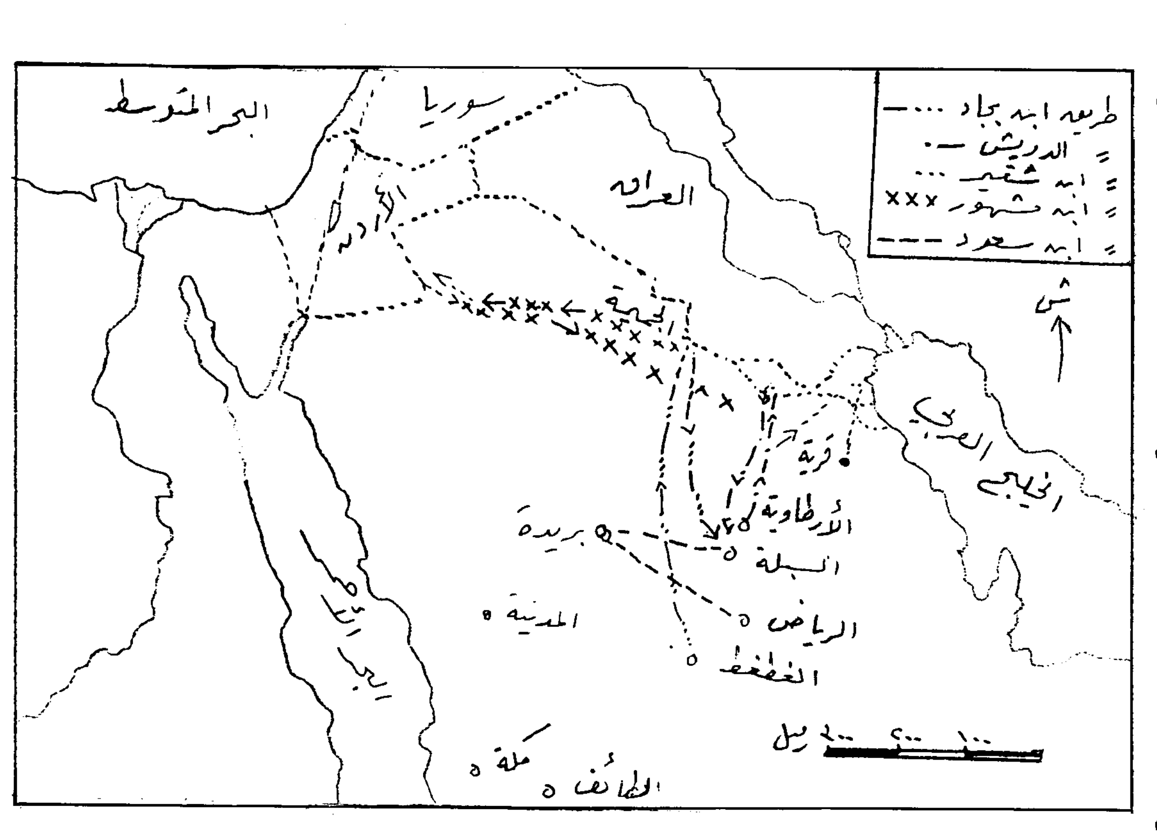
= حثلين أن يبقى في شمال شرقي البلاد لحماية ظهره ضد أي هجوم قد يقوم به ابن جلوي عليه. انظر كتابه - وترجمة عنوانه - **الحرب في الصحراء**، نيويورك، ١٩٦١م، ص ٢٨٥. أما الذكير (نسخة خاصة، ص ٢٢٨) فيقول: إن ابن حثلين كان متَّفقاً مع ابن بجاد والدويش على مهاجمة من هم خارج البلاد فقط، وإنه لم يرد محاربة الملك عبد العزيز وأتباعه.

(١) من الإخوان الذين ظلُّوا موالين للملك: حرب، وقحطان، وسبيع، وشمَّر، إلا من ندر من هذه القبائل؛ إضافة إلى فئات من عنزة والظفير. بل إن فئات من عتيبة؛ في طليعتها عمر بن ربيعان وأتباعه، وفئات من مطير؛ في طليعتها مشاري بن بصيص، والدياحين، بقيت موالية له. ولم يقتصر الأمر على هؤلاء، وإنما كان جهجاه بن حميد، أخو ابن بجاد، وجماعته غير مؤيِّدين للزعماء المنشقين عليه. الذكير، نسخة خاصة، ص ٢٢١؛ جلوب، مصدر سبق ذكره، ص ٢٨٤.

(٢) ابن هذلول، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٢.

(٣) الذكير، نسخة خاصة، ص ٢٢١.

خريطة رقم (٢٦)



تعريب لرسم جلوب لحركات طرفي النزاع إلى معركة السبلة
في كتابه حرب في الصحراء

ومع أن كلاًّ من الملك عبد العزيز والزعماء المنشقين قد أصبحا على شفا الحرب فإنهما لم يكونا، فيما يبدو، متحمِّسين لخوضها قبل استنفاد كل الوسائل السلمية لحلِّ ما بينهما من خلاف. ومما يدل على ذلك حرص كلٍّ منهما على الاتصال بالآخر لإقناعه بوجهة نظره. فقد بعث الملك إلى أولئك الزعماء الشيخ عبد الله العنقري ليقنعهم بالنزول على حكم الشرع لما قاموا به من اعتداءات؛ خاصة تلك التي وُجِّهت ضد القافلة التجارية التابعة لأهل بريدة، لكنه لم ينجح في إقناعهم[1]. فتحرَّك الملك بقواته من الزُّلْفي حتى نزل قرب المكان الذي نزلوا فيه. وحاول ابن بجاد، فيما يبدو، أن يجد مخرجاً للوضع الذي أصبح فيه هو ورفاقه؛ خاصة أنه يُعَدُّ المسؤول الأول عن الهجوم على تلك القافلة التجارية. فأرسل ماجد بن خُثَيلة إلى الملك عبد العزيز للمفاوضة. لكن الملك أصرَّ على أن يقبل المسؤولون عن ذلك الهجوم النزول على حكم شرع الله[2]. ثم قدم الدويش بنفسه إلى الملك، وفاوضه[3]. ووافق، في نهاية الأمر،

---

(١) ابن ناصر، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ١٨٤؛ المانع، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٥.

(٢) ابن هذلول، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٣. ويقول الذكير (نسخة خاصة، ص ٢٢١): إن زعماء الإخوان رفضوا أن ينظر في أمرهم العلماء المشهورون مدَّعين أنهم سيجاملون الملك في حكمهم. وذكر جلوب (مصدر سبق ذكره، ص ٢٨٦) أن ابن بجاد لم يقبل النزول على حكم الشرع لأنه كان يعلم بأن قضاة الملك سيحكمون بقتله.

(٣) كان قدومه مع الشيخ العنقري، الذي أقنعه بذلك. ابن ناصر، مصدر سبق =

على أن يعود إلى الإخـوان ويحاول إقناع ابن بجاد بـالمجيء معه إلى الملك قبل صبـاح اليـوم التـالي . فإن رفض هـذا الأخيـر المجيء فسيفارقه وينسحب إلى الأرطاوية [١] . وحلَّ صباح ذلك اليوم دون أن يقدم الدويش وابن بجاد إلى الملك ، ولم ينسحب الأول ، كما وعد ، إلى الأرطاوية [٢] .

قوات الطرفين:

كـانت قوات الملك عبـد العزيـز مكوَّنـة ، كما سبق أن ذكـر، من الحاضرة والبادية والإخوان الموالين لـه . وكانت قوات خصومه مكوَّنة من فئات من الإخوان المنشقين عليه فقط . وقد اختلفت الروايات في أعداد هـؤلاء وأولئـك . فهنـاك من قـدَّر قوات الملك عبد العزيز بين

= ذكره، ج ١ ، ص ١٨٥ . وقد أكرمه الملك ومنحه هدايا ثمينة . جلوب ، مصدر سبق ذكره، ص ٢٨٧ .

(١) المصدر الأخير نفسه ، ص ٢٨٦ ؛ ابن ناصر، مصدر سبق ذكره، ج ١ ، ص ١٨٥ . على أن المـانع (مصـدر سبق ذكـره، ص ١٤٠) يـذكـر أن الـدويش قـال للملك : سأتحدث مع ابن بجـاد بشأن النزول على حكم الشـرع . وقد نعود غـدا . فإن لـم نعد فذلك يعنـي الحرب . ويذكـر جلوب أن ابن بجـاد حاول إقنـاع عُزيِّـز (عبد العـزيز) الدويش - خلال وجود أبيه عند الملك - أن أباه قد غُدِر به واعتقل ، واقترح مهاجمة الملك ليلاً ؛ مبـديًا استعـداده بأن يقود بنفسـه أتباعه من الغطغط إلـى خيمة الملك ذاتها . لكن ابن الدويش لم يوافقه .

(٢) يقول جلـوب (مصدر سبق ذكـره، ص ٢٨٧) : إن الدويش أرسل رجـلاً إلى الملك عبد العزيز صباح ذلك اليوم ليخبره أن ابن بجـاد رفض اقتراحه ، وأن أتباعه من مطير رفضوا الانسحـاب إلى الأرطاوية ؛ معبِّـراً عن ذلـك بقوله : «المسلمين رفضوا مفـارقة المسلمين» .

ثلاثين وأربعين ألفـا، وقدَّر قوات خصومه بأكثـر من عشرة آلاف[1].
وهناك من قـدَّر قوات الطرف الأول بستـة وعشرين ألفاً، وقـدَّر قوات الطرف الثاني بسبعة آلاف[2]. أما ابن هـذلول فلم يقدِّر عـدد قوات الملك، وإنما قدَّر عدد قوات خصومه بأربعة آلاف[3]. على أنه من المرجح أن قوات هـؤلاء الخصوم لم تبلغ نصف قوات الملك عبد العـزيز مهما كـان عـدد كلٍّ منهما. وبـالإضـافـة إلى ذلك فإن قـوات الملك كانت، على الأرجـح، أقـوى تسليحا[4]. وليس من المسلَّم بصحته ما ذكرته بعض المصـادر من تفوُّق قوات المنشقين على قواته تدريبا. ذلك أن قسماً غير قليل من أتباعـه كانـوا من الإخوان، وكان أكثـر الحاضـرة والباديـة الذين معـه ممن خاض حـروباً وتمـرَّس في معارك مختلفة. وكـان هدف الجميع واضحاً، وقيادتهـم واحدة. أما الخصوم فقد أشارت بعض المصادر إلى وجود خلاف بينهم[5].

---

(١) المانع، مصدر سبق ذكره، ص ١٤١.

(٢) ابن ناصر، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ص ١٨٤-١٨٥.

(٣) ابن هذلول، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٢.

(٤) من ذلك امتلاكها بعض الرشاشـات. المانع، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٤. وليس ذلك بمستغرب لأن الرشاشات كانت موجودة لدى جيش الملك عبد العزيز؛ خاصة بعد توحيد الحجاز.

(٥) يذكـر جلوب (مصدر سبق ذكره، ص ٢٨٦) أن الخـلاف في منزل الإخوان كثيـرًا ما وقع بين عبد العزيز بن فيصل الدويش وسلطان بن بجاد.

سير المعركة:

حلَّ صباح اليوم التاسع عشر من شوال، سنة ١٣٤٧هـ (٣٠/ ٣/ ١٩٢٩م)، دون أن يقدم الزعيمان، ابن بجاد والدويش، إلى الملك عبد العزيز. وكان هذا علامة رفض الزعماء المنشقين النهائي للنزول على حكم الشرع الذي طالب به الملك، واختيارهم الحلَّ العسكري. وكانوا قد احتلُّوا الجانب الأعلى من وادي ابن جار الله الواقع شرق روضة السبلة، وأقاموا هناك متاريس جيدة من الصخور والأحجار الموجودة فيه. أما الملك عبد العزيز فكان مخيماً بقواته غربي تلك الروضة. وفي صباح اليوم المذكور سابقاً أمر تلك القوات أن تتقدم نحو وادي ابن جار الله ذاته؛ استعداداً لخوض المعركة[1].

وهناك روايات مختلفة عن الكيفية التي سارت بها معركة السبلة[2]. ومما يركن إليه المتأمل في تلك الروايات أنها سارت كما يلي:

في صباح اليوم التاسع عشر من شوال أمر الملك عبد العزيز قواته أن

---

(١) المانع، مصدر سبق ذكره، ص ص ١٤٢-١٤٣.

(٢) من المصادر التي أعطت تفصيلات جيدة عنها الذكير، نسخة خاصة، ص ٢٢٣؛ المانع، مصدر سبق ذكره، ص ص ١٤٠-١٤٦؛ جلوب، مصدر سبق ذكره، ص ص ٢٨٧-٢٨٨؛ صحيفة أم القرى السعودية، عدد ٢٢٤ في ٣/ ١١/ ١٣٤٧هـ.

تتقدم نحو معسكر خصومه حتى وصلت إلى وادي ابن جار الله، الذي كان أولئك الخصوم في جانبه الأعلى. وكان هو في القلب من تلك القوات الذي كان معظمه من حاضرة نجد، وقد جعل أخاه محمداً على ميسرة الخيَّالة، وابنه سعوداً على ميمنتها[1]. ثم أمر بالهجوم. فسار المشاة أولاً، واندلع الرصاص من كلا الطرفين. وكانت بداية هجوم أنصار الملك عبد العزيز على ابن بجاد وأتباعه بالذات، فصدُّوهم. وفي أثناء ذلك أخذت فئة من أتباع الملك عبد العزيز تعود إلى أمكنتها في المخيم السعودي. فظن بعض الخصوم أن قوات الملك قد بدأت تنهزم، وتركوا مواقعهم الحصينة خلف المتاريس في أعلى الوادي، ونزلوا مسرعين ليتعقَّبوا من ظنوهم منهزمين. وكان مع الملك مفرزة مزوَّدة بعدد من الرشاشات، فأمر قائدها - بعد أن أصبح الخصوم هدفاً سهلاً لها - بإطلاق نيرانها مع نيران البنادق، وقُتِل أعداد منهم نتيجة لذلك، وارتبك الباقون[2]. ثم انقضَّت عليهم خيَّالته باندفاع كبير، وطوَّقتهم من أكثر الجهات. ولم تمرَّ نصف ساعة على بدء القتال إلا وقد بدأوا في الانهزام. وتعقَّبهم الخيَّالة قليلاً، ثم كفُّوا عنهم بأمر من الملك، الذي لم يرد قتل مزيد منهم وهم مدبرون[3]. وقد أصيب الدويش برصاصة في

---

(١) ابن ناصر، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ١٨٥.

(٢) المانع، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٤.

(٣) ابن ناصر، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ص ١٨٥-١٨٦.

خاصرته، فحمله أحد أتباعه على فرسه إلى الأرطاوية [1]. وتمكّن فرسان من عتيبة من تغطية انسحاب زعيمهم، ابن بجاد، فاتجه مع بعض أتباعه جنوبا [2]. وتفرقت فلول المنشقين من الإخوان؛ بعضهم اتجه إلى الأرطاوية التي لم تكن بعيدة عن ميدان المعركة، وبعضهم إلى أماكن أخرى. (انظر الخريطة رقم ٢٥). وبذلك انتهت معركة السبلة المشهورة. وكان عدد القتلى من قوات الملك عبد العزيز حوالى مئتين [3]. أما قتلى خصومه فكانوا يتراوحون بين أربع مئة وخمس مئة [4]. ومع أن هذا العدد لم يكن كبيرًا فإن الهالة التي كانت تحيط بالإخوان المعارضين للملك لم يعد لها ـ بعد تلك المعركة ـ ذلك البريق السابق.

---

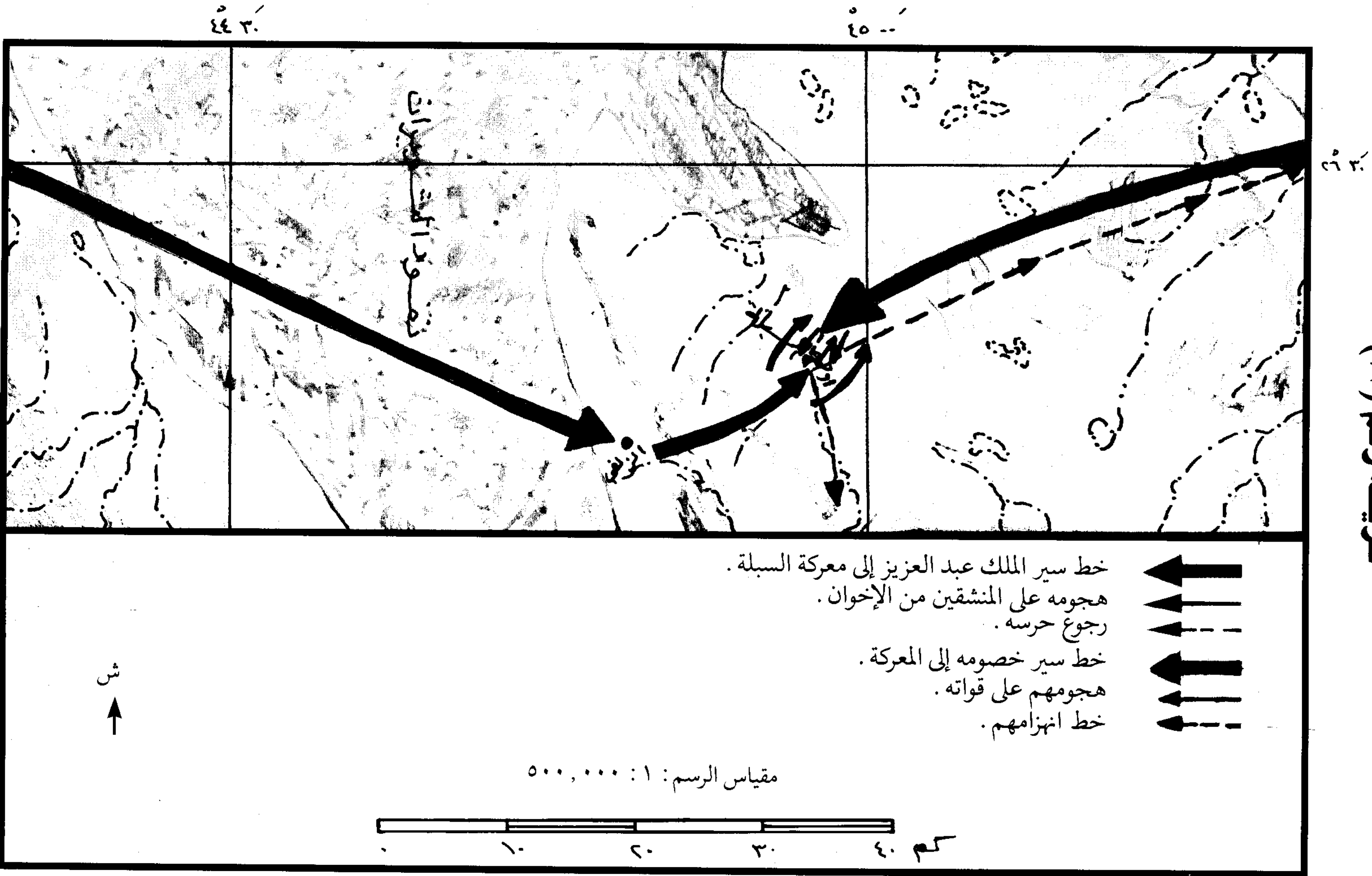
(١) الذكير، نسخة خاصة، ص ٢٢٣؛ جلوب، مصدر سبق ذكره، ص ٢٨٨.

(٢) المصدر الأخير نفسه، الصفحة ذاتها.

(٣) هكذا قدَّرهم المانع، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٦. وقدَّرهم ابن ناصر (مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ١٩٢) ثلاثين رجلا فقط ويبدو ذلك قليلا.

(٤) قدَّرهم ابن ناصر (المصدر الأخير نفسه، الصفحة ذاتها) بأربع مئة. وقدَّرهم المانع (مصدر سبق ذكره، ص ١٤٦) بخمس مئة. ولا تؤيِّد الروايات الراجحة ما ذكره ابن هذلول (مصدر سبق ذكره، ص ١٩٤) من أن معظم المنشقين من الإخوان قد أبيدوا.

خريطة رقم (٢٧)



خريطة رقم (٢٧)

بعـد انتصار الملـك عبد العـزيـز في معركـة السبلـة وفـد إليه نسـاء الدويش يشفعن لـه عنده [١]. ثم توجـه إلى الأرطاوية. ولما دنـا منها أُتـي إليه بذلك الزعيم محمولاً على نعش. فـوبَّخه على ما قام به، لكنه عفا عنه[٢]. وكـان هذا العفـو، فيما يبدو، أحـد أسباب قـدوم ابن بجـاد، مع عـدد من كبار قـومه، على الملك عبـد العـزيز آمـلاً أن يعامل معاملة الدويش[٣]. غير أن الملك رأى أن مـا ارتكبـوه كبير، فأرسلهم إلى سجن الرياض[٤]. ومضى بكثير من أتبـاعه إلى القصيم حيث قبض على وُعّـاظ حرَّضـوا المنشقين على التمرُّد[٥]. ثـم أذن لمن معـه من الإخـوان بـالعودة إلى أوطـانهم، وأمـر فئـات من الحاضرة أن يلتحقوا بالأمير عبدالعزيز بن مساعد، الذي كان حينذاك في الشُّعَيْبة، وتوجه هو إلى الحجاز لاقتراب موسم الحج[٦].

---

(١) وكان من عـادة القبائل إرسال نسـاء من ارتكب جريمـة كبيرة إلى من ارتكبت في حقه للشفاعة.

(٢) من أوفى المصـادر تفصيـلاً لتلك الحادثـة المانع، مصـدر سبق ذكـره، ص ص ١٤٧-١٥١؛ جلوب، مصدر سبق ذكره، ص ص ٢٨٨-٢٨٩.

(٣) يذكـر العبيِّد (مصدر سبق ذكـره، ص ٢٤٨) أن الدويش قد شجعـه على القدوم إلى الملك. وقد حذَّره أناس من قومه من ذلك القدوم، لكنه لم يعر تحذيرهم اهتماماً.

(٤) الـذكير، نسخـة خـاصـة، ص ٢٣٣؛ ابن نـاصر، مصـدر سبق ذكـره، ج ١، ص ١٩٢.

(٥) الذكير، نسخة خاصة، ص ٢٢٤.

(٦) المصدر نفسه، الصفحة ذاتها.

على أن مشكلة المنشقين من الإخوان لم تنته بانتصار الملك عبد العزيز في السبلة - رغم أهميَّة ذلك الانتصار - ولا بسجن من سجن من زعمائهم. بل تجددت تلك المشكلة، وأدَّت إلى حدوث عدة معارك مختلفة الأحجام والنتائج قبل أن يقضى عليها قضاء نهائيا. ومن تلك المعارك:

معركة عُوَينة كنهل:

كان ضيدان بن حثلين، أحد زعماء قبيلة العجمان، قد بعث إلى الملك عبدالعزيز - قبل معركة السبلة - رسالة يخبره فيها أنه متفق مع ابن بجاد والدويش على إزالة ما بُنِي على الحدود العراقية من مخافر، لكنه يتبرأ من أعمالهما ضد أبناء البلاد[1]. فكتب إليه الملك بعد تلك المعركة، خطاباً لم يفهم منه أنه راض عنه أو غاضب عليه. فاستنجد ضيدان بالأمير عبد الله بن جلوي لمساعدته كي يبعث إليه الملك ما يطمئنه، فطمأنه ذلك الأمير. وأخبره أن ابنه فهداً سيخرج بقوات تكون مستعدة لأي توجيه من الملك[2]. وخرج فهد بتلك القوات[3]؛ وبينها فئات من العجمان يتزعَّم بعضها نايف بن حثلين، الذي كان منافساً لضيدان حينذاك. ووصل بمن معه إلى عُوَينة كنهل القريبة من الصرَّار، مركز ضيدان وجماعته. فأرسل ضيدان إلى فهد يستفسر عما يريد من اقترابه إلى هجرته، فكتب إليه أنه لا يريد إلا الخير، وطلب منه القدوم. فاستشار كبار جماعته، واستقر رأيهم

---

(١) المصدر نفسه، ص ٢٢٨.

(٢) المصدر نفسه، الصفحة ذاتها. وفيها نص خطاب ابن جلوي إلى ضيدان.

(٣) من تلك القوات حوالي ٦٠٠ من الحاضرة؛ إضافة إلى فئات من قبائل آل مُرَّة وبني خالد وبني هاجر. المصدر نفسه، الصفحة ذاتها.

على أن يذهب إليه، ويتبعه أربع مئة رجل يكمنون قريباً من مكان فهد. فإن رجع إليهم زعيمهم، أو جاءهم رسول منه، قبل أربع ساعات من غروب الشمس وإلا فلهم أن يتخذوا ما يرونه من إجراء. على أن فهداً قيَّد ضيدان والرجال الخمسة الذين قدموا معه إليه. فلما سأله ضيدان عن السبب قال: إنه يريد أن يسلِّم إليه السلاح والخيل والجيش[1]. فتعهَّد ضيدان بتسليمها، لكنه قال لفهد: إن جماعته قد يهجمون عليه إن لم يأتهم خبر منه في الوقت المذكور، واستأذنه في الكتابة إليهم لئلا يقوموا بهجوم[2]. فأذن له، لكن رسالته لم تصل إليهم[3]. فحدث الهجوم، وقام حرس فهد، بأمر منه، بقتل ضيدان ومن معه. واشتد القتال، فانضم نايف بن حثلين إلى جماعة ضيدان[4]، وقُتِل فهد[5]، وهُزِمت قواته من الحاضرة خاصة[6]، واستولى المنتصرون على ما في مخيمه من خيل وجيش

---

(١) يُقْصد بالجيش الإبل المعدَّة للغزو. وكان الملك عبد العزيز قد أمر بخفر القبائل التي لم تنضم إليه في معركة السبلة؛ أي أخذ ما ذكر أعلاه منها.

(٢) كان ضيدان يجيد الكتابة لأنه درس في الرياض عندما كان صغيرا.

(٣) يعلِّل الذكير (المصدر نفسه، ص ٢٣٠) عدم وصولها بأن من استلمها من فهد لم يكن حريصاً على أن تصل. وذلك لأنه يكره ضيدان.

(٤) يعزو الذكير (المصدر نفسه، ص ٢٣١) انضمام نايف إلى رغبته في زعامة القبيلة بعد مقتل ضيدان. وهذا محتمل. لكن من المحتمل، أيضاً، أن شعوره بخطأ فهد على رجل من أسرته كان سبباً آخر.

(٥) قتله أحد العجمان الذين كانوا معه ثأراً، فيما يبدو، لقتل ضيدان. ابن ناصر، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ١٩٤؛ جلوب، مصدر سبق ذكره، ص ٢٩٤.

(٦) يقول الذكير (نسخة خاصة، ص ٢٣٢): إن كثيرًا من أصحاب الهجر والبادية كانوا بعيدين نسبيًا عن الميدان، ولم يشتركوا في صدِّ الهجوم. وأشار إلى عدم اشتراكهم، أيضاً، جلوب، مصدر سبق ذكره، ص ٢٩٤.

ومـؤن. وكان ذلك في التـاسع عشـر من ذي القعـدة عام ١٣٤٧هــ (٢٨/ ٤/ ١٩٢٩م)[١]. وتـوقَّع نايف بن حثلين ومن والاه من قبيلتـه أن الأميـر عبد الله بن جلـوي سيعاقبهم، فـاتجهوا شمـالاً حتى نزلـوا الوَفْراء[٢].

معركة أم رَضَمَـة:

كان لمعركـة عوينة كنهل أثر كبير في رفع معنـويات بقية المنشقين على الملك عبد العـزيز من الإخوان. فقـد انضم فرحـان بن مشهور، أحد زعماء قبيلة عنزة[٣]، إلى نايف بن حثلين، الذي وصلت إليه، أيضاً، فئات من مطيـر وغيرها[٤]. ونشطت فئـات من عتيبة بقيـادة مقعد الـدهينة. وشُفِي الدويش مـن جراحه، فتـوجه بأتباعـه شمالاً حتى اقترب من الوَفْراء[٥]. وعلم الملك عبـد العزيز بكل ذلـك وهو في الحجـاز. فطلب من بريطـانيـا أن تفي بتعهُّدهـا، فتلزم الأقطـار المجاورة، التـي لها نفـوذ عليها، بعدم مسـاعدة المنشقيـن عليه أو

---

(١) من أوفى المصادر عن تلك الحادثة وملابساتها مـا أورده الذكير، الذي كان قريباً في عمله الإداري من الأمير عبد الله بن جلوي.

(٢) الزركلي، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٨٩.

(٣) كان ابن مشهـور نشطا في إغـاراته على أتبـاع الملك عبد العـزيز شمـال البلاد قبل السبلـة. وقـد انتهى به الأمـر إلى اللجـوء إلى السلطـات البـريطانيـة في العـراق في ١٦/ ٧/ ١٣٤٨هـ. جلوب، مصدر سبق ذكره، ص ٣٢١.

(٤) الزركلي، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٨٩.

(٥) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٩١.

إيوائهم. فالتزمت بذلك[١]. ثم أمر زعماء القبائل؛ خاصة الموالين له من عتيبة، أن يقابلوه في الدوادمي وهو في طريقه إلى الرياض، ففعلوا. وقد أوضح لهم ما جرى في البلاد، وألزمهم بالتأهب[٢].

وفي أثناء ذلك قام الدويش بإغارات متفرقة على قبائل مؤيِّدة للملك عبدالعزيز. وتوجَّه ابنه عبد العزيز، ومعه فيصل بن شبلان، بحوالى ثماني مئة مقاتل للإغارة على قبائل في شمال البلاد؛ بينها فئات من شمَّر والظفير. فغنم منها مالاً كثيراً. وقرَّر العودة عن طريق أم رَضَمَة. لكن ابن شبلان خالفه الرأي،واتجه مع أكثر من مئة من أتباعه إلى الحدود العراقية، ثم إلى الأرطاوية[٣]. وكان الأمير عبد العزيز بن مساعد يراقب تحرك عبد العزيز الدويش. فجمع قوات ورصد له عند ذلك المورد. ووقعت شمال غربه معركة عنيفة بين الطرفين قُتِل فيها ابن الدويش وحوالى خمس مئة ممن كانوا معه، واثنا عشر رجلاً من أتباع ابن مساعد أشهرهم ندا بن نهيِّر، الذي كان له جهد كبير في تلك المعركة[٤]. وكان ذلك في ٥/ ٤/ ١٣٤٨هـ (٩/ ٩/ ١٩٢٩م). (انظر الخريطة رقم ٢٨).

---

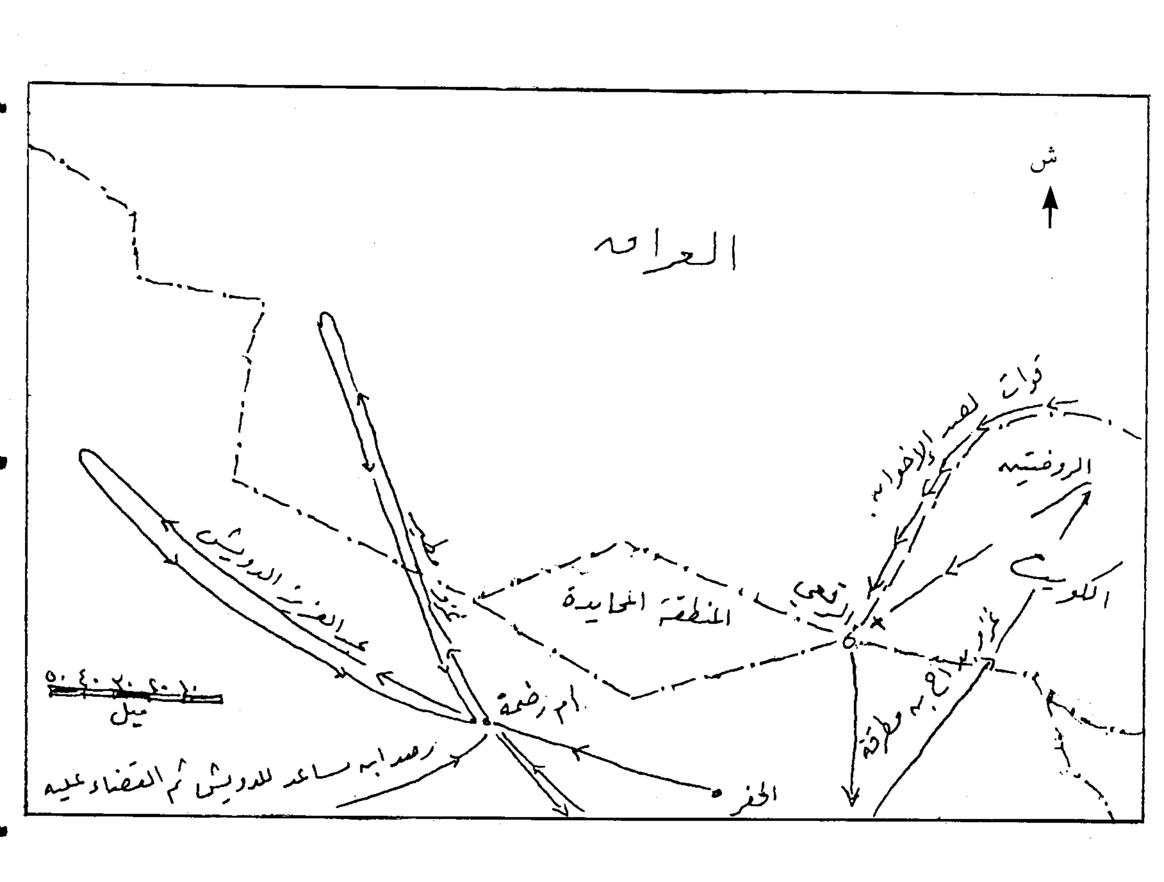
(١) حبيب، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٣.

(٢) عبد الحميد الخطيب، **الإمام العادل**، القاهرة، دون ذكر لسنة الطباعة، ج ١، ص ١٧٧. وكان ذلك في أول صفر سنة ١٣٤٨هـ.

(٣) المانع، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٠.

(٤) تختلف المصادر في تفصيلات تلك الحادثة. ولعل ما ذكر أعلاه أقربها إلى الواقع. ومن تلك المصادر ابن ناصر، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ص ١٩٦-١٩٨؛ المانع، مصدر سبق ذكره، ص ص ١٦٩-١٧١؛ جلوب، مصدر سبق ذكره، ص ص ٣٠٦-٣٠٧. وابن نهيِّر أحد زعماء قبيلة شمَّر.

خريطة رقم (٢٨)



تعريب لخريطة رسمها جلوب في كتابه حرب
في الصحراء عن معركة أم رضمة

كان مقعد الدهينة قد انضم بأتباعه إلى المنشقين على الملك عبد العزيز شمال شرقي البلاد. ثم طلبوا الأمان منه، فمنحهم إيَّاه. لكنهم لما عادوا إلى عالية نجد أخذوا يروِّجون بأن ملك العراق قد وعدهم بإرسال جيش لمناصرتهم، وتسيير أخيه علي بجيش إلى الحجاز إذا رأى منهم نشاطاً في الداخل[1]. وامتنعوا عن أداء الزكاة. بل صادروا ما أدَّته القبائل لعُمَّال الملك عبد العزيز منها، واعتدوا على القوافل[2]. فوجَّه إليهم الملك عبد العزيز قوات بقيادة عمر بن ربيعان. ثم أمدَّ عمر بسريَّة من الرياض يقودها ابن أخيه، الأمير خالد بن محمد بن عبد الرحمن، وأمر ابنه فيصلاً فأرسل نجدة بقيادة خالد بن لؤي وأخرى بقيادة محمد بن سحمي القحطاني. وطاردت القوات التي مع الأمير خالد بن محمد وابن ربيعان الدهينة ومن معه قرب جَبَلة في عالية نجد حتى طلب بعضهم الأمان، فمنحوا إيَّاه. ثم هجم ابن لؤي على بعض الذين هربوا منهم، فقُتِل حوالى مئتين، وهجم هو وابن سحمي على الدهينة ومن بقوا معه، فقتلوا حوالي سبعين رجلاً منهم[3]. أما الدهينة نفسه فتمكَّن من الهروب حتى وصل إلى العراق[4].

(١) الذكير، نسخة خاصة، ص ٢٣٣.

(٢) الزركلي، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٩٣.

(٣) الذكير، نسخة خاصة، ص ص ٢٣٣-٢٣٤. وكان ذلك في العشرين من ربيع الثاني عام ١٣٤٨هـ (٢٤/٩/١٩٢٩م). وقد جُرِح الدهينة خلال المعركة.

(٤) الزركلي، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٩٤. وقد عاد إلى البلاد بعد استقرار الأمن فيها.

نهاية تمرُّد المنشقين:

في مستهل جمادى الأولى من عام ١٣٤٨هـ ترأس الملك عبد العزيز مؤتمراً في الشَّعْراء، وتقرر فيه عقاب من بقي من المنشقين قرب حدود البلاد الشمالية الشرقية. فاجتمعت قوات كبيرة من أتباعه في الشَّوكي قبل نهاية الشهر التالي. وعلم الدويش بذلك فطلب منه الأمان. وأجابه الملك بأنه يدرك أن طلبه ناتج عن انسداد الأبواب في وجهه، وأنه مع هذا يعده بالأمان. فردَّ الدويش عليه بأن حكومات الدول المجاورة تخطب ودَّه، لكنه يكره الدخول في ولايتها. فلم يجبه الملك اكتفاء بجوابه الأول[١]. فكتب الدويش إلى ملك العراق يطلب كفَّ قبائله عنه ليتفرَّغ لحرب ابن سعود، كما كتب إلى جلوب، المفتش الإداري لذلك القطر، يرجوه أن يقبله واحداً من رعاياه، لكنه لم يحصل على ما أراد[٢].

وعندما رأى أتباع الدويش أنه لن يسمح لهم بدخول الأراضي الكويتية والعراقية، وأن الملك عبد العزيز متوجه إليهم بقوات كبيرة، بدأوا ينفضُّون من حول ذلك الزعيم، ويعودون إلى الملك طالبين عفوه[٣]. وفي الثامن والعشرين من رجب قام عبد المحسن الفِرْم،

---

(١) المصدر نفسه، ج ٢، ص ص ٤٩٥-٥٠١.
(٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ص ٥٠٢-٥٠٣.
(٣) وقد نال أولئك ما أرادوا.

بالتعاون مع مشعل بن طُوَالة وعجمي بن سُوَيط اللذين كانا حينذاك في بادية العراق، بهجوم مباغت على الدويش، فاستولوا على كثير مما لديه من إبل وخيام وأثاث [١]. وفي أثناء ذلك كان الملك عبد العزيز قد وصل بقواته إلى الجهات الشمالية الشرقية من بلاده، وشنَّ هجمات موفَّقة على المنشقين عليه. وأمام تلك الأوضاع اضطر الدويش آخر الأمر إلى الذهاب إلى الجَهْراء حيث استسلم، هو وجاسر بن لامي ونايف بن حثلين [٢]، للسلطات البريطانية في الكويت، ونُقِلوا إلى سفينة في شطِّ العرب [٣]. (انظر الخريطة رقم ٢٩).

وبعد ذلك أقام الملك عبد العزيز في خباري وضحا حيث تفاوض مع بريطانيا بشأن تسليم الدويش ورفيقيه، وتقرر أن يُسلَّموا إليه على ألاَّ يقتلهم، وأن تطارد القوات البريطانية فلول المنشقين عليه الموجودين على حدود العراق ليعودوا إلى نجد، ويُسَلَّم ما نهبه الدويش وأعوانه من أهل الكويت والعراق [٤]. وفي الثامن والعشرين من شعبان سنة

---

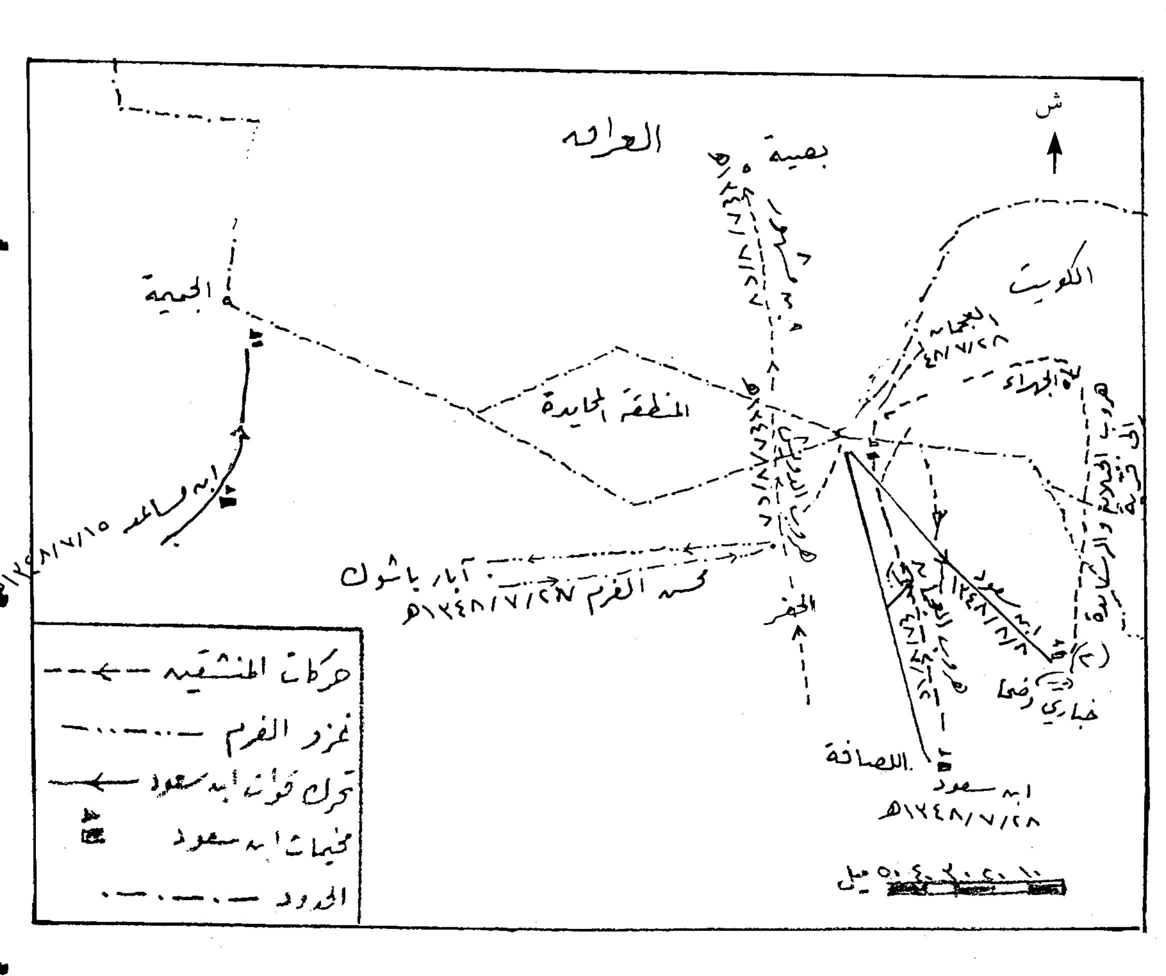
(١) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥٠٢؛ جلوب، مصدر سبق ذكره، ص ص ٣٢٢-٣٢٣.

(٢) كان استسلام نايف في ٨/ ٨/ ١٣٤٨هـ، واستسلام الدويش وابن لامي في اليوم التالي، المصدر الأخير نفسه، ص ٢٤١.

(٣) المصدر نفسه، الصفحة ذاتها.

(٤) الزركلي، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ص ٥٠٦-٥٠٧. على أن الملك اشترط لتسليم ما نهبه أولئك ألاَّ يُسْمَح للمنشقين عليه الذين لجأوا إلى السلطات البريطانية في العراق والكويت أن يبقوا، أو تبقى أموالهم، في هذين القطرين. حبيب، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٠.

خريطة رقم (٢٩)



الحركات العسكرية للملك عبد العزيز وخصومه من الإخوان
شهري رجب وشعبان سنة ١٣٤٨هـ (١٢/ ١٩٢٩ و١/ ١٩٣٠م).

١٣٤٨هـ (٢٨/ ١/ ١٩٣٠م) أُحضِـــر أولئك الزعماء الثلاثـة في طائرة بريطانية إلى الملك عبد العزيز، ثم نُقِلوا إلى سجن الرياض[١].

وكـان ذلـك نهايـة تمرُّد المنشقين من الإخـوان، الـــذي كلَّف الشيء الكثير. وبنهايته عادت رايات الأمن تخفق من جديد.

يمكن للمتأمل فيما حـدث من مشكـلات بين الملك عبـد العـزيـز والمنشقين عليه مـن الإخوان، وكيفية تعـامله مع تلك المشكـلات، ثم انتصاره على أولئك المنشقين، أن يخرج بدروس متعددة منها:

١ - أهميَّة قدرة القـائد على إيضاح هدفه لأتباعه، وأثـر وضوح هذا الهدف في رفع معنوياتهم، وجعلهم أكثر صـلابة في مواجهة الخصوم. ومن ذلك أن الملك عبد العـزيز تمكَّن من أن يوضح لأتباعـه موقفه من الـزعماء المنشقين عليـه حتى تبيَّن أولئك الأتبـــاع أبعـاد ذلك الموقف، وصمَّموا على السير تحت لوائه أينما وجَّههم.

٢ - أهميَّـة تبادل القـائد الرأي مع ذوي المشـورة من أتبـاعه في مـدِّه بـالآراء السديـدة، وإحسـاسهم بعمـــق مسؤوليتهم، وانـدفـاعهم في العمـــل لقضيتـــه التي أشعرهـــم بـأنها قضيتهم. ومن ذلك أن الملك عبد العزيز كان يدعو زعماء أولئك الأتباع إلى مؤتمر عام لمناقشة المسائل

---

(١) جلـوب، مصـــدر سبق ذكـره، ص ٣٤١؛ الـزركلي، مصـدر سبـق ذكـره، ج ٢، ص ٥٠٧.

المهمَّة كلما دعت الحاجة، كما حدث عندما دعا إلى مؤتمر في الرياض عام ١٣٤٥هـ، ثم إلى مؤتمر آخر سنة ١٣٤٧هـ قبيل معركة السبلة، ثم إلى مؤتمر الشَّعْراء سنة ١٣٤٨هـ. وكانت نتيجة كل مؤتمر من هذه المؤتمرات كسباً شعبياً له مما زاده قوة، ومهَّد لانتصاره.

٣ - أهميَّة اتخاذ القائد الاحتياطات اللازمة في أية خطوة عسكرية يحاول القيام بها لأن ذلك عامل من العوامل المهمَّة لتحقيق الانتصار. ومن ذلك أن الملك عبد العزيز لم يقدم على مناجزة المنشقين عليه عسكرياً إلا بعد أن حصل على تعهُّد بريطانيا بعدم إيواء من يفرُّون منهم إلى الأقطار التي لها هيمنة عليها.

٤ - أهميَّة قدرة القائد على الاستفادة من أخطاء خصومه. وتجلَّت تلك القدرة في توظيف الملك عبد العزيز أخطاء ابن بجاد ومن معه في اعتداءاتهم على قوافل تجارية تابعة له لإثارة حماس أتباعه ضد خصومه.

٥ - أهميَّة حذر القائد من خصومه، وعدم الاستهانة بقوتهم. ويتبيَّن هذا وذاك بما قام به الملك عبد العزيز من حشد أكبر عدد ممكن من القوات قبيل معركة السبلة بحيث أصبح متيقنًا بأن عدد قوات خصومه لا يصل إلى نصف عدد قواته، وما قام به من وضع حرس يقظ بين مخيمه ومخيم أولئك الخصوم ليلة اليوم الذي دارت فيه المعركة بينهما.

٦ - أهميَّة وحدة القيادة في تحقيق النصر. ويتضح ذلك في كون أتباع الملك عبد العزيز متوحِّدين تحت قيادته؛ رأياً وعملا. لكن خصومه لم

يكونوا موحَّدي الآراء، كما عكس ذلك خلاف ابن حثلين مع الدويش وابن بجـاد بشأن مهاجمة من في داخل البـلاد، وخلاف ابن بجـاد مع عبد العزيز الدويش خلال وجود أبي هذا الأخير عند الملك عبد العزيز للمفاوضة.

٧ - أهميَّة حسن السياسة في معـالجة المواقف الخطرة. ويتبيَّـن ذلك من الخطأ الذي وقع فيـه الأمير فهد بن جلوي تجاه ابن حثلين ممـا ترتَّب عليه كارثة كان يمكن تجنبها لولا ذلك الخطأ.

٨ - خطـورة عدم المبـالاة بقوة الخصم. ومن ذلك أن ابن الـدويش توجـه إلى أم رَضَمَة مع أنـه كان هنـاك احتمال كبير بأن خصومـه - ابن مساعد ومن معـه - سيرصدون له فيها. وكان هذا مـا حدث؛ إذ كانوا قد احتلُّـوا آبارهـا. ولما أقبل إليها والظمأ قد أخـذ منه ومن أتبـاعه كل مأخذ أصبح هدفاً سهلاً لأولئك الخصـوم، فقُتِل ولم ينج ممن كانوا معه إلا القليل القليل.

الفصل الخامس عشر

المعارك مع اليمن

سنتي ١٣٥٢ - ١٣٥٣هـ/١٩٣٤م

توتُّر العلاقات:

دخلت منطقة عسير تحت حكم الملك عبد العزيز سنة ١٣٣٨هـ، فأصبحت بلاده مجاورة لليمن. وفي تلك السنة عقد معه حاكم جازان، الإمام محمد الإدريسي، معاهدة حسن جوار. ولما توفي هذا الحاكم بعد ذلك بثلاث سنوات خلفه ابنه علي، الذي كان صغير السن. فاستغلَّ إمام اليمن، يحيى حميد الدين، فرصة ضعفه، وانتزع منه الحُديدة وبلداناً شمالها وشرقها [١]. فأزاح كبار جازان علياً، وولَّوا عمه الحسن بدلاً منه. وعقد الحسن مع الملك عبدالعزيز اتفاقية في مكة، عام ١٣٤٥هـ، تقضي بحمايته من أي اعتداء [٢]. فبعث الملك صورة من الاتفاقية إلى الإمام يحيى؛ آملاً أن يأمر أتباعه بعدم الاعتداء على بلاد الأدارسة [٣]. فردَّ عليه الإمام بأنهم قد اغتصبوا قطعة من بلاد اليمن. ودارت مفاوضات بين وفود الملك عبد العزيز والإمام يحيى، لكنها لم تصل إلى نتيجة [٤].

---

(١) كانت بريطانيا قد سهَّلت لمحمد بن علي الإدريسي الاستيلاء على الحُدَيْدة بعد الحرب العالمية الأولى. ثم وضع الحسن الإدريسي بلاده في عهدة الملك عبد العزيز سنة ١٣٤٩هـ. الزركلي، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٣٦.

(٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥٣٥.

(٣) العقيلي، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٩١٧.

(٤) دارت المفاوضات مرتين في صنعاء، ومرة في مكة.

وفي عام ١٣٥٠هـ استولت قوات الإمام يحيى على جبل العُرّ[١]، التابع للأدارسة. فاقترح الملك عبد العزيز أن يناقش الموضوع وفدان من الطرفين السعودي واليمني. واجتمع الوفدان قرب ذلك الجبل، لكنهما لم يتوصلا إلى اتفاق بشأنه. فحكَّم الإمام الملك في القضية. وأكد الملك عدم حق اليمن في الجبل، لكنه تنازل عنه للإمام إكراماً له، ورغبة في السلم بين بلديهما[٢]. على أن أواخر ذلك العام شهدت تمرُّداً ضد الملك عبد العزيز قام به حامد بن رفادة في شمال البلاد والحسن الإدريسي في جنوبها. فقضي على الأول في بداية العام التالي، وهُزِم الثاني، ففرَّ بأسرته إلى اليمن. وطلب الإمام يحيى من الملك عبد العزيز أن يبقى الأدارسة لديه، فوافق على ذلك، وخصص لهم مرتبات كافية، على أن يضمن الإمام عدم قيامهم بأي نشاط ضده[٣]. لكن نشاطهم العدائي استمر، فكان سبباً لطلب الملك من الإمام أن يجتمع وفدان منهما لتثبيت الحدود وإيضاح صلات أمرائها وصلاحياتهم. فوافق الإمام، وتوجه وفد سعودي إلى صنعاء. لكن الوفد فوجيء عند دخوله الأراضي اليمنية برفع الأعلام ابتهاجاً بالاستيلاء على نجران[٤]. وأقام الوفد السعودي

---

(١) هكذا رسمه العقيلي؛ وهو محقق لمواضع تلك الجهات. وفي بعض الكتب ورد رسمه «عرو».

(٢) الذكير، نسخة بغداد، ص ٣٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ص ١٩-٢٠؛ ابن هذلول، مصدر سبق ذكره، ص ٢١٦.

(٤) الذكير، نسخة بغداد، ص ٤٢.

هنـاك خمسين يومـاً دون أن يُعَيَّـن وفـد لمفـاوضته. ثم تـمَّت تلك المفاوضـة ولم تصل إلى اتفاق[١]. ونتيجة لتقارير الـوفود السعودية المتكـررة إلى اليمن المـوضحـة عـدم جـديـة الإمـام في الاتفـاق، ومساندته لمن كانـوا في بلاده من المتمردين على الحكم السعودي، واستيـلائه على نجران، اقتنع الملك عبـد العـزيز أن الإمـام لا يريـد السلم. فأمـر بعض القوات السعـوديـة أن تتوجـه إلى جنوبي البـلاد استعداداً للطوارئ[٢]. ولما سأله الإمام عن ذلك أجابه أن أعماله وما تنشـره صحفـه الـرسميـة تثيـران الشـك، ودعـاه إلى تثبيت الحـدود بمعاهـدة، وإعادة الأدارسـة، وحلِّ قضية نجـران. فتعهَّد الإمـام بأن ينتقل الأدارسة إلى أمـاكن بعيدة عن الحدود، واقترح عقـد معاهدة، لمدة عشـرين سنة، يثبت فيها كلٌّ مـن الطرفين على ما في يـده فعلاً من الأراضي. فـوافـق الملك على ذلك[٣]. لكن أعـدادًا من قـوات الإمـام بـدأت تتسلَّل إلى بعض جهـات جـازان كجبـل فَيْفـاء وبني مالك. فأبـرق الملك إليه مستنكـراً ومحذِّراً. وتأخَّر رد الإمـام، فأمر الملك قواته المرابطة في بيشة أن تسير إلى تهامة، وأمر ابنه سعوداً أن يتوجه مع قـوة بالسيارات إلى أبها، كما أمـر ابنه فيصلاً أن ينطلق من الحجاز عبر السـاحل جنوبا[٤]. وعندئذ أبـرق الإمام إليه قـائلاً: إنه كتب إلى ابنـه أن يمتنع عن أيـة حـركـة، ويأمل أن يفعل الملك مثل

---

(١) العقيلي، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ص ١٠٤٥-١٠٥٦.

(٢) الذكير، نسخة بغداد، ص ٤٨.

(٣) العقيلي، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ١٠٧٥.

(٤) الذكير، نسخة بغداد، ص ٥٤.

ذلك، وأن يُعيِّن مكاناً لاجتماع مندوبيهما لعمل الاتفاقية التي سبقت الموافقة على عملها. فردَّ عليه الملك بأنه فاعل ما أمله بالنسبة للقوات، وأنه يرحِّب بوفد منه، واقترح أن يكون الاجتماع في أبها حيث يوجد ولي العهد، الأمير سعود (١).

وفي مستهل ذي القعدة، سنة ١٣٥٢هـ، وصل الوفد اليمني إلى أبها. لكن المفاوضات تعثَّرت لعدم حرص هذا الوفد على حلِّ المشكلات، وإصراره على عدم مناقشة قضية نجران؛ مدَّعياً أنها تابعة لبلاده. وقد فنَّد الوفد السعودي ذلك الادِّعاء بأدلة تاريخية واضحة (٢). وتبادل الملك مع الإمام يحيى برقيات عدة، موضحاً أنه لا بد من انسحاب القوات اليمنية عما استولت عليه في الجبال التابعة لجازان، وتحديد الحدود بمعاهدة، وإبعاد الأدارسة إلى المحلِّ الذي تعهَّد بإبعادهم إليه داخل اليمن، وإيجاد حلٍّ لقضية نجران (٣). فردَّ عليه الإمام بالموافقة على المسائل الثلاث الأولى، لكنه أصرَّ على تبعية نجران له. وبذلك أوصدت أبواب الحلِّ السلمي، ولم يبق أمام الملك عبد العزيز إلا استعمال القوة.

---

(١) المصدر الأخير نفسه، ص ٥٥؛ العقيلي، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ١٠٩١.

(٢) الذكير، نسخة بغداد، ص ص ٥٦-٥٩؛ العقيلي، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ص ١٠٩٨-١٠٩٩. ومن تلك الأدلة أن أهل نجران قد استقلُّوا بأنفسهم بعد ضعف الدولة العباسية، ثم تبعوا آل سعود مختارين - كما توضحه رسالتا الإمام سعود بن عبد العزيز في الدولة السعودية الأولى والإمام فيصل بن تركي في الدولة السعودية الثانية، وأصبحوا يدفعون الزكاة للملك عبد العزيز منذ أن دخلت تحت حكمه منطقة عسير.

(٣) المصدر الأخير نفسه، ج ٢، ص ١١٠٢.

سير المعارك:

أمر الملك عبد العزيز قواته أن تتحرك لاستعادة ما استولت عليه قوات الإمام يحيى من الأراضي. وذلك في السادس من ذي الحجة سنة ١٣٥٢هـ (٢١/ ٣/ ١٩٣٤م) [١]. وقد سارت المعارك بين الطرفين في جبهتين: شرقية تشتمل على حدود عسير الجبلية ونجران، وغربية منطلقة من إقليم جازان.

الجبهة الشرقية:

قسَّم الأمير سعود بن عبد العزيز القائد العام لهذه الجبهة جيشه إلى أربعة أقسام:

الأول: بقيادة الأمير فيصل بن سعد بن عبد الرحمن، ووجهته باقم.

الثاني: بقيادة الأمير خالد بن محمد بن عبد الرحمن، ويتقدم بين نجران يساراً وباقم يمينًا ليصل إلى حدود صَعْدة.

الثالث: بقيادته هو، ويتقدم في الجهات الواقعة شرق المنطقة التي يسير فيها القسم الأول ليكون رديفاً له؛ إضافة إلى التوجيه العام للجبهة.

الرابع: بقيادة مذكر القحطاني وابن سعيِّد، ووجهته نجران[٢].

---

(١) الذكير، نسخة بغداد، ص ٦٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ٦٦.

وقد عانت الأقسام الثلاثة الأولى مصاعب جمَّة في زحفها لوعورة المناطق التي كان لا بد من المرور بها، واحتماء القوات اليمنية بمرتفعاتها وحصونها. لكنها رغم ذلك حقَّقت الكثير من أهدافها [١]. أما القسم الرابع فانتزع بعض جهات إقليم نجران، بمعونة أهلها، من القوات اليمنية الموجودة فيه. ثم أرسل الأمير سعود قوة استولت على عقبة تصل الإقليم باليمن. فلما رأت القوات اليمنية حرج موقفها حاولت الانسحاب، فتعقَّبتها القوات السعودية محاولة إخراجها من الإقليم[٢].

الجبهة الغربية:

كان القائد العام لهذه الجبهة في البداية حمد الشويعر نيابة عن الأمير فيصل بن عبد العزيز[٣]. وكان مركز تجمُّع القوات السعودية في صامطة. فسار منها متجهاً إلى بلدة حَرَض المهمَّة استراتيجيا. وبعث خيَّالة ومشاة محمولة بالسيارات لتقطع الطريق بينها وبين الجبال الواقعة شرقها. وواصل سيره ببقية القوات حتى استولى على تلك البلدة، وحاصر القوة النظامية اليمنية في قلعتها اثني عشر يوما. وفي ليلة الأول من المحرم، سنة ١٣٥٣هـ، انسحبت القوة من القلعة، فاستولى عليها وعلى ما فيها من أسلحة ومعدات. وبعد أن

(١) المصدر نفسه، ص ٦٨؛ العقيلي، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ١١١٤.
(٢) الذكير، نسخة بغداد، ص ص ٦٨-٦٩.
(٣) المصدر نفسه، ص ٦٦.

رتَّب أمور البلدة بعث سرايا إلى القبائل القريبة منها، فأعلنت الطاعة [١]. ثم زحف صوب بلدة مَيْدي الساحلية، فاستولى على القرى القريبة منها وحاصرها حتى وصل الأمير فيصل بالسيارات في الحادي عشر من المحرَّم، وتولَّى القيادة العامة [٢].

وما إن وصل الأمير فيصل بن عبد العزيز إلى مَيْدي حتى انسحب منها جند الإمام يحيى النظاميون. فبعث بعض كبار أهلها إلى الأمير يخبرونه بانسحاب أولئك الجند، ويطلبون منه إرسال من يستلم البلدة ويؤمِّن سكانها. ففعل ذلك، ودخلها في اليوم التالي [٣]. ثم أرسل قوة محمولة بالسيارات لمطاردة المنسحبين، فأدركتهم، وقبضت على قائدهم، عبد الله العَرْشي، فأتت به إلى الأمير، فأكرمه، وأرسله إلى مكة [٤].

وبعد دخول الأمير فيصل بلدة مَيْدي قدم إليه كثير من مشائخ تهامة يطلبون الأمان مقابل دخولهم في طاعته، كما طلب منه أهل اللُّحيَّة وقبائل وادي مور التقدم إليهم، فأجاب طلبهم [٥]. وكانت قوات

---

(١) المصدر نفسه، الصفحة ذاتها؛ العقيلي، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ص ١١٣٠-١١٣١. من تلك السرايا سرية بقيادة حسن بن دغيشر إلى جنوب حرض، وسرية بقيادة إبراهيم النشمي إلى العارضة، وسرية بقيادة ابن مشيقح ضد عبد الوهاب الإدريسي ومن معه من اليمنيين في جبال بني جابر وبني سفيان.

(٢) الذكير، نسخة بغداد، ص ٦٧.

(٣) العقيلي، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ١١٣٤.

(٤) الذكير، نسخة بغداد، ص ٦٧.

(٥) المصدر نفسه، الصفحة ذاتها.

الإمام يحيى تنسحب بسرعة من بلدان تهامة، ومن جملتها الحديدة، التي كان فيها أحد أبناء ذلك الإمام. فبقيت هذه المدينة المهمَّة دون سلطة تدبِّر شؤونها. فسارعت القوات السعودية إليها، وتمكَّنت من دخولها في الحادي والعشرين من المحرم دون مقاومة[١]. وفي اليوم التالي وصل إليها الأمير فيصل، فاستقبله أهلها معلنين طاعتهم. وقد حاول الإيطاليون، الذين كانوا على ظهر سفينتهم في مينائها، النزول إليها بحجة المحافظة على رعاياهم. فحذَّرهم الأمير فيصل من ذلك، وغادروا الميناء[٢]. ثم بعث قوات إلى جهات مختلفة من البلدان اليمنية القريبة من تلك البلدة؛ مثل بيت الفقيه، وبلاد الزرانيق، فدخلت في طاعته[٣]. (انظر الخريطة رقم ٣٠). وهكذا حققت القوات السعودية في الجبهة الغربية من الحرب مع اليمن نجاحاً باهراً، كما حقَّقت القوات في الجبهة الشرقية نجاحاً لا بأس به من فوائده إشغال القوات اليمنية عن الجبهة الغربية من تلك الحرب.

الصلح بين البلدين ومعاهدة الطائف:

تألَّم كثير من العرب المخلصين للحرب بين البلدين الشقيقين. فقدم وفد من كبار الشخصيات العربية إلى الملك عبد العزيز في

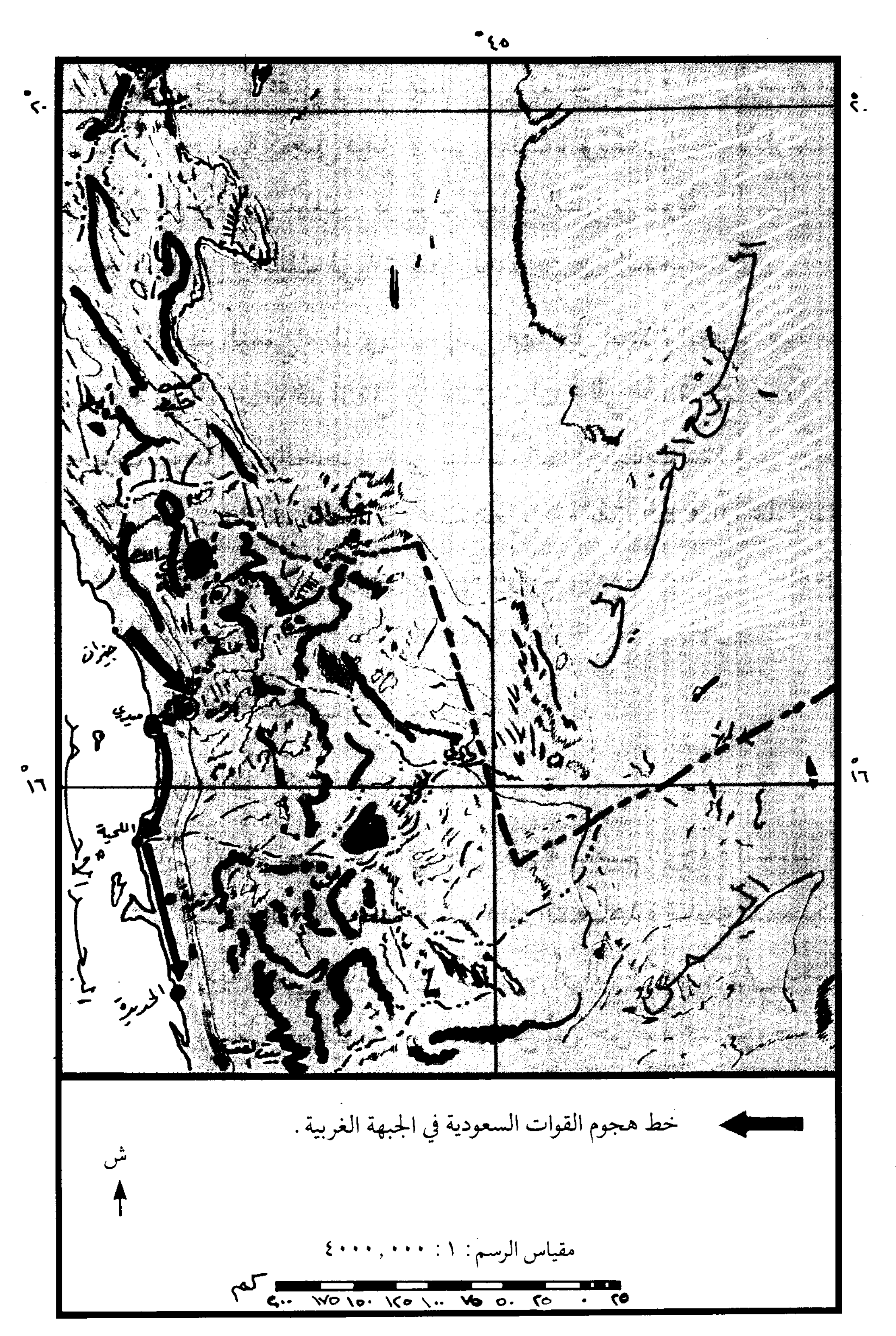
---

(١) المصدر نفسه، الصفحة ذاتها؛ العقيلي، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ص ١١٣٧-١١٣٨.

(٢) الذكير، نسخة بغداد، ص ٦٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ٦٨؛ العقيلي، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ص ١١٣٨-١١٣٩.

خريطة رقم (٣٠)



٤٥°
٢٠°
١٦°
جيزان
ميدي
اللحية
الحديدة
خط هجوم القوات السعودية في الجبهة الغربية.
ش
مقياس الرسم : ١ : ٤٠٠٠,٠٠٠
كم

الحجاز في الرابع من المحرَّم، عـام ١٣٥٣هـ، وعرضوا عليه الصلح مع الإمـام يحيى، فقبل وساطتهـم على أن تنسحب قوات الإمـام من المنـاطق الجبليـة كجبل فيفاء وبنـي مالك، ويُسَلَّم إليـه الأدارسـة. وقبل الإمـام يحيى بـذلك. فأُمِرت قـوات الطرفين بـوقف القتـال في جميع الميادين؛ وذلك في التاسع والعشرين من المحرَّم.

وكان الـوفد اليمني، الذي قدم إلـى أبها قبل اندلاع الحرب بـرئاسة عبـد الله بن الوزيـر، قد انتقل من تلك البلـدة إلى جدة لنشـوب تلك الحـرب. وظل في الحجاز حتى بـدأت المفاوضـات بينه وبين وفـد سعودي برئاسـة الأمير خالد بن عبـدالعزيز. واتفق الطرفـان على بنود معاهدة صداقـة إسلامية وأُخُوَّة عربية عُرِفت بـاسم معاهدة الطائف. ومن تلك البنود:

١ - إنهاء حالة الحرب بين البلدين.

٢ - اعتراف كلٍّ منهما باستقلال الآخر وملكه.

٣ - تنازل الإمام يحيى عن أي حق يدَّعيه بـاسم الوحدة اليمانية أو غيـرها من البـلاد التي هي بموجـب هذه المعـاهدة تـابعة للمملكـة العربية السعودية والتي كـانت بيد الأدارسة أو آل عائض، وفي نجران وبلاد يـام، وتنازل الملك عبـدالعزيز عن أي حق يـدَّعيه من حمـاية واحتلال أو غيرهمـا في البلاد التي هي بموجب هذه المعاهـدة تابعة لليمن من البلاد التي كانت بيد الأدارسة أو غيرها [1].

---

(١) من هذه البلاد الحديدة وجزء من تهامة أصبح تابعًا لإمام اليمن.

٤ - تُعَدُّ الحدود الموضحة في المعاهدة حدوداً فاصلة بين البلدين[١].

وقد وقَّع على المعاهدة رئيسا الوفدين السعودي واليمني، ثم وقَّع عليها الملك عبد العزيز، وسافر بها من جدة وفد المصالحة العربية ومعه الوفد اليمني ووفد سعودي ليوقِّع عليها الإمام يحيى؛ تمهيدًا لتبادل نسختيها، فجرى ذلك[٢]. وانسحبت قوات كلٍّ من الطرفين إلى الأراضي التي حدَّدتها المعاهدة له. وحلَّ السلم بينهما[٣].

الدروس المستفادة:

١ - أهميَّة حكمة القائد في محاولة حلِّ المشكلات بطرق سلمية ما أمكن تفادياً لخسائر لابد منها نتيجة الحرب. وقد ظهرت تلك الحكمة في مواقف الملك عبد العزيز تجاه إمام اليمن إلى درجة أنه تنازل له عن جبل كان متأكداً أنه غير تابع لذلك الإمام، وصبر على

---

(١) الذكير، نسخة بغداد، ص ص ٧٠-٧٦؛ العقيلي، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ص ١١٤٢-١١٥١. وفيها المعاهدة كاملة البنود.

(٢) وقَّع المعاهدة رئيسا الوفدين في ٦/ ٢/ ١٣٥٣هـ (٢٠/ ٥/ ١٩٣٤م)، ووقَّعها الملك عبد العزيز في الخامس والعشرين من ذلك الشهر، ووقعها الإمام يحيى في السادس من الشهر التالي. وتبادل النسختين الأمير فيصل بن عبد العزيز وعبد الله بن الوزير في العاشر من هذا الشهر. الذكير، نسخة بغداد، ص ٧٩.

(٣) من أوفى الدراسات عن موضوع هذا الفصل رسالة ماجستير كتبها مشاري بن سعود، **علاقات المملكة العربية السعودية بالمملكة المتوكلية اليمنية في عهد الملك عبد العزيز**، قسم التاريخ، جامعة الملك سعود، ١٤٠٤هـ.

مماطلته في استقبال وفوده إليه، كما صبر على عدم جدِّية الوفود اليمنية في العمل للتوصل إلى حلول سلمية للمشكلات المطروحة للمفاوضة.

٢ - أهميَّة التخطيط السليم للمعارك التي يراد خوضها. وقد اتضح ذلك في توجيه الملك عبد العزيز قواته إلى جنوب البلاد استعداداً لأي طارئ، وجعلها جبهتين لتفريق قوى الخصم.

٣ - أهميَّة الاستعداد وحشد ما أمكن من قوات. وقد ظهر ذلك في تجهيز الملك عبد العزيز قواته على الجبهتين بما يناسب أرض المعركة من رجال، وأسلحة، وعتاد.

٤ - أهميَّة حنكة القائد بحيث لا تغريه نشوة النصر عن اتخاذ القرار الصائب، الذي يمهِّد الطريق لحلول تعايش سلمي مستقبلي. وقد ظهرت تلك الحنكة في قبول الملك عبد العزيز الوساطة العربية بينه وبين الإمام يحيى في وقت كان قادراً على الاحتفاظ بما استولى عليه من أراضي ذلك الإمام؛ بل الاستيلاء على مزيد من تلك الأراضي. وقد رضي بتلك الوساطة إدراكاً منه بأن الحلول السلمية بين البلدين الشقيقين هي التي يمكن أن تستمر وتحقِّق لهما نفعاً مشتركا.

الفصل السادس عشر

الأمن والجيش
في عهد الملك عبد العزيز
وصفاته القيادية

سبقت الإشارة إلى نشأة الملك عبد العزيز وبداية حياته إلى أن استقر به المقام مع أبيه وأسرته في الكويت عام ١٣١٠هـ[١]. وبعد تسع سنين من ذلك العام بدأ خطوته الأولى الناجحة في مسيرته لتوحيد أجزاء البلاد المختلفة. ولم تكن هذه المسيرة قصيرة زمناً ولا يسيرة طريقا. ذلك أنها استغرقت ربع قرن من الكفاح الشاق في معظم الأحيان، كما اقتضى تثبيت نتيجتها التوحيدية ثماني سنوات أخرى.

وكان عند بداية تنفيذ هدفه الطموح ضعيف الإمكانات مادياً بدرجة كبيرة. وهذا ما دفع بعض من لم يطَّلعوا على تاريخ البلاد اطِّلاعاً كافياً إلى القول بأنه بدأ من فراغ. غير أن المتأمل في هذا التاريخ يرى أنه، منذ بداية سعيه التوحيدي، كان من أبرز رفاق دربه تاريخ حكم تمتد جذوره إلى ما يزيد على قرن ونصف القرن. وكان ذلك الحكم قد قام على منهج إسلامي واضح يهدف إلى توحيد البلاد في ظلِّ دولة تنشر العقيدة الصافية وتحميها، وتطبِّق الشريعة الغرَّاء وتذود عنها. وبصفاء العقيدة وسيادة الشريعة يعمُّ الأمن والاطمئنان. وعند انطلاقة الملك عبد العزيز صوب الرياض كان منهج دولة آبائه وأجداده المنهج الذي يطمح إلى اتِّباعه. وبتوفيق من الله أتى نجاحه العظيم في توحيد مناطق البلاد المختلفة، وترسيخ الأمن في ربوعها، ثم الانطلاق بها في طريق النهضة الحضارية في جميع الميادين.

---

(١) انظر صفحة ٣٤ من هذا الكتاب.

وكـان الحكـام من آل سعـود، قبل الملك عبـد العـزيـز، يُلَقَّبـون بالأئمـة رمزًا لقيام حكمهم على أسس دينية. وظلَّ الكثيـرون من أبناء البلاد؛ خاصة علماء الدين، يسمُّونـه بالإمام حتى وفاته مع أنه حمل ألقاباً رسميـة. وكان مما خاطبه بـه قادة الدولة العثمانيـة: «أمير نجد ورئيس عشائرها»، ثم «والي نجد وقائدها عبدالعزيز باشا آل سعود». ومما خاطبته به بريطانيا «الشيخ عبـد العزيز»؛ جرياً على تعاملها مع حكام الخليج العـرب. وفي عام ١٣٣٩هـ عقـد مؤتمر في الـرياض حضره علماء البلاد ورؤساؤها، وتقـرر فيه أن يكون لقبه «السلطان». وبعـــد استقـرار الأمــر لـه في عسيــر أصبح لقبــه «سلطـان نجـد وملحقاتها». وفي عام ١٣٤٤هـ بـايعه أهل الحجاز «ملكا» عليهم، فأصبح لقبـه «ملك الحجاز وسلطـان نجد وملحقـاتها». وفي العـام التـالي بـايعه أهـل نجد، أيضـاً، ملكـاً عليهم، فأصبح لقبـه «ملك الحجاز ونجـد وملحقاتهـا». وفي السابع عشـر من جمادى الأولى، سنـة ١٣٥١هــ، صدر مـرسـوم ملكي بتـوحيـد أجزاء البـلاد بـاسم «المملكة العربية السعوديـة»؛ اعتبارًا من الحادي والعشرين من ذلك الشهـر (٢٢/ ٩/ ١٩٣٢م)، فأصبح لقبـه «ملك المملكـة العـربيـة السعودية».

وظلَّت المملكة العـربية السعودية في عهـد مؤسسها ترفـرف عليها رايات الأمن والاستقرار، وتشق طريقها نحـو الرقي والتقدم في ميادين مختلفة. ولما للأمن والجيش من علاقة خاصة بموضوع هذا الكتاب فإن من المستحسن إعطاء موجز عن نشأتهما وتطورهما في عهد ذلك المؤسس.

الأمـن:

سبقت الإشـارة في الفصل الأول من هـذا الكتـاب إلى الجهـود الكبيرة التي بذلها قادة الدولة السعودية الأولى في مجال تحقيق الأمن في ربوع البـلاد التي حكموهـا، ونجاحهم العظيم في ذلـك المجال حتى أصبحت تلك الربوع مضرب المثل في تحقُّقه. ولا شك أن لقوة العقيـدة الدينيـة في نفس الفرد أثـراً طيباً في اجتنـابه الجـرائم. لكن للإجراءات التي اتخـذها أولئك القادة السعوديون، أيضـاً، أثراً مهمّـاً في القضـاء على الجريمـة واستتبـاب الأمـن. ولقـد أُعجِب الملك عبـد العزيز بما حققه أسلافه من نجاح في المجال الأمني. لكنه لم يقتصر على اقتفـاء أثرهم فقط، وإنمـا تجاوز ذلك بتبنِّيـه أفكاراً رائدة وسنِّـه تنظيمـات جيدة، ممـا جعل جهـوده تؤتي ثمـاراً وفيـرة الخير دائمـة النماء.

وكـان مـن تلك الأفكـار الـرائدة فكـرتـه في حثِّ البـاديـة على الاستيطـان. وقـد برهنـت الأحداث على أن استقـرار كثيـر من أفـراد الباديـة، في ظلِّ حركة الإخوان، كـان عاملاً كبيـرًا في استتباب الأمن ورسوخه.

وبعد أن وفَّق الله الملك عبـد العزيز في توحيد منطقـة الحجاز مع المناطق التـي سبق أن وحَّدها عمَّـق اهتمامه بتحقيق الأمـن في ربوع البـلاد؛ معتمداً على أسـس متينة من كتـاب الله وسنـة نبيه محمـد، ﷺ، ومستفيداً ممـا كان موجـوداً في الحجاز من بدايـات تنظيمية لا بأس بهـا في المجـال الأمني. وكـان من الخطـوات التـي بـادر إلى

اتخاذها إنشاء مديرية الشرطة العامة سنة ١٣٤٤هـ. ومن مهماتها الأساسية المحافظة على النظام والأمن، ومحاولة منع وقوع الجرائم، والتحقيق مع المجرمين، وتنفيذ ما تطلبه منها الجهات العليا في الدولة. وكانت في بداية عهدها مربوطة بمدير الأمن العام(١)، الذي كان مرجعه النائب العام للملك في الحجاز(٢). وكان مقرها الرئيسي في مكة المكرمة. ثم أنشئت إدارات أخرى للشرطة في مناطق متعددة من المملكة. وقد ارتكزت تلك المديرية حينذاك على قوى المشاة، وجنود المرور، والخيَّالة والآليات، وشرطة حماية الأخلاق(٣). وكان مما قامت به، سنة ١٣٥٤هـ، إنشاء مدرسة لتخريج ضباط ومساعدي ضباط(٤)؛ أملاً في إسهامهم الفعَّال في إدارة الأمن مستقبلا.

وفي عام ١٣٦٣هـ تحوّلت مديرية الشرطة العامة إلى مديرية عامة للأمن، فتوسعت إداراتها وأعمالها. واستُقدِم لها خبراء من البلاد العربية لتطوير أجهزتها، كما ابتُعِث عدد من رجالها إلى الخارج للتخصص في شؤون الأمن العام والاطلاع على كل جديد في ميدانه. ثم استُحدِثت، عام ١٣٦٩هـ، تشكيلات جديدة في إداراته المختلفة، وعُرِّف تعريفاً واضحاً جاء فيه:

---

(١) الزركلي، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ص ٤٥٤-٤٥٥.
(٢) إبراهيم بن عويض العتيبي، **تنظيمات الدولة في عهد الملك عبد العزيز ١٣٤٣-١٣٧٣هـ**، الرياض، ١٤١٤هـ، ص ٤٣٠.
(٣) الزركلي، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٥٥.
(٤) العتيبي، مصدر سبق ذكره، ص ٤٣٨.

«الأمن العـام هو القوات المسلحـة المسؤولـة عن المحافظـة على النظـام وصيانـة الأمن العـام، وتوفيـر أسباب الـراحـة العامـة، بمنع الجرائم قبل وقـوعها وضبطها بعد ارتكـابها وتنفيذ كل مـا يطلب منها تنفيذه من أنظمة ولوائح وأوامر. . . »[1]. ومضت أجهزة الأمن العام في البلاد تخطو خطوات واسعة ثابتة؛ تنظيمًا، وتطبيقاً، حتى تحقق مـا تحقق من نجـاح عظيم في هـذا الميـدان الحيـوي. وكـان ذلك النجاح هو الذي تحدَّث عنه بإعجاب كبير الداني والقاصي.

الجيش:

كانـت قوات الملك عبـد العزيز فـي أثناء تـوحيده لمناطـق البلاد المختلفة، كمـا كانت قـوات أسلافـه من قادة الـدولتين السعوديتين الأولى والثانية، تتكوَّن من أفراد الحاضرة والبـادية. وكان يدعو أتباعه للغزو فتجتمع فئاتهم تحت رايته مع أمـرائهم ورؤسائهم. وكان الغزاة يعتمدون كثيراً على إمكاناتهم الذاتية أو المحلِّية؛ تسليحاً، وتموينًا. وبعـد نهايـة الغـزو يعودون إلى بلـدانهم ومـواطنهم ليستأنفـوا مزاولـة أعمـالهم المعتـادة من زراعـة وتجـارة ورعي وغيـرهـا. وكـان أفـراد الحاضرة، في المراحل الأولى من عمليـات التوحيد، يمثِّلون العمود الفقري للقوات السعودية في الغـزوات. وبعد أن تمَّ استيطان كثير من أبناء البـادية في «الهجر» وأصبحـوا «إخوانًا»، صـاروا في طليعة تلك القوات.

---

(١) المصدر نفسه، ص ٤٣٥.

ولما اكتمل توحيد منطقة الحجاز مع ما سبق أن توحَّد من مناطق البلاد الأخرى تحت راية الملك عبد العزيز أدرك هذا المؤسس أهميَّة تطوير قواته بشكل يتناسب مع المستجدات الحديثة. وكانت توجد نواة للجيش المنظَّم في هذه المنطقة قبل دخولها تحت حكمه. فأصبحت الفرصة متاحة له بعد دخولها ليقوم بما رآه وأراده من تنظيم وتطوير لقواته المسلَّحة.

كان من علامات اهتمام الملك عبد العزيز بأن يكون بين قواته جيش منظَّم أنه قام، خلال حصاره لجدة، بمناشدة أفراد الجيش الهاشمي؛ ضباطاً وجنوداً، أن يلتحقوا به، ووعدهم أن تصبح أوضاعهم أحسن مما كانت عليه. وكان منهم من استجاب له قبل انتهاء الحصار المذكور، ومنهم من استجاب له بعده[1]. وكان للجميع جهود موفَّقة في نشأة الشرطة والهجَّانة وخفر السواحل، وفي تشكيل وحدات عسكرية في جهات مختلفة من الحجاز. واستُقدِم من الأقطار العربية؛ خاصة من سوريا، عدد من الضباط الذين أسهموا في عملية ذلك التشكيل[2]. وكان من الخطوات المهمَّة في نشأة الجيش السعودي النظامي تأسيس مديرية الأمور العسكرية سنة

---

(١) الزركلي، مصدر سبق ذكره، ج ٣، ص ٩٩١.

(٢) كان من بين أولئك الضباط محمد مراد، ونبيه العظمة، وفوزي القاوقجي. المصدر نفسه، ج ٣، ص ٩٢٢.

١٣٤٨هـ[١]. وقد بدأ تشكيل هذا الجيش بفوج من المدفعية، وفوج من الرشاشات، وفوج من المشاة[٢].

وبعد خمس سنوات من ذلك التاريخ وصلت القوات النظامية السعودية إلى مستوى متقدم اقتضى أن تُشَكَّل بموجبه وكالة للدفاع مع استمرار وجود مديرية الأمور العسكرية[٣]. وكان من أهم الأمور التي قامت بها الوكالة إعادة تشكيل وحدات الجيش بحيث أصبحت تُسَمَّى: سلاح المشاة، وسلاح المدفعية، وسلاح الفرسان[٤]، وتنظيم تلك الوحدات على أساس كتائب وألوية[٥]، وإنشاء مدرسة عسكرية. وقد جعلت الطائف مقراً للوكالة والمدرسة[٦]. وفي عام ١٣٥٩هـ ألغيت مديرية الأمور العسكرية وأقيمت بدلاً منها رئاسة الأركان الحربية[٧].

أما عام ١٣٦٣هـ فكان عام بدء النهضة العظيمة للجيش العربي السعودي. ذلك أنه العام الذي شهد تحويل وكالة الدفاع إلى وزارة،

---

(١) العتيبي، مصدر سبق ذكره، ص ٣٩٩.
(٢) الزركلي، مصدر سبق ذكره، ج ٣، ص ٩٨٩.
(٣) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٩٨٩-٩٩٠.
(٤) العتيبي، مصدر سبق ذكره، ص ٤٠٣.
(٥) الزركلي، مصدر سبق ذكره، ج ٣، ص ٩٩٠.
(٦) العتيبي، مصدر سبق ذكره، ص ٤٠٤.
(٧) الزركلي، مصدر سبق ذكره، ج ٣، ص ٩٩٠. على أن العتيبي (مصدر سبق ذكره، ص ٤٠٦) نقلاً عن محمد الأفريقي ومحمد شيخو - ذكر أن إنشاء رئاسة الأركان تمَّ سنة ١٣٥٨هـ.

وتعيين الأمير منصور بن عبد العزيز وزيراً لها [١]. وكان نشطاً متحمِّساً لعمله. فقام بخطوات عظيمة تهدف إلى تقدم الجيش وتطويره. وكان مما تمَّ في عهده: استقدام الخبراء من خارج البلاد للتدريب، وابتعاث أعداد من أفراد الجيش السعودي إلى بلدان عربية وغير عربية للدراسة والتدرُّب والاطلاع، وافتتاح مدرسة للإشارة واللاسلكي، ومدرسة للطيران، ومدرسة للصحة والإسعاف، ومستشفى عسكري في الطائف[٢]، والبدء في بناء المصانع الحربية في الخرج[٣]. وهكذا اكتمل بناء الأسس القوية للجيش العربي السعودي. وكان من المواقف المشرِّفة لهذا الجيش في ذلك العهد الاشتراك في الحرب التي خاضتها الجيوش العربية إلى جانب الفلسطينيين ضد اليهود عام ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م[٤].

---

(١) المصدر الأخير نفسه، ص ٤٠٨. وقد ورد في بعض المصادر ومنها الزركلي، مصدر سبق ذكره، ج ٣، ص ٩٩٠، أن تحويل وكالة الدفاع إلى وزارة حدث عام ١٣٦٥هـ. ومن الأدلة التي أوردها العتيبي يتَّضح أن ما قاله هو الصحيح. ومن تلك الأدلة المرسوم الملكي في ١٥/ ١١/ ١٣٦٣هـ.

(٢) الزركلي، مصدر سبق ذكره، ج ٣، ص ٩٩٣: العتيبي، مصدر سبق ذكره، ص ص ٤٠٩-٤١٠.

(٣) المصدر الأخير نفسه، ص ٤١٠. وقد توفي الأمير منصور بن عبد العزيز سنة ١٣٧٠هـ، فخلفه في الوزارة أخوه الأمير مشعل بن عبد العزيز.

(٤) الزركلي، مصدر سبق ذكره، ج ٣، ص ٩٩٠. وكانت الفرقة السعودية قد اشتركت في تلك الحرب مع الجيش المصري. وكان قائد تلك الفرقة سعيد الكردي. وقد أبلت بلاء حسناً في الحرب.

صفات الملك عبد العزيز القيادية :

والمتأمل في سيرة الملك عبد العزيز يرى أن من أعظم أسباب نجاحه ـ بعد توفيق الله له ـ ما كان يتحلَّى به من صفات قيادية أبرزها ما يلي[1] :

١ - التديُّن :

وتديُّن الملك عبد العزيز ذو مظهرين واضحين : أولهما سلوكه الشخصي ؛ إذ كان محافظاً على أداء الواجبات والسنن الدينية، مبتعداً عن الرذائل الخلقية. وثانيهما مناداته بالإسلام عقيدة صافية وعملاً ملتزما. ومن المعلوم ما للتديُّن من أثر كبير في إمداد الفرد بصفات جليلة في طليعتها الثقة بالله، والتوكل عليه، والعزيمة على اقتحام المخاطر، والصبر عند الشدائد. وكان لتديُّن الملك عبدالعزيز بمظهريه المذكورين سابقاً، أثره البعيد في تعاطف أكثرية سكان المنطقة التي بدأ فيها تأسيس حكمه. ذلك أنهم كانوا يكنُّون مودة لكل متمسِّك بدينه القويم، وكل حامل للواء الدعوة الخيِّرة التي نادى بها الشيخ محمد بن عبدالوهاب وتبنَّاها وناصرها قادة الدولتين السعوديتين الأولى والثانية. ومن المعلوم، أيضاً، أن تجاوب الناس

---

(١) هذه الصفات وردت ضمن محاضرة ألقاها المؤلف في المؤتمر العالمي لتاريخ الملك عبد العزيز، الذي أقامته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض عام ١٤٠٦هـ. وقد نشرت تلك المحاضرة في كتاب المؤلف : **محاضرات وتعليقات في تاريخ المملكة العربية السعودية**، ط ٢، الرياض، ١٤١٣هـ.

الذين هم من مناطق متعددة وقبائل مختلفة مع من يرفع شعار الدين الذي هو عام للجميع أقرب، بصفة عامة، من تجاوبهم مع من يحمل لواء الإقليمية أو القبلية.

٢ - الكرم:

وكان سخاء الملك عبد العزيز جزلاً لا تكلُّف فيه. وكان من أحب الأمور إلى نفسه استقبال الضيوف، ومنح الهدايا. ولم يعهد عنه أبداً أنه فكَّر بادخار المال حبًّا فيه أو للاتجار به. وحبُّ الكريم من طبائع البشر أينما كانوا، لكن العرب يفوقون غيرهم في تقدير الكرم وإجلال السخي وحبِّه. ولهذا كان سخاء ذلك الملك عاملاً قوياً في إعجاب الناس به، وانضمامهم إلى صفِّه.

٣ - الشجاعة:

وكانت شجاعة الملك عبد العزيز شجاعة المتَّزن الواعي، لا شجاعة المتهوِّر غير المبالي. كان لا يتأخر عن المعارك. وأكبر شاهد على ذلك ما كان في جسده من جراح. لكنه كان يقدم إذا رأى الإقدام ضرورياً نافعاً، ويحجم إذا أدرك أن الإحجام ضروري مفيد. وتتضح شجاعته المتزنة الواعية في عدة أمور: أولُها أنه أدرك منذ البداية أنه لا يخطط لمعركة واحدة تنتهي بنهايتها مسيرته التاريخية سلباً أو إيجاباً، وإنما يخطط لحكم واسع مستمر. ولهذا كان يحاول تفادي الحرب ما استطاع إلى ذلك سبيلا. وكان يفضِّل دائمًا أن يكسب الآخرين بدون حرب بدلاً من أن يحاربهم لينتصر عليهم. ولم يكن هذا الموقف ناتجاً عن رغبته في الإبقاء على أرواح من ناصروه

فقط؛ بل رغبته، أيضاً، في الإبقاء على أرواح من كانوا مع خصومه لظروف خاصة. وكان يتصرَّف تصرُّف المفعم بالأمل بأنه سيكسب هؤلاء كما كسب أنصاره الأوائل عاجلاً أو آجلاً، وأن كلاًّ من هؤلاء وأولئك سيصبحون شعبه مستقبلا. وثاني تلك الأمور، التي اتضحت فيها شجاعته، أنه كان يثق بأقرب المقربين إلى خصومه ـ بعد الانتصار على هؤلاء الخصوم ـ لدرجة أنهم أصبحوا من حرسه الخاص. وثالثها أنه كان لا يجد غضاضة في الاعتراف بما يتحلَّى به مناوئوه من صفات الفروسية والشجاعة.

٤ – السمات الخَلْقية:

كان الملك عبد العزيز ذا شخصية متميِّزة. فهو طويل القامة، مشرق المحيَّا، له عينان ناطقتان بالذكاء والعزم، وله صوت جهوري مملوء بالثقة والقوة. وكان إلى جانب ذلك طيِّب المعشر ينظر إلى محدِّثه ويدرسه دراسة سريعة نفَّاذة، كما كان حاضر البديهة، واضح التفكير، قوي الإقناع. وكانت تلك السمات الخَلْقية والذاتية مما اعترف له بها السكان المحلِّيون وكثير من الزعماء الأجانب الذين قابلوه واجتمعوا به. وامتلاك القائد لمثل السمات المذكورة عامل من عوامل تأثيره على الآخرين وكسبهم إلى جانبه.

٥ – قوة الإرادة:

لم تكن حروب الملك عبد العزيز مع خصومه كلها انتصارات. فقد انتصر في كثير من المعارك التي خاضها، لكنه هُزِم في قليل

منها. على أن ميزته القيادية أنه عرف كيف يتعامل مع الانتصار والهزيمة تعاملاً جيدا. فالنصر لم يدخل إلى نفسه الغرور، ويصدَّه عن طريق الصواب، فيبطش بفلول خصومه المنهزمين، ويترك في نفوس الناجين منهم ونفوس أقاربهم جراحاً يصعب علاجها في مستقبل الأيام. والهزيمة لم تدخل إلى قلبه اليأس، وتحطِّم معنويته، وتفلَّ من عزيمته. وكما كان يتوِّج انتصاره العسكري، أحياناً، بالعفو، فيكسب من كانوا ضده كان يستلهم من هزيمته دروساً تساعده على تحسين خططه وتنفيذه لها مستقبلا. وكان من قوة إرادته مثابرته للوصول إلى هدفه المنشود.

٦ - الحرص على المشورة:

من أوضح الأدلة على رجاحة عقل الملك عبد العزيز أنه كان دائمًا يحرص على المشورة؛ مستنيراً بالحكمة القائلة: ما خاب من استشار، وقول الشاعر:

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة

فإن الخوافي قوة للقوادم

ثم إن استشارة ذوي الرأي الصائب من الأمور التي تجلب مودَّتهم لمن استشارهم، وتُعمِّق ثقتهم بزعامته، كما تشعرهم بأهميتهم في تسيير عجلة التقدم، فتزيد من حماستهم للعمل لما فيه نفع الجميع. وكان يستشير ذوي الخبرة في المجالات المختلفة فرادى أو مجتمعين. ثم يتأمل آراءهم بفطنة لمَّاحة، ويقرِّر ما يراه مناسبا.

٧ – سرِّية الحركة والتمويه على الخصوم :

وهـذان الأمران من الأمـور المتبعة قـديمًـا وحديثـاً داخل الجزيـرة العربيـة وخارجها . وكـانا مما اشتهـر به الإمـام سعود بن عبد العـزيز بالذات في الدولة السعوديـة الأولى ، كما ذكر سابقا . وقد بلغ الملك عبد العزيز في إتقـانهما درجة كبيرة . وبإتقانه لهما تـوفَّر له ، في كثير من الأحيان ، عنصر المفاجأة ، وسهل عليه الانتصار . وبالإضافة إلى حرصه على سرِّية حركته وتمـويهه على خصومه كان حذراً كل الحذر من أولئك الخصوم . وقـد تجلَّى ذلك الحذر في مظهرين : أحـدهما رصد حـركات خصـومه ، وثانيهمـا أخذ الحيطة والتـأهُّب لهجماتهم المحتملـة . ومن ذلك أنه شـرع ، فـور دخـوله الـريـاض ، في إقامـة أسوارها تحسُّباً لأي هجوم قد يقوم به ابن رشيد عليها .

٨ – وعيه للتاريخ :

حـرص الملك عبـد العزيـز حـرصـاً عظيمـاً على معرفـة التـاريخ والاستفـادة من عِبَره . وركَّـز على دراسة تـاريخ أمته ووطنـه ، والتأمل فيه ، حتى وعى أسباب نجاح أسـلافه من آل سعود وأسباب فشلهم . لقد أدرك أن مـن أسباب نجاحهـم في تكوين دولـة متراميـة الأطراف راسخة الأمن مناصـرتهم للعقيدة الصافية وتطبيقهم للشـريعة الغرَّاء . ومن هنا كان تمسُّكه بتلك العقيدة وتصميمه على تطبيق هذه الشريعة من الأمور التي لا محيد عنها . وأدرك ، أيضـاً ، أن العمود الفقري لقوة أولئك الأسـلاف العسكريـة كان الحاضـرة من السكـان ، وأن القبائل

الرُّحَّل إن وقفت بجانبهم في أوقات انتصاراتهم فإن غالبيتها غيَّرت ولاءها بسرعة بمجرد ظهور بوادر ضعفهم. بل إن تجربته الخاصة خلال السنوات العشر الأولى من مسيرته لتوحيد البلاد عمَّقت هذا الإدراك. وهكذا وافته فكرته الرائدة الذكية في بثِّ الروح الدينية في نفوس أبناء البادية، وحثِّهم على الاستيطان في أماكن خاصة. وبذلك الاستيطان المبني على أساس ديني قضى على اعتداءات بعضهم على بعض واعتداءاتهم على الآخرين بدرجة كبيرة، كما كوَّن منهم وحدات عسكرية تستميت في سبيل الهدف الذي يطمح إليه. وكانت جهود الإخوان بين سنتي ١٣٣٥ و١٣٤٤هـ في مسيرة توحيده للبلاد أكبر دليل على صواب رأيه ونجاحه.

وبالإضافة إلى ما سبق أدرك الملك عبد العزيز من تأمله لتاريخ أسلافه أن الانتصار العسكري في كثير من المعارك ليس كافياً لتحقيق نجاح سياسي مستمر، وأن تقدير كل إمكانات الخصوم ومراعاة الظروف كافة، والتعامل مع كل خصم وظرف وفق ما يناسبه أدعى إلى الفوز النهائي. وأدرك، أيضاً، أن من أسلافه من ذهب بعيداً في شدَّته على خصومه المحلِّيين، وتحدِّيه لخصومه غير المحلِّيين، وأن تلك الشدَّة وهذا التحدِّي كانا من أسباب القضاء المؤقت على الحكم السعودي. ومن هنا كان الرفق بالخصوم هو الصفة الغالبة في تعامله معهم، وكانت مسايرته لبريطانيا ـ القوة الكبرى المحيطة به حينذاك ـ سياسته المتَّبعة؛ خاصة إذا كانت تلك المسايرة لا تعيق

خططه التي رسمها لتوحيد البلاد واستقلالها الوطني على المدى البعيد.

٩ - حسن اختياره للرجال:

كان الملك عبد العزيز من أمهر القادة في اختيار الرجال الذين يعملون معه. فقد كان أكثر من اختارهم في مستوى المسؤولية التي أُلقِيت على كواهلهم. ولم يقتصر اختياره لمن يعمل معه على منطقة من مناطق البلاد دون أخرى. بل لم يقتصر على مناطق البلاد وحدها، وإنما شمل أفراداً قدموا إلى البلاد من أقطار عربية مختلفة هرباً من ظروف كانوا يعانونها في أقطارهم غير المستقلة حينذاك، وثقة بزعامته. وكما كانت الكفاءة الإدارية هي الصفة الغالبة على أكثر هؤلاء العاملين من الداخل والخارج فإن الإخلاص له ولما عمل من أجله من أهداف كان متوفِّراً لدى تلك الأكثرية.

١٠ - عمق معرفته بقومه:

كان عمق معرفة الملك عبد العزيز بقومه؛ حاضرة وبادية، من الأمور التي أثارت انتباه كثير من الناس كتَّاباً ورواة قصص. فقد كان يعرف زعاماتهم والأسس التي قامت عليها تلك الزعامات، ويعرف أسر الحاضرة البارزة وفروع القبائل المتعددة بدقة عجيبة. وكانت تلك المعرفة الدقيقة مما أكسبه إعجاب الجميع بشخصيته، كما أكسبته مهارة التعامل مع كل فرد وفريق وفق ما يناسبه من تعامل.

ولقد أدرك أن الجميع كانوا لا يطيقون وجود حاجز بين الحاكم والمحكوم. ولذلك جعل بابه مفتوحاً بينه وبين شعبه، فنال حبَّهم ورضاهم بدرجة كبيرة.

١١ - إتقانه فنَّ الإعلام الحربي:

كان الإعلام مهمًّا جداً في مرحلة توحيد البلاد؛ خاصة في المجال الحربي. وقد برهن الملك عبد العزيز في عدة مواقف على أنه كان يجيد فن الإعلام إجادة فائقة. ومن الأمثلة على ذلك أنه بعد أن ثبَّت مركزه في الرياض، وقدم إليه أبوه من الكويت، ودخل إقليم جنوبي نجد تحت حكمه، ظهر من هذه المدينة مشيعاً أن خلافاً وقع بينه وبين أبيه، وأنه اضطر إلى مفارقته. وكان هدفه من ذلك استدراج الأمير عبد العزيز بن رشيد لمعركة فوق أرض صلبة بالنسبة له. وصدَّق ذلك الأمير الإشاعة، فقدم إلى الإقليم ليستفيد من ذلك الخلاف، فتمَّ للملك عبد العزيز ما أراده من إطلاقه تلك الإشاعة، حيث وقعت المعركة بينهما، وانتصر عليه، وأصبح نداً له في نظر الجميع.

١٢ - الحظ:

كان سكان البلاد؛ حاضرة وبادية، يرون أن الحظ من الصفات التي لا بد من توافرها في القائد الذي يحاربون تحت لوائه. وكلما كان حظه أوفر كان اندفاعهم إلى الغزو معه أعظم. والحظ ذو مظهرين: أحدهما أن يوفِّق الله القائد في تخطيطه وتحركاته ونتائج أعماله. وثانيهما أن يعمي بصيرة خصمه فيقع في مشكلات لا يُوَفَّق

إلى حلِّها. والأمثلة على حظ الملك عبد العـزيز كثيرة، وحسن حظه أمر كان كثيراً ما ردَّده بنفســه ليدلِّل على أن الله معه. ومن كان الله معه فهو الغالب حتمـا. والقول بأن الملك عبد العزيـز كان ذا حظ عظيم لا ينقص من عظمته القيـادية. فما اتصف به من صفـات، وما رسمه من خطط ونفَّذه من أعمال، كلها شواهد على تلك العظمة القيادية.

الفهارس

١ ـ الأعلام المفردة

(١) عملت هذه الفهارس بناء على اقتراح من أستاذي الكريم الدكتور عبد العزيز بن عبد الله الخويطر، الذي تكرَّم بإبداء ملحوظات قيِّمة على الطبعة الأولى من هذا الكتاب. فله منِّي جزيل الشكر.

الخاء:

الزاي:

السين:

---

(١) لم يدرج اسم الملك عبد العزيز، هنا ، لأن الكتاب كله عنه ، واسمه وارد في كثير من الصفحات .

الشين:

الغين

الفاء:

القاف:

الكاف:

اللام:

الميم:

النون:

الواو:

الياء:

٢ ـ الأسر والقبائل والدول

الواو:

٣ ـ الأماكن

الشين:

الصاد:

الضاد:

الطاء:

الكاف:

اللام:

الهاء:

الواو:

الياء:

المصادر والمراجع

أولاً: أعمال باللغة العربية.

أ - أعمال غير منشورة:

البسام، عبد الله بن محمد

تحفة المشتاق في أخبار نجد والحجاز والعراق، صورة من نسخة نقلها عن الأصل المخطوط نور الدين شريبة سنة ١٣٧٥هـ.

الذكير، مقبل بن عبد العزيز

مسوَّدة تاريخ لم يحدِّد له مؤلفه عنوانًا ثابتًا. والمستعمل في الكتاب ثلاث نسخ يختلف بعضها عن البعض الآخر نوعاً ما. وهي:

الأولى: نسخة بجامعة بغداد رقم ٥٦٩.

الثانية: نسخة لدى الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن البسام.

الثالثة: نسخة خاصة لدى أقارب مؤلفه.

آل سعود، مشاري بن سعود

علاقات المملكة العربية السعودية بالمملكة المتوكلية اليمنية في عهد الملك عبد العزيز، رسالة ماجستير، قسم التاريخ بجامعة الملك سعود، ١٤٠٤هـ.

العُبَيِّد، محمد العلي

النجم اللامع للنوادر جامع، مخطوط لدى أقارب مؤلفه.

القاضي، إبراهيم المحمد

تاريخ القاضي، بخط مؤلفه، الذي كتبه بلغة عامية نجدية.

لجنة خاصة من وزارة الدفاع

المعارك الحاسمة في تاريخ الملك عبد العزيز العسكري، مسودة على آلة كاتبة.

ابن ناصر، عبد الرحمن

عنوان السعد والمجد فيما استظرف من أخبار الحجاز واليمن ونجد، صورة لمخطوط بقلم مؤلفه.

ب - أعمال منشورة:

إبراهيم، عبد العزيز عبد الغني

أمراء وغزاة، ط ٢، دار الساقي بلندن، ١٩٩١م.

الأصفهاني، الحسن بن عبد الله

بلاد العرب، تحقيق حمد الجاسر وصالح العلي، دار اليمامة بالرياض، ١٣٨٨هـ.

ابن بشر، عثمان بن عبد الله

عنوان المجد في تاريخ نجد، طبعة وزارة المعارف الثانية، ١٣٩١هـ.

بوركهارت، جوهان لودفيج

مواد لتاريخ الوهابيين، ترجمة عبد الله الصالح العثيمين، الرياض، ١٤٠٥هـ.

الجاسر، حمد

مدينة الرياض عبر أطوار التاريخ، دار اليمامة بالرياض، ١٣٨٦هـ.

حمزة، فؤاد

قلب جزيرة العرب، القاهرة، ١٣٥٢هـ.

خزعل، حسين

تاريخ الكويت السياسي، بيروت، ١٩٦٢م.

الخطيب، عبد الحميد

الإمام العادل: عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل آل سعود، القاهرة، ١٣٧٠هـ.

الدخيل، سليمان

القول السديد في أخبار إمارة آل رشيد، طبع ملحقًا لنبذة ضاري الرشيد. دار اليمامة بالرياض، ١٣٨٦هـ.

الرشيد، ضاري بن فهيد

نبذة تاريخية عن نجد، أملاها ضاري الرشيد، وكتبها وديع البستاني، دار اليمامة بالرياض، ١٣٨٦هـ.

الريحاني، أمين

تاريخ نجد وملحقاته وسيرة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل آل سعود، ط ٥، الرياض، ١٩٨١م.

الزركلي، خير الدين

شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز، بيروت، ١٣٩٠هـ.

السباعي، أحمد

تاريخ مكة، ط ٣، مكة، ١٣٨٧هـ.

السعدون، خالد

العلاقات بين نجد والكويت ١٣١٩ـ١٣٤١هـ، دارة الملك عبد العزيز بالرياض، ١٤٠٣هـ.

آل سعود، موضي بنت منصور بن عبد العزيز

الملك عبد العزيز ومـؤتمر الكويت ١٣٤٢هـ/ ١٩٢٣-١٩٢٤م، دار تهامة، ١٤٠٢هـ.

عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم

محمد علي وشبه الجزيرة العربية ١٢٣٤-١٣٥٦هـ، القاهرة، ١٩٨١م.

آل عبد القادر، محمد بن عبد الله

تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء في القديم والجديد، الرياض، ١٣٧٩هـ.

آل عبد المحسن، إبراهيم بن عبيد

تذكـرة أولي النهى والعرفـان بأيَّام الله الواحـد الديَّان وذكـر حوادث الـزمان، الرياض، دون ذكر لسنة الطباعة.

العثيمين، عبد الله الصالح

- **تاريخ المملكة العربية السعودية**، ط ٤، الرياض، ١٤١٢هـ.
- **محاضرات وتعليقـات في تـاريخ المملكـة العـربيـة السعـوديـة**، ط ٢، ١٤١٣هـ.
- **نشأة إمارة آل رشيد**، ط ٢، الرياض، ١٤١١هـ.

العقيلي، محمد بن أحمد

تاريخ المخلاف السليماني، ط ٢، دار اليمامة بالرياض، ١٤٠٢هـ.

ابن عيسى، إبراهيم بن صالح

- **تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد...**، دار اليمامة، ١٣٨٦هـ.

- **عقد الدرر فيما وقع في نجد من الحوادث في آخر القرن الثالث عشر وأول الرابع عشر**، طبع دليلاً لتاريخ ابن بشر **عنوان المجد**، المستعملة في هذا العمل.

الفرج، خالد الفرج

ديوان النبط، القاهرة، دون ذكر لسنة الطباعة.

لوريمر،

دليل الخليج، القسم التاريخي، ترجمة مكتب أمير دولة قطر، الدوحة، ١٣٩٥هـ.

المانع، محمد

توحيد المملكة العربية السعودية، ترجمة عبد الله الصالح العثيمين، الدمام، ١٤٠٢هـ.

ابن مسفر، عبد الله بن علي

أخبار عسير، ط ٢، بيروت، ١٣٩٥هـ.

النعمي، هاشم

تاريخ عسير في الماضي والحاضر، أبها ؟، ١٣٧٥هـ.

وزارة الخارجية السعودية

بيان عن العلاقات بين المملكة العربية السعودية والإمام يحيى حميد الدين، مكة، ١٣٥٣هـ.

وهبة، حافظ

جزيرة العرب في القرن العشرين، ط ٥، القاهرة، ١٣٨٧هـ.

وهيم، طالب محمد

مملكة الحجاز ١٩١٦-١٩٢٥م: دراسة في الأوضاع السياسية، مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة، ١٩٨٢م.

ابن هذلول، سعود

تاريخ ملوك آل سعود، الرياض، ١٣٨٠هـ.

هيئة تطوير مدينة الرياض

المصمك، الرياض ١٤١٤هـ.

ثانياً: أعمال بالإنجليزية.

أ - أعمال غير منشورة:

El - Batrik, A.,

Turkish and Egyptian Rule In Arabia 1810-1841, ph. D. thesis, University of London, 1947.

Sha afy, M.,

The First Saudi State (with special reference to its administrative, military and economic features) ..., Ph. D. thesis, University of leeds, 1967.

Al - Zulfa, M.,

Ibn Abd al - Wahhab Call and its Impact on the Asir Resistance to Turkish - Egyptian Rule 1811-1840, University of Kansas, 1973.

ب - أعمال منشورة:

Al - Amr, S.M.,

The Hijaz Under Ottoman Rule 1869-1914.., Riyad (King Saud) University, 1978.

Dickson, H.R.,

Kuwait and her Neighbours. London, 1956.

Glubb, J.B.,

War in the Desert, New York, 1961.

Habib, J.,

Ibn Sa'ud, worriors of Islam, Leiden, 1978.

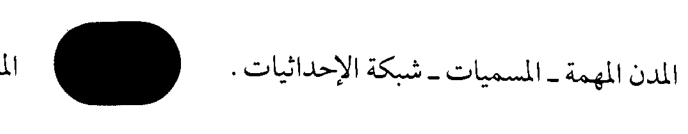
Musil, A.,

Northern Nejd, New York, 1928.

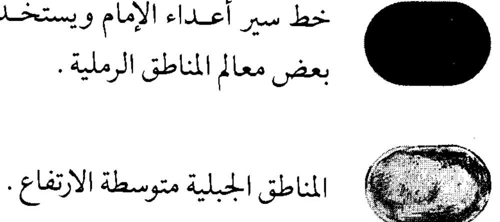
Troeler, G.,

The Birth of Saudi Arabia, London, 1976.

توضيح رموز الألوان المستخدمة في الخرائط



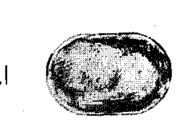
المدن المهمة ـ المسميات ـ شبكة الإحداثيات .



المناطق الزراعية والواحات .

خط سير الملك + البحار
ومجاري المياه .

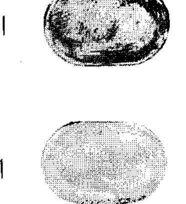
خط سير أعداء الإمام ويستخدم في توضيح
بعض معالم المناطق الرملية .



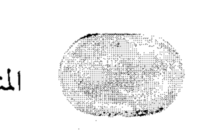
المناطق الرملية .



المناطق الجبلية متوسطة الارتفاع .



المناطق الجبلية .
التكوينات الجبلية العالية ومتوسطة الارتفاع .



المناطق السهلية (منخفضة الارتفاع) .

المحتويات

الموضوع | الصفحة